البحثُ عَن "كَانْدِيدْ"

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ ـ ٢٠١٩م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٢٩١٠

بطاقة فهرسة

مليكة ، شريف

البحثُ عن كَانْديْد: رواية/ شريف مليكة، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨

٢٩٦ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٥-١٥٩-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

لوحة الغلاف

الفنان العالمي

بيكاسو

تصميم الغلاف

د. شريف مليكة

التدقيق اللغوي

محمد أيت ميهوب

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

البحثُ عَن "كَانْدِيدْ"

رواية

شريف مليكة

لوحة الغلاف

"البحّار (١٩٤٣) le Marin"

الفنان العالمي بابلو بيكاسو (١٨٨١ ـ ١٩٧٣)

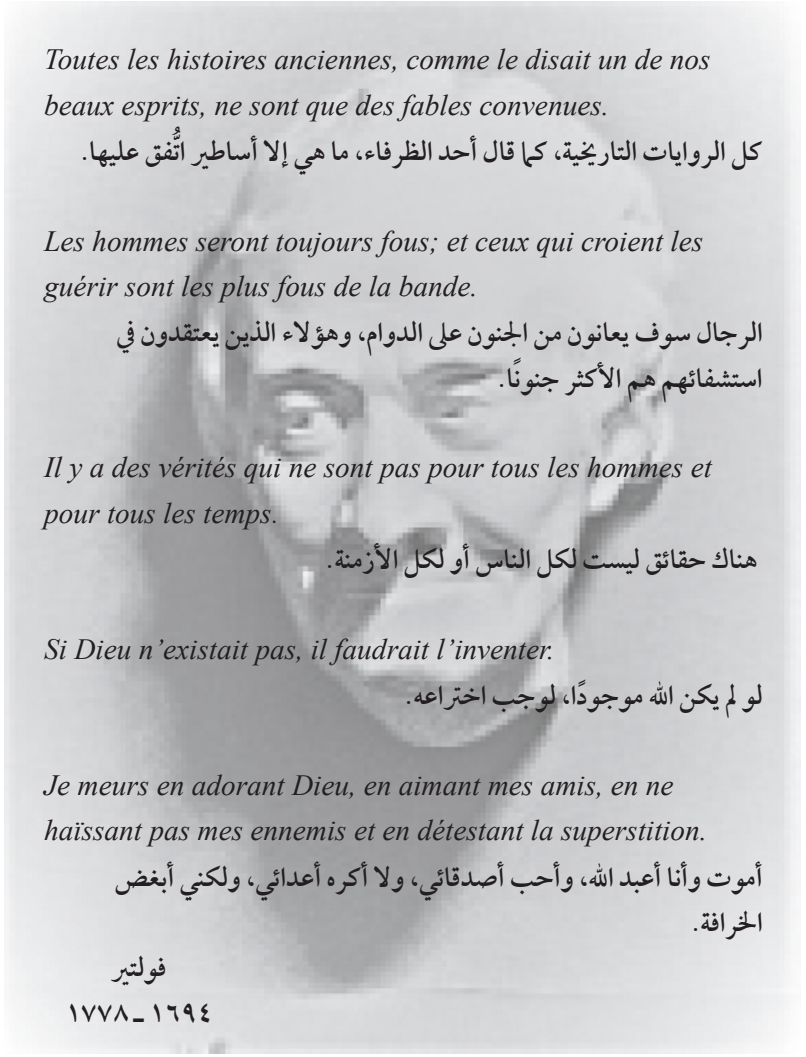

Toutes les histoires anciennes, comme le disait un de nos beaux esprits, ne sont que des fables convenues.

كل الروايات التاريخية، كما قال أحد الظرفاء، ما هي إلا أساطير اتُّفق عليها.

Les hommes seront toujours fous; et ceux qui croient les guérir sont les plus fous de la bande.

الرجال سوف يعانون من الجنون على الدوام، وهؤلاء الذين يعتقدون في استشفائهم هم الأكثر جنونًا.

Il y a des vérités qui ne sont pas pour tous les hommes et pour tous les temps.

هناك حقائق ليست لكل الناس أو لكل الأزمنة.

Si Dieu n'existait pas, il faudrait l'inventer.

لو لم يكن الله موجودًا، لوجب اختراعه.

Je meurs en adorant Dieu, en aimant mes amis, en ne haïssant pas mes ennemis et en détestant la superstition.

أموت وأنا أعبد الله، وأحب أصدقائي، ولا أكره أعدائي، ولكني أبغض الخرافة.

فولتير

١٦٩٤ ـ ١٧٧٨

إهـداء

إلى صديقي الودود أمير مكاريوس.
(وهو لا علاقة له البتة بأمير كيرياكوس؛ إحدى شخصيات هذه الرواية)

تمهيد

كأننا معلقون في صمت ذلك الفراغ السرمدي. نهيم في سكون، دون وعي، في فضاء الوجود ـ أو العدم ـ في انتظار إشارة. في ترقب لحظة البداية، ليتحول خواؤنا الأبدي إلى وجود.

***

لكل شيءٍ تحت السماء وقت.

كان الوقت ساعتها هو وقتنا، وإن لم نكن ندري أنه لم يتبق في الواقع سوى الأيام الأخيرة منه.

كنا نلعب.

وكانت لعبتنا أمام شقة "الست مريم" في الدور الثالث، في حضن البناية الشامخة بطوابقها الخمسة.

***

نتفاخر بالطبع بأنّ صاحب البناية ومشيّدها هو جدنا الأكبر رمسيس بك المصري، تاجر الحلوى الذي بدأ حياته بائعًا للعسلية والسمسمية ونبوت الغفير، من فوق عربة يد يجرها إلى ناصية شارعنا مع الشارع الرئيسي. ثم ابتاع دكانًا صغيرًا، كان في الأصل محلًا للعطارة، مات صاحبه ولم ينجب سوى بنات فباعته أسرته. بعدها ازدهرت تجارة الحلوى، فشرع رمسيس

أفندي في بناء مصنع للحلوى، يجلب إليه سكر القصب من الصعيد. ثم ابتاع له قطعة أرض يزرعها بالقصب خصيصًا لحاجة مصانعه، وكان يجلب باقي الخامات من أوروبا. كوَّن صداقات وعلاقات ممتدة هنا وهناك. ونال رتبة الباكوية، بعد أن نما مصنعه وازدهر حتى صار عدة مصانع. وتعاقب افتتاح متاجره، حتى صار هناك دكانٌ للحلوى في كل ناحية من أنحاء البلاد. ثم اتسعت تجارته لزراعة الكروم، وأنشأ معصرة للعنب ومصنعًا للنبيذ. شرع أخيرًا في تشييد عمارة عالية تضم كل عائلته، وقام ببنائها عند ناصية تقاطع شارعي التاجَيْن والمحمَّدي، ــ أو شارع القديسة هيلانة ــ كما كانوا قديمًا يسمّون الشارع العمودي على شارع التاجَيْن، والمؤدي إلى الطريق الرئيسي بالحي حيث كان يقبع بعربة اليد في أول مشواره. وقد ذاع كذلك أنّ التاجَيْن كانا يرمزان إلى تاجي الوجهين البحري والقِبلي، اللذين وحَّد بينهما الملك "مينا نارمر" في العهود السحيقة. ولكنّ البعض يقول إن التاجين هما الصحة والستر، أو المال والبنون، أو تاجيْ السيد المسيح والسيدة العذراء في الملكوت السماوي، أو أشياء أخرى وثنائيات مماثلة مما اعتاد الناس إعلاء شأنه على مر العصور. ومن المؤكد أنّ شارع القديسة هيلانة ظلّ على اسمه ذاك لعقود طويلة، كما قال لي أبي. والقديسة هيلانة هي الملكة البيزنطية التي سعت إلى أورشليم منقِبة عن صليب السيد المسيح حتى عثرت عليه في نهاية المطاف. وهي أم الملك قسطنطين، ذاك الذي كان أوّل ملك روماني يعتنق المسيحية، فانتهي على يديه عصر اضطهاد المسيحيين الأقدمين. ولم يتبدل اسم الشارع،

حتى نزح الشيخ المُحمَّدي الكبير وأهله إلى الطرف الأبعد من الطريق الطويل، هناك عند ملتقاه مع الصحراء التي كانت تحيط بالحي كله قديمًا، حيث كانت تقبع مقابر الأولين من أهالي حيِّنا. ثم ازدادت عزوة عائلته مع الوقت وتكاثر أفرادها، وشيدوا البنايات والعمائر على طول الشارع الممتد، إلى أن وصلوا بها إلى تقاطعه مع التاجيْن. تزوجوا وتناسلوا حتى صاروا كُثرًا، وحتى غيَّروا ذات يوم اسم الشارع وأجروه على اسم أبيهم الأكبر: المحمَّدي.

أقام هو بالطابق الأرضي في الشقة البحرية التي تتوسط الشقتين الشرقية والغربية عند كل طابق بالعمارة، واتخذ أبناؤه الأربعة وعائلاتهم الطوابق الأربعة الأخرى مساكن لهم. وبعد موت الجد الأكبر، خابت مصانع الحلوى بسبب الحروب والمحن التي اجتاحت العالم من حولنا، وتولّى أبناؤه من بعده محلات البيع، ومصنع النبيذ، ومزارع القصب والكروم. ولكنهم لم يتمتعوا بما كان لرمسيس بك من حس تجاري أو مهارة، لذا فقد خبت نجاحاته تدريجيًا. اضطر أبناؤه بعدها لتأجير الطابق الأول من عمارتنا لأغراب مروا بالحي؛ حكى لنا جدي نجيب عن المستأجر اليوناني الذي حوَّل الفناء الصغير ما بين المدخل والطابق الأرضي إلى مدرسة لتعليم اليونانيين. وقيل إنه تزوج من فتاة من شارعنا، وعاش معها لسنوات قبل أن يصحبها، هي وأولادها، ويعود أدراجه إلى بلده. وسمعنا أيضا عن المستأجر الرومي الذي أعاد افتتاح المدرسة التي أسسها اليوناني مجددًا، ولكنه أصر أن تقبل أولاد البلد

والأجانب بالتساوي، ولكنه كان غليظ الطبع، يفتعل الشجار مع الجميع، مع الأطفال والآباء على السواء، ولا يتورع حتى عن الضرب المبرح، وعرفنا أنه كان يستغل قوّته وبأسه لفرض إتاوات على المساكين والضعفاء، مثله مثل أيّ فتوّة من الفتوات، مما اضطر جدنا إلى طرده من العمارة في النهاية. وسمعنا عن الفارسي تاجر السجاد الثمين، الذي ملأ المنور تباعا بطبقات من السجاد حتى صعب على باقي السكان الصعود أو الهبوط. وحكى لنا أيضًا عن مستأجر فرنسي حل لفترة وجيزة، وكان يهوى البحث عن الأشياء العتيقة والتحف وعن الآثار، وكان يغيب بالأيام والأسابيع، ثم يعود محملًا بالمقتنيات من شتى الأرجاء. ولكنّ جدنا طرده غير آسف، إذ كان يسكر عند كل مساء مع أصدقائه فينتشون، ويعلو الضحك والصراخ في أنصاف الليالي حتى يكدر نوم باقي سكان العمارة. أما أطرف ما سمعنا، فكان عن ذاك المستأجر التركي الذي استأجر الطابق الأول كله له ولزوجاته الثلاث، وأصر أن ينتقل جدنا إلى طابق علوي ليترك لهم الطابق بجملته؛ وكيف إنه كان يتنقل في كل ليلة من شقة لأخرى لقضائها مع واحدة منهن. ولكنه اشتهر بالغيرة عليهن، فكان لا يطيق أن يقع نظر أي من السكان أو من الزوار القادمين على واحدة منهن. فما كان من هذا المستأجر إلا أن قرر يومًا حظر استخدام الدور الأول على أي ساكن كان، من بعد غروب الشمس وحتى الشروق. قيل إن جدنا وبقية العائلة وقتها ضحكوا من موقفه هذا في أول الأمر؛ فكيف يمكن للسكان الصعود أو الهبوط إذا مُنعوا من أن

يمروا بالطابق الأرضي؟ ولكن تبين لهم فيما بعد جديته وصرامة تنفيذه لذاك الفرمان التركي، فأذعنوا على مضض. ثم ما لبثوا أن غيروا من عاداتهم، فكانوا يسرعون لتلبية حاجياتهم قبل غروب الشمس، ولكن بات هذا الأمر عسيرًا على هؤلاء الذين كانوا يقضون معظم ساعات النهار في أشغالهم الحكومية، أو في متاجرهم. والأغرب أنّ التركي هذا مد ساعات الحظر تلك ساعتين قبل الغروب وأخريين بعد شروق الشمس، عندما حل الصيف بساعات نهاره الطويلة الممتدة. فزاد ذلك الطين بلّة. تذمر أهلنا أيامها. تضامنوا وأعلنوا رغبتهم في أن يرحل التركي هو ونساؤه، ولكنه رفض بتبجح ترك شقته المستأجرة بالرغم من تصدي جدنا له، متحجّجا بالعقد الساري الذي يحمل توقيع جدنا. قيل لنا إن كل افتراءاته تلك كانت بسبب هدايا قدّمها إلى مأمور القسم التابعة له بنايتنا وعلاقات قوية كان قد عقدها معه. وقيل أيضًا إن أحوال العمارة ساءت جدًا في تلك الأيام لعزلة أصحابها، وتعذر التواصل ما بين السكان وباقي أهالي الحي. وحدث هرج بسبب عطل كهربي وقع ذات يوم، فساد الظلام في منور العمارة، وامتد للبناية تباعا حتى شمل الشقق كلها لمدة شهر كامل. وبسبب عناد التركي وغبائه، استحال التعاقد مع كهربائي يرتضي ذلك التعسف، وصعوبة مجيئه وعمله في مثل تلك الظروف، إذ كان صندوق الكهرباء بالطابق الأرضي، وأصر التركي على تطبيق ساعات الحظر حتى على هؤلاء العمال، الذين اضطلعوا بالإصلاح كي تعود الكهرباء للجميع، بمن فيهم العائلة التركية نفسها.

فاستغرق الأمر شهرًا أو أكثر. وهكذا مرت فترة استئجار التركي للطابق الأرضي عسيرة، بطيئة الأيام والشهور، حتى عُين ضابط شاب مساعدًا للمأمور المُرتشي. تظلّم لديه جدنا، فتمرد على رئيسه ووشى به بعد ما شهد من فساد تعاملاته، وفي النهاية وافق الضابط الشاب جدي على طرد التركي من الطابق الأول مع زوجاته الثلاث بغير رجعة.

***

وفي نهاية الأمر، امتلأت عمارتنا بنا، وبالأطفال، وبالشباب، بالأحفاد، وبالآباء والأمهات، وبالجدات والأجداد. واكتظ سلم العمارة بنا، فلم تعد للأطفال أو للشباب القدرة على اللعب فوق درج العمارة، بالرغم من أنه صار أمرًا متاحًا في كل ساعات النهار والليل. ولكن اللعب كان يحتاج إلى شيءٍ من البراح، لم يعد موجودًا. ومع كل ذلك، فلقد تشبعت سلالم العمارة والعتبات أمام الشقق الثلاث عند كل طابق بالأبناء والبنات، يتسكعون، أو يتنابزون بألفاظ غريبة عنا، اختلقوها فيما يبدو. لم نعد نفهمهم، بل لم نعد نتعرف مجرد التعرف على كل هؤلاء الأطفال والشباب الذين باتوا يظهرون تباعًا على السلم، وفوق العتبات، صاعدين إلى الأدوار العليا أو هابطين منها، وهم أيضًا لم يعودوا يعرفون من نكون نحن. وتفسخت جنبات عمارتنا بالضوضاء، بطنين لا تسمعه إلا قرب خلايا النحل. جلبة الصاعدين والهابطين، في عجلة من أمرهم أحيانًا، أو في تباطؤ وكسلٍ في

أحيانٍ أخرى تصنع في النهاية طنينا. ثرثرة المتسكعين فوق كل مصطبة أمام الشقق، تحدث طنينا. صراخ الآباء والأمهات فيما بينهم في نزاعاتهم أو شجاراهم، أو في دعوتهم لأبنائهم وبناتهم ليعودوا إلى الشقق ليذاكروا، أو ليأكلوا، أو ليخرجوا منها ليبتاعوا أشياءً من السوق، أو ليذهبوا إلى المدارس، كل هذا الصراخ يتوحد في آخر الأمر، ويستحيل إلى طنين. وضجة تواجد البشر في حد ذاتها، حتى لو اتفقوا جميعا على الصمت المطبق، فمجرد تواجدهم بهذا الكم وحركتهم المستمرة تخلق طنينا. حتى الألوان المختلفة لأرديتهم، وقمصانهم، وسراويلهم، وتلك الحوائط المتعددة الصبغات المتنافرة عند كل طابق، حتى هذه أشاعت طنين. وخشخشة الأشجار، ونفير العربات، ونداءات الباعة، ونباح الكلاب، ومواء القطط، في الطريق في وراء الشبابيك، ومن حول العمارة، أضافت طنينًا إلى الطنين.

كان منظرًا فريدًا حُفر في أذهاننا إلى الأبد؛ النساء والرجال، بل وحتى الأطفال، يطوفون جنبات العمارة، يحملون الجرادل والمقشات، وخرقات القماش، والفُرشات والدهان، ويدورون بين الطوابق في حركة دؤوبة، مخلصة، وفوق وجوههم ارتسمت بهجة وافتخار كنا افتقدناهما لزمن. واستغرق الأمر أطول مما كنا نعتقد، بالمقارنة مع الوقت الذي كان استغرقه العمال المحترفون من قبل، ولكنّ سعادتنا بعودة نقوش عناقيد العنب، والأغصان الملتوية، والأوراق النابتة منها، الملتفة من حولها في توال طولي

منتظم، إلى الظهور من جديد فوق الدرج وحول الباحات بين الشقق الثلاث عند كل طابق، بالإضافة إلى انسجام ألوان الجدران والسقف بين كل أدوار العمارة، والتآلف بيننا أثناء العمل، كل ذلك عوض صعوبة المهمة، وجعل الوقت يمر بنا بدون أن نشعر به.

ساعتها أيقن شباب عمارتنا ورجالها قيمة النساء بيننا، وقدرتهن السحرية على إحداث التغيير. بات جليًّا عجزهم جميعا على تحقيقه لولاهن. لم تحمل طرقهم سوى الفرقة والتدافع، وحتى عندما انتظم عملهم، وإن كان رغمًا منهم، صرنا نحيا داخل خيمة سيرك، وإن كنا نفتقد الانسجام والدقة والتناغم التي تتمتع به في العادة فرقة السيرك. وأدرك كل من سكان العمارة أيضا قيمة التعاون والتناسق والعمل الشاق، لكي تتحسن أحوالنا. أبصرنا جميعا ثمر أيدينا واحتفينا به، ثم تعاهدنا على مواصلة الجهد، مع التضافر بين علم الدكتور توفيق، وفن الست إيزيس، وابنيها ماهر وأماني، وبين رؤية الست مريم وحكمتها، وقوة مُهنّد وانضباطه، وبين رقة الست تيريز وعطائها، وعملية كميل ويوسف وفعاليّتهما. بل استطعنا حتى مع تعانق إيمان جميل ومنذر، أن ندفع إلى الأمام بقيم رمسيس بك وبقية الجدود من عائلتنا، قيم العمل والحق والعدل، الممتدة في القِدم.

***

تتهادى السنون في انتظار اللحظة المرجوة. فجأة، تنطلق الإشارة. يهبط روح مغلَّف في ضوء برق من سماه، فيحل في ظلام رحم امرأة تدعى ماريا.

بالإسكندرية يلوح، فينفض عنه تراب السَفرة الكونية. يتلفت من حوله، فيخال تبدُّل الدنيا عن تلك الذاكرة الأبدية، العالقة بجوهره، وهو لا يدرك كينونتها، أو يَلقى لها تفسيرًا.

***

خرج "أمير فهيم كيرياكوس" إلى الطريق. كان دومًا خجولاً وقليل الحديث بصفة عامة، باهت البشرة منذ عودته من "أمريكا"، ومنذ انقطع عن قضاء الساعات الطوال عند شاطئ البحر، يمارس هواية الصيد، ويفكر في حل معضلات الكون، وفك طلاسم الحياة.

***

شعور جديد. لم يشعر بمثله منذ عودته من هناك، من منفاه. من تلك البلاد البعيدة.

شعر يومًا بحاجته إلى أن يهرب من هنا، من الإسكندرية، وأن يرحل بعيدا جدا، إلى هناك، "أمريكا" بلد الحلم الوضاء كما يقولون، ليهرب، لينأى بنفسه من ضغوط الجيران، وزملاء العمل، والوجوه التي يلقاها على شاشة التليفزيون، وكلمات الكُتاب فوق صفحات الجرائد، وحصار أغلب المعارف وتكالبهم ضده، فقط لكون عقيدته مختلفة، لأنه- ولا مؤاخذة- مسيحي، كما يقول "عم محمود"، بواب العمارة بلهجته الصعيدية بينما يخفض عينيه السوداوَيْن نحو الأرض ويُطرق برأسه خجلا، عندما يسأله أحدهم

عن شقة السيد "فهيم كيرياكوس" أو ابنه "أمير" بالطابق الثالث، كما أخبره صديقه "مراد" يوما، وهو يكاد يسقط على الأرض من فرط الضحك.

وربما كان قد قرر أن يهرب من تهديدات بالمضايقة، وبالعذاب، أو حتى بالقتل، تصله من بعضهم على فترات متقطعة، ولكن بصورة مستمرة، وبنبرة مُلحَّة، ومصرة على إيذائه. لقد تأكد فشله - في الواقع - في أن يدافع عن نفسه، وأن يبقى بالرغم من كل شيء، كما كان قد تعهد لنفسه من قبل. انهارت دفاعاته أخيرا فذهب. وكان ذلك بسبب الإلحاح المستمر من قِبل زوجته، بالطبع، فهي لم تدع مناسبة تمر دون أن تذكّره بخطورة الموقف، وبحتمية الهجرة. هرب منهم جميعا في النهاية، إلى تلك الأرض الجديدة. سيطرت عليه – ربما - فكرة خطرت له أيامها، أنه يتحتم عليه أن يذهب ليتعرف عليها بنفسه، بلد الحلم، تلك البلاد التي قالوا له إنها لا تعرف الفرق بين المسيحي أو اليهودي أو المسلم، بل قالوا إن اليهود بها، أكثر ممن يعيشون في إسرائيل نفسها. شعر أنه ربما ينبغي له أن يسافر إليها ليكتشفها، ليجد لنفسه – ربما - عشًا هادئًا يسكن إليه، وطنًا يحتضنه ويقبل به، وقد احتضنت تلك الأرض من قبله الكثيرين. فليذهب إذن ليرى بنفسه. هكذا كان يقول لنفسه. ولما تيقن في نهاية الأمر من كونه تعرف عليها تمامًا، وخاض كل أغوارها، فلم يَبقَ جديدٌ يمكنه أن يضيف لخبراته بخصوصها، وخاصة بعد أن وقعت اعتداءات سبتمبر ٢٠٠١ المأساوية، وسقطت ورقة التوت من بعدها عن الناس هناك، فبدأ التنقيب عن أصلك وعرقك وبلدك وولائك، أدرك أن المدينة الفاضلة التي كان يبحث عنها، غير موجودة أصلا، إلا ــ ربما ــ فوق صفحات كتب الفلسفة القديمة.

لم تبق لديه حاجة لمزيد من الاكتشاف. وتأكد أخيرا، أن عملية الهجرة المستديمة تلك أوشكت أن تدفع به نحو الجنون، وأنه لا سبيل له إلى الهرب من جديد، فعاد منذ ثلاثة أسابيع.

***

أيام وأيام ولم تعد "رينا" إليه. لم يفهم سر انقطاعها عنه، ومع ذلك فقد واظب على البقاء بشقة "كليوباترا" بمفرده، كلما تسنى له، وبدون أن يستثير شك "دينا" أو غيرتها.

عند صباح يوم تال، ألحت عليه "دينا" أن يستيقظ ليرافقها إلى الشارع. ولكنه لم يستمع جيدا لدعوتها إياه، بل لعله لم يفهم طلبها أن ينزل معها إلى الشارع. الشارع؟ أي شارع؟ أتعلمين أن الساعة لم تتخطَّ التاسعة بعد يا مخبولة؟ قال لها وهو يتأرجح بين اليقظة والنعاس، لم يع ما دفعها إلى أن توقظه في تلك الساعة المبكرة من الصباح، ولكن متى كانت آخر مرة ادَّعى فيها أنه فهمها؟ لا! بل إنه صار من المؤكد عنده أن هذا الجدل برمته لم يكن له أي مجال الآن. أتعلم تلك اللعينة في أي ساعة كان قد نام ليلة أمس؟ صرخ في وجهها أن تدعه وشأنه، وتنزل إلى الشارع بمفردها لو أرادت، فهي لم تعد صغيرة! وسحب الغطاء فوق رأسه ثم راح في سباته من جديد. تركته. ثم عادت بعد نصف ساعة، أو ساعة على الأكثر، لتوقظه من جديد. ما لك يا "دينا"؟ هل جُننتِ أم بكِ شيء؟ لماذا تصرين على ما تفعلين؟ اتركيني وشأني ولا تعاودي المجيء قبل الظهر، فأنا لم أنم إلا عند الفجر. تركته، وبعد ساعة عاودت المجيء، ولكنها كانت تصرخ هذه المرة، استيقِظ! استيقِظ الآن!

قم! الشوارع امتلأت بالناس! وأنت نائم! أفِق! الناس؟ ناس من؟ الناس! الناس! في كل مكان! في الشوارع! كل الشوارع! وفي التليفزيون! في كل المحطات! ما عدا المحطة المصرية! قم، وانظر بنفسك! أفق يا "أمير"! أجُننتِ يا حبيبتي؟ أتعين ما تقولين؟ أتخبريني بالحق، أم أنها مجرد حجة لإيقاظي؟ قم وانظر بنفسك! بصعوبة قام في النهاية، وذهب إلى الشرفة، يجُر تحته ساقه المكسورة، وأسطوانة الجبس الملفوفة من حوله.

بعد ساعة كانا في الشارع، وعلى الفور تنامى إلى آذانهما صدى هتاف الناس آتيًا من بعيد. وخلال دقائق وجدا أنفسهما في وسط الزحام. الناس كانوا يتوافدون من العمارات المجاورة بالعشرات، فيتبعون الركب. الشوارع الجانبية تجْمع الحشود أفرادا، وتصبهم جماعات في شارع "بورسعيد". هدير هتافاتهم يرج جدران البيوت، فيتطلع السكان من النوافذ والشرفات، يهتف لهم من المتظاهرين، فيختفون للحظات ثم يظهرون من جديد عند مداخل الأبنية ليشاركوا الموكب الهادر. "أمير" كان يتحامل فوق عكازه من ناحية، وفوق كتف "دينا" من ناحية. رتل من الناس يتحركون كالأمواج وهما في وسطهم كالقارب الصغير الذي كان يدافعه التيار. بشر، بشر، بشر، على الكورنيش، وفي شارع "بورسعيد"، وفي كل مكان، الناس تركوا منازلهم وأعمالهم ونزلوا إلى الشارع. كانوا يصرخون، لا! بل كانت قلوبهم تصرخ، الوجوه الغاضبة التي كانت تحترق بالأمس فتذوي وتموت، صارت اليوم

نضرة، حية، بل ومفعمة بالحياة، وبالثورة على الموت، ثائرة ببراءة ونقاء الطفل الثائر ضد الظلم إذا وقع عليه، تصرخ كما يصرخ الوليد الجديد، صرخة الحياة. وكان "أمير" و"دينا" يصرخان معهم:

"تغيير.. حرية.. عدالة اجتماعية"

"تغيير.. حرية.. عدالة اجتماعية"

نعم! التغيير أصبح محتومًا. لا يمكنه أن يستمر في عزلته المفروضة عليه تلك. لقد دفعت به "دينا" ليترك البيت، وجاء إلى هنا ليصرخ، وليعيش.

وجد نفسه يهتف معهم، ويدع كل أفكاره وراءه، وهو يصرخ بصيحة مدوية:

"تغيير.. حرية.. عدالة اجتماعية"، بينما تردد الجماهير الهادرة من حوله الشعار نفسه. لم يصدق "أمير" ما كان يحدث من حوله. أطال النظر نحو "دينا" ليستمد منها القوة، وليتأكد من أنه بالفعل موجود في وسط الشارع يشارك الناس ثورتهم ضد الظلم وغياب العدل. بقيا بالشارع حتى المساء، حين بدأ يشعر بالألم في ساقه، فطلب أن يعودا إلى البيت. لما خرجا من وسط شريان الجماهير المتدفقة، وجدا أنفسهما قد بلغا "كامب شيزار"!

في اليوم التالي، والتالي له، نزلا إلى الشارع. كانت "دينا" تحمّسه، وكان يستجيب.

وفاجأتهم الشرطة بالانسحاب من الشوارع ومن الأقسام. ووجد "أمير" نفسه يسهر مع الجيران من الشباب والرجال وحتى الشيوخ أمام بوابة كل

بناية، يعسكرون بالعصي وسكاكين المطبخ. كانوا يشعلون النار ليستدفئوا، وتجيء "أم نرجس"، القاطنة بالدور الأرضي، بصينية مليئة بأكواب الشاي، يرشفون منها وهم متجمعون على كراسي البحر فوق الرصيف، وبين أقدامهم زجاجات المولوتوف المملوءة بجاز الكيروسين، وعلى فوهتها خرقة مدعوسة به، مستعدة لإشعالها في أي لحظة، تظهر على قمة الشارع إحدى العربات النصف نقل، أو الموتوسيكلات المغيرة، التي كان البلطجية يستخدمونها للسرقة والنهب.

في وسط المظاهرة، في أحد الأيام، وجد نفسه محمولًا فوق كتف أحد الشباب. ربما كان قد شعر بالشفقة عليه من أجل الجبس الذي كان معلقًا بساقه اليُمنى. صرخ "أمير" بأقصى ما أوتي:

"الشعب يريد إسقاط النظام". بطرف عينه نظر نحو "دينا" شاكرًا إياها، بسبب إصرارها، وشعر بفرح يغمره، لقد تحولا إلى نقطة في بحر من البشر، وسواعدهم كلها ترتفع متناغمة، وقبضاتهم الغاضبة تدق في الهواء: "الشعب يريد إسقاط النظام.. الشعب يريد إسقاط النظام.. الشعب يريد إسقاط النظام"!

النظام؟ أي نظام يقصدون؟ أي نظام تقصدين أنتِ يا "دينا"؟ هل نسيتِ؟ كل هؤلاء يبتغون قتلي! أتذكرين؟ لقد هددوني أكثر من مرة، بل وحاولوا بالفعل، مرات ومرات. ولم ينجحوا حتى الآن إلا في كسر ساقي!

ومع ذلك فقد تمكنوا من قتل "مينا" بالفعل! وقد قتلوا أبي من قبل، وجدي أيضًا! ولكن، لم تتمكن "دينا" من سماع سؤالاته. هدير الهاتفين، وطلقات الرصاص، وأنين المتساقطين، ذابت كلها في صيحة واحدة. صيحة لم تدع مجالا، أو مزيدا من الوقت لـ"أمير" لأن يسأل، ولا لـ"دينا" لتجيب عن تساؤلاته. صيحة واحدة مدوية "الشعب يريد إسقاط النظام".

واندهش "أمير" فعلا من أن شياطينه لم تستيقظ وسط تلك الجلبة، وتحت ذاك الرتل من الانفعالات والمشاعر.

وعبر زخم من الجموع الهادرة، في أحد أيام الثورة، وبينما عساكر الأمن يتدافعون نحوهم بملابسهم السوداء، وهراواتهم تعلو وتهبط، وخوذاتهم تخفي عنه ملامحهم، وزحفهم يتقدم بهم في موجات من الدروع، بينما الرصاصات تنطلق من ورائهم هنا وهناك، ويتساقط العشرات بين جرحى وقتلى من حولهم، خيّل لـ"أمير" أنه لمح وجه "مراد الشناوي" عند الجانب الآخر من الطريق، بين وجوه عديدة امتلأت بها الشوارع في ذلك اليوم. ناداه ولكنّ صوته ذاب في هدير هتاف الجماهير.

ولكن مع الوقت، شعر بأنّ الأرض مادت من تحت قدميه. اشتكى "أمير" لـ"دينا" من هؤلاء الملتحين الذين ملأوا الشوارع الآن، وصاروا ينادون "إسلامية، إسلامية" بينما ينادي الشباب "تغيير.. حرية.. عدالة اجتماعية". وأشعل بعضهم النيران في كنيسة، فعادت لـ"أمير" ذكريات أليمة أيقظت

شياطينه من جديد، لأول مرة منذ عودته. صارت "دينا" حذِرة في التعامل مع زوجها، وعكفت على مداواته كما كانت تفعل في "نيويورك"، حتى بدأ الهدوءُ والسكينة يعودان إليه من جديد. ولكنهما لم يقدرا على النزول إلى الشارع من جديد، إذ شعرا بعدم قدرتهما على صنع التغيير الذي كانا قد تحمسا له في أول الأمر.

وانتاب "أمير" خوف من أن مكروهًا قد يلم بهما لو عادا إلى الشارع، وهي بدورها خشيت أن يعاوده الهياج وتفقد قدرتها على السيطرة على الأعراض وقد صارا الآن بعيدين عن الدكتور "فيودور". وسرعان ما فرض الجيش منع التظاهر، فقضى ذلك على آخر أمل قد يلوح لـ"دينا" لتتغلب على مخاوفها وتحفزه على أن يعاودا مساندة الشباب الثائر.

***

" الحياة أقصر من أن نمضي الوقت نفكر في معني الحياة. دعونا نحيا!"

وودي آلان

(من فيلم زهرة القاهرة البنفسجية)

"الله لا يمكن أن يعطينا عقولًا، ويعطينا شرائع مخالفة لها."

ابن رشد

(الفيلسوف الأندلسي)

"هناك أناس يطلقون عليهم في أوروبا اسم الناس ذوي النيات الحسنة. وأكاد في بعض الأحيان أن أخرج إلى الشرفة، وأصرخ في الليل، أين أنتم؟ تعالوا بسرعة، فكل العالم بحاجة إليكم."

يحيى حقِّي

(من كتاب "جهاد في الفن" للأستاذ مصطفى عبد الله)

الأول

وفي لحظة، تتكشف شمسٌ جديدة في عنان السماء. بارقٌ يشعل الشوق إلى عالم جديد. لم ترصدها أعين، بل لاحت لقلب روح حائر. نفس ترفل مهزومة، في دنيا مضطربة، جائرة، تقمش في جنباتها عن بارقة أمل. يترقب صاحبُها ولود نجم، وينشد بغير وجوم عالمًا أفضل.

***

هاتفني "أمير فهيم كيرياكوس" يطلب أن أمُرّ عليه بالمنزل لأمر ضروري. حينما اخترق رنين الهاتف فراغ الغرفة، مددت يدي مسرعًا، فأخرست صوت المذيع القادم من التلفاز، حتى أستطيع تبين كلماته المقتضبة. كان أمير يحادثني بصوت خافت، كأنه يفضي إليَّ بسرّ لم يبح به لسواي. بعد برهة، وجدتني أمد يدي المرتعشة لأضع السماعة مكانها من جديد، وأنا أعدل مجلسي على المقعد المجاور لمنضدة الهاتف. كبشتُ بتلقائية الجريدة التي كنت أتصفحها، إلا أنني أدركت مقدار ما فقدت من تركيز فيما كنت أقرأه، بعد تلك الزوبعة الوجيزة التي عصفت بكياني. شعاع الشمس القادم من الشرفة، والساقط فوق السجادة المفروشة أمامي، غاب. انطفأ فجأة.

غمامة شتوية لا بد تمر الآن في سماء الإسكندرية.

في الحقيقة، لم أدر سببًا لاتصاله بي، إذ لم نتواصل لسنوات، أربع أو خمس بالتحديد، حتى جاءتني تلك المكالمة المختصرة. المذيع ما يزال يتحدث خلال

التليفزيون الذي أخرسته. نفس درجة الانفعال المصطنعة التي سئمتها. وجدتني أجول بذاكرتي بين مقاهي وسط البلد السكندرية، أتابع مشاهد مقابلاتي القديمة مع أمير.

حين لاقيته للمرَّة الأولى، أيامًا بعد اندلاع أولى شرارات الثورة، في بداية عام ٢٠١١، مباشرة بعد أحداث يناير، كان حاله مريب. أمير مريض بلا شك؛ يعاني من رؤية خيالات وهمية، وهو يصدقها مع الأسف. يقولون عنها هلاوس بصرية، كما أعلمني خاله، صديقي القديم "الدكتور رمزي شحاتة"، الطبيب النفسي، والمهاجر إلى الولايات المتحدة منذ عقود. كان الدكتور رمزي قد اتصل بي مبديًّا قلقه على ابن أخته، عند علمه بنشوب الثورة في مصر، فطلب مني ملحًا الذهاب لرؤيته وطمأنته عليه، وأملى عليَّ عنوانه.

بالرغم من برودة شتاء الإسكندرية المعتاد، ذهبت لرؤية المدعوّ أمير هذا بشقته بحي "كليوباترا الحمامات". دلَّني بواب العمارة إلى شقته، بل وصعد معي ليتأكد من سلامة أمير، فيما بدا لي، إذ كنتُ غريبًا عن المكان.

تعجبت أكثر عندما رأيت أمير لأول وهلة؛ كان يقف كمثل خيال المآتة وهو في ملابسه الداخلية رغم برودة الجو، وساقه الملفوفة في أسطوانة الجبس المتسخ، والشعر الأشعث، والذقن النابت، وهو منتصب أمامنا ـ البواب وأنا ـ عند مدخل الشقة، معتليًّا أوراق صحف صفراء قديمة متناثرة فوق أرضية

الشقة، مغطاة بوسخ فضلات حمام وريشه. ومن حوله لمحت عشرات، بل ربما مئات الحمامات بدون مبالغة، تملأ الشقة حركة دؤوبة، كأن الأرض تميد بكليّتها من تحت قدميه العاريتين. كانت أصابع قدمه اليمنى القذرة تطل من فتحة الجبس، ورائحة كريهة تفوح منه أو من داخل الشقة.

قلتُ له إن خاله الدكتور رمزي أرسلني لأطمئن عليه، فأومأ وإن تسمرت عيناه السوداوان الخابيتان فوق لا شيء للحظات، ثم غاص إلى داخل الكهف الذي أطل من فوهته. وبينما كنت أنتظره بالخارج يومها، حين غاب ليرتدي ملابسه، لمحت لوحات زيتية ذات ألوان صارخة، مركونة بإهمال حول أرضية الغرفة مسنودة إلى الجدران. أذكر أنه قد جال بخاطري لحظتها التساؤل إن كان "عم محمود" البواب قد صعد معي ليطمئن على سلامة أمير، أم إنه قصد أن يحميني أنا منه.

عبر لقاءاتنا المتعددة وقتها، حكى لي بحميّة عن ملاكه الحارس، الذي كان يتراءى له، في صورة امرأة تدعى "رينا"، شديدة الشبه بزوجته "دينا"، تلك التي كان يسخر منها دائمًا. استغرقني بعض الوقت لأميّز بين رينا ودينا، حتى اعتدت التشابه المريب بين اسميهما. وقص عليَّ ما كان من أبيه حين علم منه بأمر زيارات رينا المفاجئة له، واختفائها غير المتوقع عنه، وكيف اعتبرها أبوه مسوسًا شيطانية. ثم ما كان منه إلا أن أخذه لزيارة الشماس ميخائيل لإخراج تلك الشياطين، لكنه لم يفلح في مساعدته. حينئذ اصطحبه

أبوه إلى دير "العذراء مريم" بأسيوط، لمقابلة راهب هناك يدعى إيليا، رشحه له الشماس ميخائيل؛ وكيف أنه صلى فوق رأسه فخرج شيطان من أنفه، الذي نزف قليلًا، ثم توقف بعدها عن رؤية الخيالات وسماع الأصوات التي كانت قد حالت بينه وبين المذاكرة والاستعداد للامتحانات.

وقصَّ عليَّ أيضًا عن تجربته مع تعاطي الحشيش، حتى تم حجْزه لأيام ـ عنوة ـ في غرفة بعيادة "الدكتور مصطفى" لعلاج الإدمان بالإسكندرية. ثم شرع يحكي لي عن هجرته لسنوات إلى الولايات المتحدة مع زوجته دينا، وتعرّفه على أهلها المهاجرين، وعن علاجه بمصحة نفسية هناك، توقفت بعدها ظهورات رينا له حين كان هناك. ثم حكى لي عن عودته إلى الإسكندرية ليبحث عن رينا التي افتقدها، وعن وجوده في "كنيسة القديسين" بسيدي بشر التي فُجرت ليلة رأس السنة من عام ٢ "١ "، وعن تسبب الانفجار في كسر ساقه وتجبيرهم لها، قبل أن ألقاه بأسابيع قلائل. ثم حكى لي عن حث زوجته دينا له، بعدها بأيام معدودات، على النزول إلى الشارع ومشاركته في الثورة يوم اندلعت في الخامس والعشرين من يناير ٢ "١١، ثم عزوفه عنها حين نادوا بها: "إسلامية، إسلامية".

وفسر لي أخيرًا سر وجود كل هذا الحمام في شقته؛ إذ كانت رينا لا تظهر له إلا في وجود حمام من حولها، ولمَّا كانت قد غابت عنه لفترة، ولم تعد تظهر له، قرر استدعاءها بالحمام، الذي ظل يجمعه في شقته حتى تعود رينا وتظهر له من جديد.

ظللت أستمع إليه لأيام، مشدوهًا بتلك الحكايات الفريدة، التي كان يقصها بحماسة وتلقائية جذبتني إليه. ثم انفجرت في وجهي قنبلة عصفت بي وقتها، حين اتضح لي أن أمير كان يختلق كل هذه الحكايا، وأنه كان أعزب، لم يتزوج قط لا من دينا ولا من غيرها. أعلمني بكل هذا عم محمود البواب بعفوية بعد أيام من تعارفنا، وفهمت من كلام الدكتور رمزي ـ صديقي ـ أن أمير كان يعاني من مرض نفسي، دعاه فصامًا أو شيئًا من هذا القبيل، وهو المعروف أيضًا بالشيزوفرانيا. دفعه ذاك المرض إلى تخيل شخصيات من حوله، يراها هو حقيقية، لا شك في وجودها لديه، ولكن ـ بالطبع ـ لا يقدر على رؤيتها سواه.

الأهم هو أني لم أكن أخشى لقاءات أمير المتعددة، بالرغم من مظهره المريب وتصرفاته المشبوهة، حتى انتهى من قص حكاياته، قبل أن أدرك بعدها أن معظمها متخيل بسبب مرضه. ولكن أعترفُ بتغير مشاعري نحوه بعد معرفتي باختلاقه تلك الحكايا. منذ أول لقاء بيننا، ظل أمير يلاحقني بالمكالمات لنلتقي، ولست أنكر انفعالي بقَصِّه حينها، فصرنا نتقابل، وهو يروي وأنا أنصت له. وما إن انتهى من سرد الحكايات، حتى انطفأت عيناه فجأة، وغابت عنهما الشعلة المتقدة التي كانت تدفعه إلى اللقاء بي، والحديث معي. ولكنني ـ في الوقت ذاته ـ أعترف بأنني أصبت بإحباط شديد، حين علمت باختلاقه كل تلك الأكاذيب، حتى عندما علمت بأمر مرضه فيما بعد. لم أستوعب أبدًا ـ وما زلت إلى الآن ـ مقدرته على الكذب بمثل هذه

المهارة. بل وعزوتها إلى رغبته في السخرية مني أنا شخصيًّا، والتهكم من سذاجتي التي حملتني على تصديقه، كأي عجوز أشيب، ضاعت مع الوقت حدة ذكائه، وخبا اتقاد ذهنه، فبات فريسة سهلة للاستهزاء به. لم تفلح كل محاولات صديقي الدكتور رمزي، وتفاسيره الطبية المعقدة، في أن تقنعني بالعدول عن رأيي ذاك، وإبدال مشاعري نحوه. فلمَّا كف أمير عن ملاحقتي برغبته المستعرة للقائي، تنفست الصعداء، ولم أحاول أبدًا من ناحيتي الاتصال به. لست أنكر أن عقلي كان يعود بي أحيانًا لأعايش تفاصيل قصة من قصص أمير العجيبة. ولا أنفي أني كنت أتساءل عن أثر كل تلك الاضطرابات السياسية المتلاحقة التي كانت تجابهنا كل يوم، عليه. كنت قد فهمت من خاله الدكتور رمزي، أن تلك الارتباكات من شأنها أن تؤثر سلبًا في حالته الصحية. ولكنّ الدكتور رمزي توقَف عن الاتصال بي قبل بضعة سنوات، فتوقفت تبعا لذلك عن إبداء قلقي بصدد أمير، حتى وإن كان ذلك بيني وبين نفسي.

لذلك جاءت مكالمته القصيرة تلك، على نحو مفاجئ لي، فاضطربت، وجعلت أنظر نحو الجريدة بين يديَّ، بينما كان ذهني يسترجع بعضًا من تلك الذكريات، وأنا أتدارس في نفسي ما أنوي أن أفعله بشأنها.

في الحقيقة، كان لتلك الأيام العصيبة التي مرت بي منذ اندلاع الثورة، أعظم الأثر على حالتي الصحية والنفسية. لم أنزل إلى الشارع في يناير، ربما لأنني احتسبتها هوجة، مثل سابقاتها من الوقفات الاحتجاجية العديدة.

وربما، لم أشارك لانشغالي بحكاية أمير الذي ظهر فجأة في حياتي، واستغرق كل وقتي، حتى بعد أن تحولَت بالفعل إلى ثورة شعبية عارمة. عدم الاستقرار، وغياب الاحساس بالأمان، وكثرة الأخبار عن أعمال العنف والبلطجة، اجتاحتني. ووصلت تلك البلايا إلى حيّنا الهادئ، فسُرقت سيارتي الفيات ١٢٨ المتواضعة، من أمام رصيف عمارتنا. ذهبت إلى قسم الشرطة لأشتكي، فضحك الضابط، وطلب مني أن أحمد ربنا على خسارتي المتواضعة، بالمقارنة مع الآخرين. أذكر عودتي إلى المنزل خائبًا يومها، أسوأ حالًا مما كنت عليه حين ذهبت.

أدى بي هذا كله إلى أن أهرم عشرات السنين خلال تلك السنوات الأربع الفائتة. صار خروجي من شقتي شحيحًا، وطالت ساعات متابعتي الأخبار، والبرامج الحوارية على شاشة التليفزيون، بينما قلَّت قراءاتي الأدبية، أو ثمة غيرها من القراءات التي كانت تستهويني. حتى الطعام، صرت غير مقبل عليه، أقتصر في تناوله على وجوب الأكل، وليس استجابة لشهية فقدتها مع الوقت، فصارت بضعة من اللقيمات بديلة لوجبات كاملة في معظم الأوقات. ومع مرور الأيام بدأ الوزن يقل، وتجاعيد الوجه تتعمق، وأصبحت الحركة أصعب، حتى اضطررت أن أبتاع عصا للاتكاء عليه، إذا ما خرجت إلى الشارع لأشتري شيئًا.

ولكنني نزلت إلى الشارع يوم ٣ " يونيو، بعدها بنحو عامين، لأشارك في استعادة البلد من قبضة جماعة "الإخوان المسلمين"، التي كادت أن تخنقه.

ولست أنكر أني كنت أجول ببصري بين جموع البشر الثائرة، أبحث بينهم عن أمير كيرياكوس، لعلي أجده أخيرًا، بعد أن انقطعت كل أخباره عني. ومع ذلك، وبالرغم من نزولي عدة أيام، لم أفلح في العثور عليه. وتفكرت للحظات في أن أتجه إلى شقته بحي كليوباترا، ولكن سرعان ما انتزعت عني تلك الأفكار، ولم أسمح لها بأن تؤدي بي إلى أن أفتح صندوق الثعابين ذاك مجددًا.

لم أقدر أن أحدد ما إذا كان باستطاعتي أن ألقي بنفسي مجددًا إلى قلب عوالم أمير الغرائبية. ثم ما أدراني كم بلغ به المرض خلال تلك السنوات المضطربة، إذا كانت قد أثرت عليَّ، على مثل هذا النحو، والحال أني لم أكن أعاني من مرض قبل حلولها. وتساءلت ـ بيني وبين نفسي ـ إن لم يكن أجدر بي أن أتصل بالدكتور رمزي لأطمئن على أمير من خلاله، قبل أن أبادر إلى لقائه. ولكنني سرعان ما تراجعت عن هذه الفكرة، إذ من الممكن أن أستثير قلق صديقي المعلَّق هناك بمهجره الأمريكي، على قريبه، لاسيما أنه لم يكن قد اتصل به مؤخرًا.

تراقص العنوان الرئيسي أمامي ساخرًا: "رئيس الوزراء يتعهد بضبط الأسعار وإعادة الأمن إلى الشارع". كم من تصريح، بل وكم من رئيس وزراء جاءوا ورحلوا خلال تلك السنوات القلائل؟ طويت الصحيفة بعناية ووضعتها بجواري على المنضدة الصغيرة بجانب التليفون، ثم قمت وأنا أتساءل هل أذهب إلى مقابلة أمير كما طلب مني؟ وهممت واقفًا، وذهبت لأُعِد فنجان قهوة، يعينني على التفكير في ذلك الأمر.

فتحت ضلفتيّ الشرفة التي لم أقربها منذ أشهر الصيف، وفوجئت بكمّ التراب الذي علا أرضيّتها. ولكنني ـ على غير العادة ـ لم أكترث له، بل نفضت بعضًا منه من فوق سطح المقعد الوحيد، وجلست أستدفئ تحت غمرة من أشعة شمس الشتاء السكندري، وأنا أرشف متمهلًا من فنجان القهوة الذي جهزته لتوّي. أعادني صراخ المؤذن، عبر مكبر الصوت المثبت بشرفة بالبناية المواجهة، إلى الواقع. كنت قد سرحت أتذكر مجلسنا في هذه الشرفة نفسها، مع زوجتي رحمها الله، وكيف كنا نفند خلالها مشاكل الكون برمته، ونحلها من موضعنا هنا، حول أكواب القهوة في الصباح بعد الإفطار، يوم الجمعة، أو الشاي بعد الغروب والاستيقاظ من القيلولة في أيام العمل. مددت أصابعي المرتعشة فوق خدي، لأمسح دمعة انزلقت رغمًا مني.

دلفت مجددًا إلى الصالة، تطوف عيناي بأرجائها الصامتة. الأريكة الوحيدة تقبع حزينة بين مقعدين، يفضح بهتان كسوتها، عمر طاقم الجلوس العتيق. فوق الحائط من وراء الأريكة تطل صورة زفافنا، بألوانها الرمادية المتعددة الدرجات التي يدعونها مجازًا صورًا أبيض وأسود، رغم ندرة هذين اللونين بالذات فيها؛ أقف أنا إلى يمين الصورة مرتديًا زي البحرية المصرية، وإلى يميني "ثريا" ـ رحمها الله ـ مبتسمة بعينيها العسليتين وشفتيها المصبوغتين بأحمر الشفاه، الذي جعلهما تبدوان بلون رمادي غامق، في الصورة الحالمة ذات الإطار الفضي. ماتزال صورة المذيع فوق شاشة التليفزيون، يتحدث بجدية زائفة، بينما كنتُ قد أخرست الصوت منذ تلقيت مكالمة أمير. ترى

ماذا قال طيلة تلك المدة، وهل فاتني الكثير خلال ذاك المونولوج الأبكم؟ اتجهت نحو التلفاز فكمشت زره وأطفأته.

ثم التفتّ من جديد نحو ثريا، أسألها بعفوية عما تقترح أن أفعله بشأن مكالمة أمير. تلك كانت عادتي منذ تزوجنا، ولم أنقطع عن ممارستها بعد رحيلها. حقيقيٌّ (صحيح) أنني لم أعد أسمع ردها، ولكني صرت أشعر به فور أنتهي من سؤالها. لم يبق لي من أسأله في هذه الدنيا. سافر من سافر، ورحل من رحل، ولم يتبق سوى المعارف الذين لا تجمعني بهم إلا المآتم والأفراح القليلة التي يدعونني إليها. لست نادمًا على أي حال لأنني تزوجت من ثريا، حتى عندما أدركنا مبكرًا بأنها عاقر، بل وشككت مرارًا في أنها ربما كانت قد تواطأت مع الطبيب، ليخفي عني كوني أنا السبب في عدم إنجابنا. ولكني لم أجرؤ أبدًا أن أواجهها بتلك الأفكار، لأنني ببساطة لم أقو على تحمل الحقيقة، إذا ما كانت كذلك، كما كان يعن لي أحيانًا.

ومع مشقة عدم الإنجاب، وتغيب الأبناء بضجيجهم وفرحتهم عن محيط أسرتنا الصغيرة، فإنني أزعم بأنني قضيت معها أفضل سني عمري، إلى أن أصيبت بمرض السرطان اللعين، الذي أودى بحياتها خلال بضعة أشهر. حدث ذلك نحو عامين قبل ثورة يناير، حين التقيت بأمير.

شعرت لحظتها بأن ثريا كانت تحثني على رؤية أمير مجددًا. لعل أمور حياتي تتحسن بعض الشيء. ولعلي أجد في لقائه ما يكسر من ملل هذه الأيام الثقيلة المتعاقبة. لعله يصير الابن الذي لم أحظ به، فتخصب أيامي الجدباء وتورق.

لسعة برد تسللت إلى جسدي العجوز، فنهضت وأحكمت إغلاق ضلفتيّ الشرفة. ولكن القشعريرة ظلت تلازمني. اتجهت نحو غرفة النوم، ثم عدت إلى الصالة بالروب الصوفي، وأحكمت حزامه حول وسطي، وسحبَت يدي طرفه وشددته فوق صدري، وأنا أربت برفق فوق موضع القلب، كأنني أطمئن نفسي بأني ما زلت قادرًا على مجابهة شطحات أمير، مهما حاول.

رفعت عينيّ مجددًا نحو ثريا، وكأنني أتحقق من ردها على تساؤلي.

لكن ما حدث ليلتها كان بالفعل من أعجب ما رأيت؛ أذكر أنني شاهدت ثريا تنزلق من إطار اللوحة المعلقة على الحائط، ثم تهبط ببطء شديد حتى استقرت على الأريكة أسفل الصورة. الشكل هو نفس الشكل، بل وحتى فستان الزفاف هو نفسه، وكذلك الشعر المنفوش أسفل الطرحة، والوجه الشاب اللامع المشدود، والابتسامة هي ذاتها وأحمر الشفاه هو ذاته وقد بدا رماديا غامقا أيضا، إذ احتفظت ثريا الجالسة أمامي بألوان الصورة الأبيض والأسود.

بحركة لا إرادية مني، رسمت علامة الصليب فوق جبهتي وصدري وكتفيّ وأنا أتمتم:

"باسم الصليب، باسم الصليب.."

وإذا بثريا تنفعل جالسة، وتنتشر الألوان فجأة لتتبدل ألوان الصورة بدرجاتها البيضاء والرمادية والسوداء، فتعود لتنبض بالحياة أمامي وهي تقول:

"ما لك يا عاطف؟ لكأنك رأيت عفريتًا!"

أشحتُ بوجهي بعيدًا عن الأريكة ولم أردّ.

"بركاتك يا شيخ أمير!"

طرأ لي أنني من فرط تفكيري بشأن زيارته المرتقبة، واسترجاعي لما كان من ذكرياتي معه، قد التبستني تهيؤاته، حتى صرت أرى، بل وأسمع صوت ثريا وهي توبخني:

"شرب القهوة هذا، سيجعلك تسهر الليل بطوله ولن تنام! كم حذرتك من القهوة، ولكنك عنيد!"

رجع بي صوتها القادم من فوق الأريكة، من استرسال أفكاري. ولكني لم أجرؤ أن أتلفت لعلي أجدها جالسة فوقها، فتتأكد خيالاتي، ويتأكد اختلال أفكاري. آثرت السلامة، فقمت، وتوجهت حسيسًا إلى حجرة النوم، موقنًا بأن ليلتي سوف تكون بالفعل طويلة، وأنا أهمس لنفسي مجددًا خشية أن تسمعني ثريا:

"باسم الصليب، باسم الصليب!"

فأتى صوتها يتبعني:

"سامعاك يا عاطف!"

دلفت إلى الحجرة وأضأت النور، ثم أغلقت الباب خلفي بتأن. اتجهت مباشرة نحو السرير دون أن أخلع عني الروب. جلست إلى حافة المخدع

نحو ساعة أو اثنتين، بينما عيناي مثبتتين فوق مقبض الباب، منتظرًا أن يتحرك في لحظة وتدخل ثريا.

شعرت أخيرًا بالتعب، فانسللت بظهري زاحفًا حتى لامست الوسادة. سندتُ مؤخرة رأسي إلى لوح السرير، ولكن ثريا كانت محقة؛ حالت القهوة دون أن أستغرق في النوم، رغم الإجهاد.

ظللت أحملق نحو الحائط المواجه بطول الليل، بينما أسترق كل حين نظرة نحو الباب متوقعًا أن تدلف ثريا. ولكن في النهاية غلبني النعاس ولا شك، إذ أفقت لأجد ضوء الشمس قد تغلب على ضياء المصباح المتدلي من السقف.

بسرعة قمت واتجهت نحو حجرة الجلوس، فوجدت ثريا قد عادت إلى ألوانها البيضاء والرمادية والسوداء، وسكنت بجانب صورتي، داخل البرواز الفضي على الحائط فوق الأريكة.

الثاني

رغم قلة النعاس، فإنّ نشاطًا عجيبًا دب في أوصالي. اتجهت مباشرة نحو الحمام. خلعت الروب والبيجاما، ووقفت في ألبستي الداخلية أحلق ذقني أمام الحوض، وشعري الأبيض ـ أو ما تبقى منه ـ منكوش بفعل نومتي المضطربة، ووجدتني أغني لأم كلثوم:

"تفيد بإيه يا زمن وتعمل إيه يا عذاب"

تحممت بعدها، ثم ارتديت ملابسي. وفي عجلة، شربت كوب شاي، وازدردت كسرة خبز، مدهون بالجبن الأبيض. خلال أقل من نصف ساعة كنت أجلس داخل سيارة أجرة متجهًا نحو بيت أمير.

كأن الزمن قد توقف، وجدت عم محمود جالسًا يتفحص الجريدة فوق المصطبة الخشبية، تمامًا كما عهدته يوم جئت لزيارة أمير فهيم كيرياكوس للمرة الأولى قبل خمس سنوات. ألقيت عليه التحية:

"سلام عليك يا عم محمود! الأستاذ أمير فهيم موجود؟"

فتطلع العجوز الأسمر نحوي متسائلًا، وقد زادت السنوات الخمس من بياض شعره الخشن. لم يبد كأنه تعرف عليَّ، ولكنّ نظرة عينيه الرماديتين

أبدت تعجبه من أني ناديته باسمه. في صعوبة وقف مستندًا بمرفقيه إلى فخذيه، ثم قال بلكنته النوبية المعهودة:

"خير يا سعادة البك، من تكون حضرتك، وماذا تبغي من أمير بك؟"

أجبته مسرعًا، مستنكرًا أن يكون نسيني كلّية خلال تلك السنوات الوجيزة:

"ألا تتذكرني أيها العجوز؟ أنا عاطف عزيز.. كنت أزور أمير بانتظام وقت اندلاع الثورة."

"أي ثورة؟"

"ما بالك يا عم محمود؟ ثورة يناير طبعًا!"

"نعم.. نعم.. ثورة يناير.. عفوًا، فمن هم في مثل سني ينسون مثل هذه الأشياء.."

تفكرت في أن تكون إجابته مشحونة بمعان مستترة، أو تلميحات بفشل الثورة عن تحقيق جل أهدافها. ولكني نحّيت تلك الفكرة جانبًا، إذ يبدو أنّ الشيخ قد أصابه فعلًا خرف الشيخوخة، فلم يعد يتذكر أي شيء. فعدت وسألته بحزم:

"هل تعلم إن كان أمير موجودًا؟"

"عفوًا يا سعادة البك، من قلت إنك تكون بالنسبة إليه؟"

"أنا.. اعتبرني صديقًا للعائلة.."

"أي عائلة؟ فأمير بك يعيش بمفرده. رحلت أمه، ثم مات أبوه الأستاذ فهيم كيرياكوس، ولم يبق سواه!"

"أعلم ذلك يا عم محمود.. أنا صديق خاله الدكتور رمزي!"

"أنا لا أعرف أحدًا يدعى الدكتور رمزي!!"

قالها باقتطاع وقد عقد ساعديه فوق صدره. بدأت أشعر بالضيق، إذ دام النقاش أطول مما توقعت. فقلت له وقد بدأ صبري ينفد:

"أصبت يا عم محمود، والحق معك. الدكتور رمزي ـ خال أمير ـ هاجر بالفعل إلى أمريكا منذ زمن بعيد. هل تود أن ترافقني الآن إلى شقة أمير، أم أصعد بفردي؟"

لم يجد الشيخ بدًا من أن يترك جريدته فوق المقعد الخشبي، ثم يهم ويتقدمني إلى داخل البناية متأففًا. فتح باب المصعد، وضغط زر الدور الثالث حيث شقة أمير.

فتح أمير باب الشقة، فإذا برجل آخر يطالعنا؛ مختلفًا تمامًا عن أمير كيرياكوس الذي فتح الباب ذاته قبل نحو خمس سنوات. كان حليق الذقن، مصفف الشعر، وإن كان قد صار أكثر سمنة عما كان عليه. في طرفة عين، مد يده مصافحًا، فانفرجت أسارير عم محمود أخيرًا، إذ أدرك أن أمير يعرفني. انصرف عم محمود نازلًا بالمصعد إلى الدور الأرضي من جديد.

لم تصدر رائحة كريهة من داخل الشقة هذه المرَّة، مما شجعني على الدخول.

لم أجد أثرًا للحمَام، ولا لأوراق الجرائد تغطي الأرضية، بل حتى اللوحات الزيتية، وجدتها معلقة فوق جدران الصالة وحجرة الطعام المفتوحة عليها.

ألحَّت عليَّ فكرة جهنمية؛ أن يكون أمير قد شفي من مرضه، لأبدأ أنا رحلتي مع عالم الخيالات والأوهام، من بعد ما حدث لي ليلة أمس.

كان أمير يرتدي قميصًا وسروالًا، وكأنه يستعد للخروج. لذا تعجبت حينما سألني إن كنت أريد أن أحسو شايًا أو قهوة.

"كنتَ متوقعًا مجيئي، أليس كذلك؟"

"بكل تأكيد."

"وهل تعرف كيف تعدّ فنجان القهوة يا أمير؟"

"لا.. ولكني كنت أسألك عن القهوة (النسكافيه)."

"وهل يشرب مثلي (نسكافيه)؟ أفَضّل شايًا.. أم تؤثر أن ننزل فننحو إلى أحد المقاهي، كما كنا نفعل قبل سنوات؟"

"حسنٌ.. ذلك أرجح إذن."

وفي لمحة عين أيضا، وضع معطفًا أنيقًا فوق قميصه، ثم اتجهنا خارجين. وجدنا عم محمود جالسًا فوق مصطبته الخشبية، يتفحص جريدته، فألقيت عليه التحية من جديد، ولكنّ ردة فعله المقتضبة أوحت بأنه نسي من أكون مرة أخرى، أو أنه لم يتذكر شيئًا عنِّي من الأصل.

في الطريق، علمت من أمير أنّ خاله الدكتور رمزي حضر إلى الإسكندرية قبل نحو عام، بعد أن ساءت أحوال أمير الصحية. اعترف لي بأنه أُجبر على دخول مصحة نفسية بالقاهرة، وإن كان العلاج الذي تلقاه بها قد أتى بالفعل بأفضل الثمار. تعجبت من أن رمزي لم يعلمني بأمر مجيئه، بل ولم يسع إلى لقائي أثناء وجوده في الإسكندرية، على غير عادته. لكنني لم أشارك أمير تلك الأفكار بالطبع.

سألته عن "رينا"، فالتفت نحوي بهدوء وقال:

"أنا أعلم أن 'رينا" خيال، وهمٌ يخترعه عقلي الباطن، يا أستاذ عاطف. أتفهّم الآن أعراض مرضي، وأتعاطى الدواء بانتظام لذلك أستطيع أن أحيا في سلام. تعلمت أيضًا أن أتجنب الأفكار الهدامة التي كانت تلاحقني باستمرار. ولكن رينا ما تزال تظهر لي، نعم، وأنا بدوري تعودت أن أتجاهل مجيئَها. لست أستبعد أن تظهر لي الآن بينما نتحدث. ولكن اطمئن يا أستاذ عاطف، سوف أتركها وشأنها. الأمر برمته تحت السيطرة."

كان يتكلم ببطء وتأن، ويحرص ألا تظهر عاطفة ما في ما كان يتفوه به، كأن كلامه شريط مسجل، يصدر من ماكينة إجابة المكالمات الآلية. لم يبادلني النظرات إلى الآن، بينما جلسنا نحتسي مشروبين ساخنين بمقهى في ميدان كليوباترا، والمارة يعجّون في الطريق، والسيارات والحافلات تمر وتملأ الجو صخبًا وضجيجًا.

ثم نظر أمير نحوي فجأة، وعاد البريق يطل من عينيه. ذكّرني بسالف ما كان عليه يومًا، قبل نحو خمس سنوات، وهو يقص عليَّ حكايته، التي تبينت بعدها أنه اختلق معظمها. بل أدار جسمه بكليّته فصار يواجهني تمامًا، ثم قال:

"هل تعرف فولتير، يا أستاذ عاطف؟"

"الكاتب الفرنسي؟ نعم أسمع به."

"إذن فلابد أن تعرف كَانديد؟"

تفكرت للحظات وأنا أهرش شعيرات رأسي القليلات الباقية، ثم قلت:

"كانديد؟.. لا.. انتظر قليلًا.. أليس؟.. ألم يؤلف فولتير رواية بالاسم نفسه؟"

تحمس أمير، ومال بجذعه فوق الطاولة بيننا، وخبط بكفه فوقها وهو يهتف:

"نعم.. نعم! رواية 'كانديد"؛ أهم ما كتب فولتير!"

احتسيت آخر رشفة من فنجان القهوة، ثم ابتسمت وسألته:

"أهذا كل ما أردت أن تحدثني بشأنه؟ هل اتصلت بي بالأمس لتدعوني إلى هنا، لكي تختبر معلوماتي الثقافية يا أمير يا ابني؟"

"بالطبع لا، يا أستاذ عاطف.. لست أدري كيف أقول لك هذا؟.. كيف أصارحك؟"

سكت أمير بضعة لحظات، ثم قال بجدية، وقد صوب نظراته نحوي، وكأنه يفضي إلي بسر خطير:

"يجب أن تصحبني في مهمة خطيرة يا أستاذ عاطف؛ ينبغي أن نعثر على 'كانديد" سويًا! أنا متأكد أنني لن أستطيع أن أجده بمفردي.."

قال هذا وأطرق، ثم مال رأسه أمامه في يأس.

رفعتُ يدي مستدعيًا النادل، وطلبت فنجان قهوة آخر. ترددتُ برهة قبل أن أعقب على كلمات أمير. أنا لا أريد أن أجرح مشاعره بكل تأكيد، كما أني لا أريد أن أستثير غضبه، فهو مريض ولست أعلم كيف ستكون ردة فعله لو أني سخرت من كلامه. وعلى الجانب الآخر، فها أنا قد وقعت في الشرك قبلًا، ولن أقبل أن يخدعني من جديد. لذلك كنت حريصًا جدًا حين انتقيت كلماتي وأنا أجيبه:

"أنت تدرك بالطبع، أنّ فولتير كتب ما كتب في القرن الثامن عشر، قبل أن تقوم الثورة الفرنسية."

رد أمير سريعًا:

"نعم.. نعم، أعلم ذلك بالطبع! فأنا خرّيج مدرسة 'سان مارك" الفرنسية كما تعرف، وقد درست كل هذا بالتفصيل!"

أجبت، وأنا أحاول أن أتمالك نفسي، لكي لا أبدو وكأنني أسخر منه:

"إذن، ماذا تريد أن تقول بالضبط، كيف تريد أن تعثر على كانديد هذا.. الآن"؟

جاوبني أمير بدوره ـ متأففًا ـ وكأن صبره قد نفد:

"أنا لم أقل إني أريد أن نبحث عن فولتير!"

فقاطعته على الفور:

"آه! لأن فولتير مات، أليس كذلك؟"

رد أمير بحماس:

"بالضبط! فولتير مات، ولكن كانديد لا يموت أبدًا!"

فأجبته، متحيّنًا فورة اللحظة:

"لأنه ليس حقيقيًّا!"

"لا.. بل حقيقي، وإلا فمن ذا الذي نتحدث عنه الآن؟"

"نتحدث عن شخصية في رواية كتبت منذ أكثر من مائتي عام!"

"وهل تموت شخصية في رواية؟ هل تموت سيمفونية ألفها بيتهوفن أو موزارت؟ هل تموت لوحة رسمها مونيه أو حتى مايكل أنجلو؟"

سكت لحظات، ثم أكمل وهو يشير نحو المارة من حولنا:

"ثم ما الذي يجعلك موقنًا أنّ كل هؤلاء، بل أنت وأنا، حقيقيون، ولسنا مجرد شخصيات في رواية؟"

أدركت الفخ الذي أعده لي الرجل. ولكني اليوم صرت أكثر حنكة مما كنت عليه قبل خمس سنوات، فسألته في براءة ـ قد تكون مفتعلة بعض الشي:

"آه فهمت!"

ثم قررت تغيير دفة الحديث قليلًا، فسألته:

"ولكن لِمَ تريد أن تبحث عن كانديد هذا، يا أمير يا ابني؟"

ابتسم أمير لأول مرة، وارتخى جسمه المتشنج أخيرًا، ثم رفع كوب الشاي، ورشف منه ثم أجاب:

"كانديد هو البراءة، هو النقطة البيضاء الوحيدة فوق قماش أسود متسخ، هو هذا العالم من حولنا!"

ثم مد يده أمامه واستدار بجسمه نحو الطريق، وهو يلوّح بذراعه يمنة ويسرة، ويقول:

"انظر.. انظر يا أستاذ عاطف.. تأمل كل هذا الوسخ من حولنا، كل هذا الفساد والعطن، كل هؤلاء السارقين والمارقين والكذبة.. هل يرضيك هذا الحال؟"

خشيت أن يلمحنا أحد رواد المقهى، أو حتى واحد من المارة، فيظن أنّ أمير يسبّه أو يسخر منه، فتقوم معركة.

"حسن، حسن.. دعك منهم، وكلمني أنا يا أمير يا ابني! ماذا تريد أن نفعل؟"

سكت أمير للحظات وقد غابت نظراته بعيدًا، ثم عاد وقال:

"يجب أن نسافر.. ينبغي أن نذهب إلى تركيا؛ إلى الأناضول، وهناك سوف نجد المزرعة، حيث كانديد، وزوجه كوناجوند، والبروفيسور بانجلوس،

صاحب المقولة الشهيرة ليس في الإمكان أبدع مما كان في هذا العالم البديع. إذا ما فعلنا، فسوف ننقذ هذا العالم القذر من الفساد المطلق الذي نحيا فيه. ألا ترى أننا نتجه بكل سرعة نحو هاوية سحيقة؟ ينبغي أن نفعلها سويًا، فأنا لا أقدر أن أنقذ العالم بمفردي، ولست أثق بأحد أن يفعلها معي سواك!"

قلتُ مستسلمًا:

"ننقذ العالم هكذا مرة واحدة! لو كنا نقدر أن ننقذ أنفسنا فحسب، لفعلنا!"

صمتُّ لوهلة، ثم أضفت:

"ولكنني مجرد موظف بالمعاش، يا أمير يا ابني. أنا لا أمتلك ما يؤهلني للسفر إلى تركيا، ولا حتى لشرم الشيخ!"

فأجاب بلهجة واثقة:

"لا عليك يا أستاذ عاطف، مصاريف الرحلة برمّتها سوف أتكفل أنا بها، ثم لا تنس أني ورثت من أبي مبلغًا لا بأس به، كما أنني سافرت كثيرًا، وعملت، وادخرت نقودًا كذلك."

تعجبت من إصراره في ما شرع فيه، كما تبينت لي جديّته، وأدركت أن المسألة تعدت مجرد دردشة على مقهى، وأن أمير قد تفكر في المسألة كثيرًا قبل أن يهاتفني.

سكتُّ ولم أنبس. رحت أتأمل حياتي وما آلت إليه. يدور يومي ما بين مشاهدة التليفزيون، ومطالعة الصحف، أو إعداد الطعام البسيط.

لقد زهدت فعلًا في كل هذا، وفقد كل شيء مذاقه لديَّ. ماذا سأخسر لو استجبت لدعوة أمير؟ بل لعلها فرصة أخيرة تلوح لي لأهرب من سجني المؤبد الذي قُضي عليَّ أن أحيا ما بين جنباته.

ثم إن الرحلة ذاتها قد تغدو استشفاءً لأمير من مرضه، كما حدث له حين سافر إلى أمريكا، على الأقل في سنوات ارتحاله الأولى. زد على ذلك أنّ تركيا أقرب كثيرًا من أمريكا تلك، ولن تستغرقنا هذه السَفرة سوى بضعة أيام، نعود بعدها وقد تحسنت أحوالنا معًا.

نعم كلٌّ منا يحتاج إلى تلك الرحلة.

لا، لستُ أشعر بأدنى ذنب تجاه أمير؛ فالفكرة تخصه برمّتها، وهو يرجوني أن أصحبه في رحلته، وما أنا فاعلٌ، إلا استجابة لمشيئته لا غير، ويشهد الله أني لا أنتظر من ورائها سوى أن تعم الفائدة حياتينا كِليهما.

الثالث

لم تستغرق إجراءات السفر سوى بضعة أشهر. عند بداية الربيع كنا نستقلّ الطائرة المتجهة إلى إسطنبول. جلسنا متجاوريْن، تربط بطوننا أحزمة إلى مقاعدنا وكأننا مسخران لقضاء مهمة قدرية، لا سبيل لنا إلى الفكاك منها.

سألت أمير لأول مرة عن سر رغبته في لقاء "كانديد" هذا، وكيف بدأت قصته معه. التفت نحوي وابتسم، ولم يردّ. ثم أدار وجهه في صمت نحو النافذة، يتطلع إلى الفضاء الأزرق المتجانس الذي صار يغلفنا.

وبعد نحو ربع ساعة مرت المضيفة توزع علينا أكياس الفول السوداني وكؤوسا بلاستيكية ملآنة بالمياه الغازية. وبينما كان أمير يقضم قطع المكسرات التي جمعها في قبضة يده، وجدته يجاوبني عن سؤالي الذي كدت أن أنسى أنني قد طرحته أصلا:

"رينا هي التي أشارت إلَيَّ بالبحث عن كانديد!"

بغتتني إجابته أولًا، حتى أنّ الأمر استغرق مني بضعة لحظات قبل أن أعلق:

"ألم تقل لي إنك تدرك أن رينا لم تكن سوى خيال، لم تعد تبال بها أو تأخذها على محمل الجد؟"

فأجاب بسرعة:

"أنا لم أقل هذا. كل ما قلت هو إنني تعودت أن أتجاهلها. ولكنني مع ذلك أسمع ما تقوله لي، وإن كنت أتغاضى عن معظم ما تحثني عليه. ولكنها حين كلمتني عن كانديد بالذات، لست أدري، فلكأنها أيقظت يقينًا كان نائمًا بداخلي، منذ أيام الدراسة الأولى، حين بات كانديد بطلي المفضل. أحببت فيه البراءة والطهر، في مواجهة العالم الشرير من حوله، كيف أحب 'ليدي كوناجوند"، حتى في أحلك الأوقات، وبعد أن صارت قبيحة، أصر على الزواج منها. وأسرني احترامه لمعلمه 'بروفيسور بانجلوس"، وتبجيله له، حتى من بعد أن اكتشف كذب مقولته إنه ليس في الإمكان أبدع مما كان في هذا العالم البديع. حينما أشارت إليّ رينا بأن أذهب لأبحث عن كانديد، فوجئت بسحابات اليأس تنقشع من أمام عينيَّ، بل تملكتني قوّة جبارة، وكأنها أخرجت المارد من القمقم."

انتظر لحظة ليبحث عن موضع كلماته لديَّ، ثم أضاف:

"تفكرت في الأمر مرارًا، وأعدت قراءة الرواية وبحثت عن موضع المزرعة التي استقروا بها في نهايتها؛ في القسطنطينية، الاسم القديم لإسطنبول، البلدة التي نتّجه إليها الآن. لم أتردد بعدها، وكنت أنت يا عزيزي؛ عاطف بك عزيز، الوحيد الذي تفكرت بجدارته ومقدرته في أن يصحبني في هذه الرحلة. وحين علمت من رينا في ما بعد بموافقة السيدة زوجتك على سفرك معي، اطمأن قلبي."

عندها، نظرت إليه ملتاعًا، وقد استحوذ على مشاعري وجس شديد. كيف أدرك الرجل ما دار بيني وبين ثريا، أو صورتها المعلقة في حجرة المعيشة بشقتي؟ هل أكون قد قلت له ذلك من قبل، ونسيت مثلًا؟ لابد أني فعلت، واستغل أمير زلّتي وأراد أن يوحي إليّ بحقيقة وجود رينا، بل وبمقدرتها على التحاور مع أرواح الراحلين عن دنيانا، وبالذات زوجتي المحبوبة ثريا. إنه يستغل مقدار محبتي لها ويتلاعب بي من جديد، كما فعل قبل سنوات. يا له من رجل شرير! إنه لا يني عن ازدراء كبار السن، بل ويسخر منهم، ويتلذذ بخداعهم! وفي لحظة واحدة أشحت بوجهي بعيدًا عنه حتى لا يلمح دموعي التي بدأت تنساب من حسرتي على ما آل إليه حالي، وقد صرت أسيرًا مربوطًا بمقعد طائرة متجهة إلى إسطنبول، لإحراز مقلب جديد، أعده ذاك الرجل الأرعن، الذي لا يكفّ عن تدليسي، والتلاعب بمشاعري، بكل صفاقة وتجاسر.

أما أمير فيبدو كأنه شعر بحزني، وربما لمحني وأنا أبكي. فأخذ يربت بيده فوق كتفي وهو يقول:

"ماذا بك يا أستاذ عاطف؟ ما الذي أغضبك؟ ما الذي قلته فجرحك؟ أرجوك بح لي وفسّر، فيتسن لي أن أعتذر منك على الأقل، أترجاك يا أستاذ عاطف!"

ما بين دموعي وجدتني أتساءل غاضبًا وقد تحشرج صوتي بدموعي المكبوتة:

"كيف علمت بأمر ثريا؟"

فأجاب أمير في الحال:

"ومن هي ثريا؟"

فجاوبت مفسرًا وأنا أتعجب من بروده:

"ثريا زوجتي!"

فرد هو ببراءة ظاهرة:

"أنا لا أعلم عنها شيئًا! ألم تقل لي إنها رحلت قبل سنوات؟"

فقلت محتدًا، وقد فاض بي الأمر:

"إذن فلماذا قلت إن رينا أعلمتك بموافقة ثريا على سفري معك؟"

فابتسم متخابثًا:

"أنا؟ أنا لم أقل هذا! وإن كنت قد قلته، فبالتأكيد لم أقصده!"

دفعت غاضبًا:

"قل لي إذن ما عنيت حين رددت بموافقة زوجتي على السفر؟"

أجاب أمير بكل هدوء لمَّا أدرك أخيرًا سر انفعالي:

"يا عم عاطف، لقد قلت لي حضرتك إنك شعرت برضاء زوجتك ـ رحمها الله ـ عن رحلتنا! أنسيت؟"

تطلعت نحوه آملًا في التحقق من صحة قوله، ولكني لم أجد سوى وجهه الجامد، الخالي من أيِّ تعبير.

في المطار وجدت الأتراك يشبهوننا جميعًا. كنت معتقدًا ـ بطول الأيام ـ أنهم أجمل وأبهى مما وجدتهم عليه. في بلدنا كان الناس يصفون أبيض البشرة، ناعم الشعر بأنّ به عرقًا تركيًّا، ورثه عن أم أو جد له. لما أدرك ضابط الجوازات أننا من مصر، بادرنا بالعربية:

"السلام عليكم!"

رددت عليه بالعربية أيضًا، ولكنه لم يفهم، فحاولت استخدام بضعة كلمات إنجليزية أعرفها، لكنني ذهلت من عدم تمكنهم من التخاطب بأي لغة ما عدا التركية. بالكاد نجح أمير في استخدام إنجليزيته وفرنسيته، مع رصيد كثير من لغة الجسد والإشارات، حتى يصف لنا بعض الإرشادات للوصول إلى ميدان "تقسيم" في شمال المدينة، إلى الجانب الأوروبي من إسطنبول.

في الطريق نحو الميدان الشهير، تبين لكلينا أن المدينة مكتظة بالبنايات والشوارع وبضعة حدائق هنا أو هناك. ولكن لا مكان بها لمزرعة أخينا كانديد المزعومة. كان الميدان مزدحمًا بالسياح وبالسكان الأتراك وخاصة الباعة، والأكشاك الصغيرة لبيع المأكولات من لحوم ودجاج ومختلف أنواع الحلوى. وفي منتصف الميدان يقوم نصب شاهق رمزًا لثورة أتاتورك الذي يتوسطه ضابط وقاض فوق قاعدة المنصة. ومن حول التمثال تقع بضعة

حدائق تشبه تلك التي كانت في ميدان التحرير بالقاهرة قديمًا. ولكن أيٌّ من تلك الحدائق، مازال أصغر من أن يكون المزرعة التي كنا بصدد البحث عنها لنصل إلى كانديد فيها. وكالعادة فشلنا في التخاطب مع أيّ من الأتراك الذين التقيناهم، إذ لا يتحدثون إلا بلغتهم. صرنا ندور وندور، وفي النهاية قلت لأمير:

"أشعر بالجوع، بعد كل هذه الحركة الدؤوب، وتلك الروائح الشهية التي تحيط بنا من كل اتجاه. فلنجلس قليلًا لنأكل شيئًا، ثم نستأنف البحث.""

وفعلًا اتجهنا نحو مجموعة من المطاعم المتجاورة التي تقع أمام مسجد كبير في أحد جنبات الميدان. جلسنا نقضم لفائف اللحم الضأن المشوي، ونشرب كوبي البيرة المثلجة، ونحن نتندر من عدم مقدرتنا على مخاطبة أيّ من هؤلاء البشر المكتظ بهم الميدان الشهير. قلت لأمير إنه لم يقَدِّر ـ رغم كل إعداده الدؤوب للرحلة ـ أنّ الأتراك لا يتكلمون الإنجليزية. وبينما نحن نتحدث، جاء إلينا صوت رجل، آتيًا من المنضدة المجاورة لنا:

"الإخوة من مصر؟"

كانت لكنته شامية، فالتفتّ نحوه وأجبت:

"نعم نحن مصريان."

فسحب الرجل كرسيه، وانضم إلى منضدتنا وهو يقول ضاحكًا:

"فعلًا! هؤلاء الأتراك غريبون حقًا. فها أنا مثلًا قد مكثت هنا عامًا أو أكثر قليلًا، ولم أجد مع ذلك وسيلة للتخاطب معهم، حتى اضطررت إلى تعلّم

بعض الكلمات التركية لكي أستطيع أن أتمم أعمالي هنا. يا (زلمة) بعضهم لا يعرف حتى اسم الأرقام بالإنجليزية! أنا اسمي زياد، من بيروت!"

رد أمير بصوته الرتيب:

"وأنا أمير، وهو عاطف، من الإسكندرية."

كان زياد رجلًا ضخمًا، ذا ابتسامة واسعة، ولفتات تنمّ عن أخلاق حميدة وثقافة واسعة. وعرفنا بعد قليل بأنه جاء إلى إسطنبول برفقة زوجته التي تعمل في مجال التنمية التابع للأمم المتحدة، وهو يمارس نشاطًا تجاريًّا ما، مرتبطًا على نحو ما بالسيارات أو الحافلات، أو شيء من هذا القبيل. سألنا:

"وما الذي جاء بكما إلى إسطنبول؟"

فأجابه أمير على الفور:

"هل سمعت حضرتك عن فولتير؟"

قال زياد باستغراب:

"نعم، بالطبع!"

فأضاف أمير فرحًا:

"جئنا إلى إسطنبول لنبحث عن مزرعة كانديد! هل تعرف من يكون كانديد؟"

فضحك زياد وضحك، وصار جسده الهائل يهتز بشدة. خشيت أن يفهم أمير ـ خطأً ـ أنه يسخر منه، فقلت على الفور:

"أمير ابني متخصص في الأدب الفرنسي يا أخ زياد، وهو بصدد تقديم بحث عن رواية كانديد لفولتير، لذلك جئنا إلى القسطنطينية ـ أو إسطنبول حاليًا ـ بحسب الرواية، لنبحث عن المزرعة التي كتب عنها فولتير."

نظر إليَّ أمير ممتنًا، وهو لا يكاد يصدق أنني قد فهمت كل ما قاله لي عن الرواية خلال رحلة الطائرة. وإذا بزياد يبادرنا قائلًا:

"لابد أن نزرع الحديقة. فعلًا! هذا هو ما قاله كانديد لأصحابه. لقد صارت تلك الجملة أشهر من الرواية نفسها. ولكنك لن تجد مزرعة هنا يا سيد أمير، لابد أن مزرعة كانديد كانت في الأناضول، على الجانب الأسيوي من المدينة، هناك وراء تلك التلال."

وأشار بيده نحو الجامع الكبير وما وراءه، فتبدت لنا على البعد تلالٌ عالية. فسأله أمير:

"وكيف نذهب إلى هناك؟ اشرح لي بدقة أرجوك، لأن أحدًا هنا لا يفهمني أو أفهمه!"

فرد زياد قائلًا بلطف:

"لا عليك يا سيد أمير، فاليوم عطلتي، ولا مشاغل عندي، كما أن زوجتي تعمل الآن. دعونا نذهب سويًّا، إذ بتّ متشوقًا مثلكما لمعرفة ما ستجدان هناك. كما أن بضعة الكلمات التركية التي تعلمتها، قد تبدو كمثل كنز في الأناضول، إذ إن سكانه أكثر قروية من الأتراك ها هنا."

فقال أمير وهو ينهض من مقعده، كأن عقربًا قد لدغته:

"فلنبدأ رحلتنا الآن إذن، حتى ننتهي منها قبل غروب الشمس."

تبعنا زياد من طريق إلى آخر حول أطراف الميدان، حتى وصلنا إلى حيث كان قد صف سيارته. جلس أمير بجواره، ومكثت أنا بالمقعد الخلفي. وأخذتنا سيارته إلى سطح جسر "محمد الفاتح" الضخم، الذي عبر بنا خليج البوسفور الشهير، بمياهه المتأججة الغاضبة، الفاصل ما بين قارتي أوروبا وآسيا.

وبالفعل بدأت المجمعات السكنية تقل تدريجيًا ولاحت أخيرًا مساحات خضراء قد تبشر بوجود مزرعة كانديد المزعومة. وحين صرنا محاطين بالاخضرار من الجانبين، ترك زياد الطريق السريع عند أول مَخرج، فقادتنا طرق فرعية صغيرة إلى مطعم على حافة مدينة صغيرة اسمه "مطعم الإسراء" كما يبدو، من الكلمات التركية المكتوبة بالحروف اللاتينية من فوقه. توقف زياد عنده، ونزلنا متجهين إلى داخل المطعم، ليتسنى لنا أن نبدأ رحلة البحث عن كانديد.

لم يكن هناك أحد سوانا داخل المطعم، فالوقت كان ما بين الغداء والعشاء. طلبنا أكوابًا من عصير الرمان الطازج، ولفافات الـ"دونر" الشهيرة هناك. بصعوبة استطعت أن أكمل نصف طعامي، إذ كنت قد أكلت قبل نحو ساعة أو اثنتين بميدان "تقسيم". أما العصير فكان رائعًا. أمير وزياد ـ على الجانب الآخر ـ أكلا بشهية واضحة، وهما يخططان لسؤال النادل العجوز عن "درويش" كان يسكن المنطقة المجاورة لمزرعة كانديد في الرواية. كان زياد أكثر واقعية من أمير، ولكنّ حماسه لتبيان نتيجة المغامرة التي وجد

نفسه يخوضها، دفعه إلى أن يجاري أمير في اندفاعه. أملى عليه أمير صيغة السؤال، ثم أشار زياد للنادل، الذي جاء يترنح من ناحية إلى أخرى كالبطة، بفعل السن، وتقوس ساقيه. قال له زياد بالتركية:

"هل تعرف عن عائلة درويش قديم؛ كانت تمتلك مزرعة حول هذا المكان؟"

بوغت العجوز بالسؤال. تلفت حوله كأنه لا يصدق أن هؤلاء الأغراب يجلسون أمامه هكذا ويسألونه عن خصوصية البلدة وتاريخها، وباللغة التركية. حك الشيخ ذقنه متفكرًا وهو يتطلع نحو السقف لعدة دقائق. ثم رفع يده مستأذنًا، وانصرف في صمت نحو المطبخ، عبر باب خشبي صغير. تبادلنا النظرات متعجبين من أمر ذلك العجوز الذي تركنا هكذا واختفى.

مرت نحو ربع ساعة، ونحن جالسون في انتظار عودته، على الأقل من أجل أن ندفع ثمن الطعام ونتعرف على عائلة الدرويش هاهنا، أو نمضي، فنواصل بحثنا عن كانديد هذا في مكان آخر. حتى زياد، أصابه التوتر مثلنا، وصار يتعجل عودة النادل لئلا نتأخر عن أداء مهمتنا. ثم انفتح الباب الخشبي فجأة، وعاد الشيخ يتهادى نحونا، حتى وصل إلى جوار زياد، وقال له:

"عفوًا يا بنيَّ، ولكنّ ذاكرتي لم تعد كما كانت. إلا أن زوجتي أصغر مني، وتعلم كل شيء عن بلدتنا، بحكم علاقاتها الوثيقة مع النسوة هنا. هي تعرف

أن درويشًا من طائفة المولوية، آتيًا أصلًا من مدينة "قونية"، كان يمتلك مزرعة هناك نحو الشمال منذ نحو بعيد، لذا تدعى "مزرعة القوني" وقد تركها لأبنائه وأحفاده من بعده، هكذا لسنين عديدة، وهي الآن ملك لواحد من الدراويش الراقصين، وله أتباع كثيرون يأتون إليه كل مساء ويرقصون وهم يبتهلون ويضربون الدفوف."

ما إن انتهى زياد من ترجمة ما قاله الكهل المسن، حتى دفعنا الحساب، وانصرفنا على الفور، متجهين إلى "مزرعة القوني" تلك، ولم تكن تبعد كثيرًا عن المطعم. توقفنا بالسيارة مرتين نسترشد عن مكان المزرعة، وحين وصلنا، تركنا السيارة مصطفة على جانب من الطريق. وترجلنا نحو المنزل الحجري الذي كان يتوسط مساحات خضراء في شكل أحواض مستطيلة، مزروعة بمختلف النباتات في كل مستطيل منها. حين اقتربنا من البيت شهدنا شيخًا تنمو فوق رأسه عمامة طويلة تتراقص بين أفرع النبات، منحنيًا فوق أحد الأحواض، يعبث بأصابعه بالنباتات أمامه، ويجمع بعضها في سلة من الخوص المجدول مركونة بإهمال إلى جانبه.

لما رآنا الشيخ نقترب، انتصب وحيّانا بابتسامة طيبة، ولحية بيضاء تصل نحو منتصف صدره. كان يرتدي جلبابًا أبيض طويلًا، ومن فوقه عباءة سوداء فضفاضة، ويضع فوق رأسه قبعة طويلة مثل الطربوش، ولكنها بنية اللون. سأله زياد من بعيد عن الشيخ القوني صاحب المزرعة، فضحك العجوز وهو يركض نحونا في سعادة وبشر، بخفة وليونة مناقضتين تمامًا لمظهره المسن. لما وصل إلينا فتح ذراعيه مرحبًا بكل منا على حدة، ثم دعانا إلى الدخول إلى البيت، وهو يقول ببشر:

"مرحبًا بكم في داركم!"

دخلنا باحة البيت المنمقة، التي أفضت بنا إلى بهو واسع نظيف مفروش بالسجاد وإلى جانب الحوائط، تناثرت وسادات حريرية في شكل دوائر للجلوس. قال زياد للتركي مردداً مقولة كانديد في الرواية:

"لابد أنك تملك أرضًا واسعة.."

فرد العجوز:

"ورثت عشرين فدانًا عن جدي، وورثت عنه أيضًا قوله إن العمل يبعد عنا ثلاثة شرور وهي الضجر، والشر، والحاجة!"

ترجم زياد كلمات الشيخ مبتسمًا، وهنا صرخ أمير مناديًا:

"هو.. هو.. هو الشيخ التركي.. أقصد حفيد التركي الذي لاقاه كانديد فقال له الكلمات ذاتها.. هو.. هو!"

فضحك الشيخ، ونظر نحو أمير متفحصًا إياه، من رأسه وحتى قدميه. ثم سأل زياد مستطلعًا:

"لماذا ينبح صديقك هو.. هو.. هو؟ هل أصيب بالسعار يا ترى؟ هل عضه كلب أو ذئب ربما؟ لا عليكم، فلدينا لكل داء دواء!"

فسَّر زياد بدوره كلمات الشيخ، فضحكنا أيضًا. أما أمير فتوقف عن الضحك فجأة، وقال اسأله عن كانديد، اسأله.. فلم يردّ زياد طلبه الملح:

"هل مولانا يعرف شخصًا اسمه كانديد؟"

ولكنّ الشيخ كان قد نادى ببناته أن يأتين بشراب للضيوف. وفي التوّ جئن بكؤوس بلورية براقة، وإبريق فضي، ملأنها بشراب هو مزيج من

عصير البرتقال والليمون والأناناس والنعنع، مع ثمار فول الصويا المسكرة، وقدمنها إلينا؛ شراب كألذ ما شربت في حياتي. ثلاث بنات مثل القمر البدر في بياضهن المرمري، شعرهن باقات معقوصة من أشعة الشمس الذهبية، تفوح منهن رائحة زهر الفل والياسمين، ويرفلن في ثياب فيروزية لامعة. أمرنا جمالهن الأخاذ بالصمت مبهورين. لبث زياد ذاهلًا من حسنهن، بل وحتى أمير لم يسعه إلا أن يمتثل لغوايتهن ويهدأ مثلنا.

لم يقطع سكوننا سوى انصراف بنات الشيخ، وكلماته وهو يتمايل برأسه من ناحية إلى أخرى وكأنه يستمع للحن سماوي يطربه:

"سألتني يا زياد عن شخص اسمه كانديد، أليس كذلك؟"

فأومأ زياد ببهجة، أما الشيخ فواصل حديثه قائلًا:

"جارنا في المزرعة الغربية هناك، اسمه كانديد. انه رجل غريب حقًا، لا يكبر أو يشيخ أبدًا، لا هو ولا أيّ من أقاربه قرينته وأخيها، وحتى رفيقه الشيخ الذي حدثني جدي لأبي ـ كما حدثني أبي ـ عنه؛ فلقد كان شيخًا عندما كان جدي ـ وكما كان أبي من بعده ـ صبيًا صغيرًا يلعب. وكبر جدي وكبر أبي، ثم شاخ جدي وشاخ أبي، ورحل الاثنان عن عالمنا، وهو بعده شيخ. ثم جئت أنا طفلا، وكبرت، وتزوجت، وشخت، وهم بعدهم كما هم؛ كانديد الشاب، وزوجه القبيحة كوناجوند، وأخوها الرجل المتعجرف، والشيخ بانجلوس. كلهم ظلّوا كما هم، لا يزيدون في العمر يومًا، ولا يموت أحد منهم، هل يعرف صديقك سرّهم يا زياد؟"

أشار زياد للشيخ التركي مستأذنًا أن يترجم لنا كلماته أولًا. ما إن انتهى زياد، بل وقبل أن ينتهي، انتفض أمير من مجلسه فوق الوسادة الحريرية،

فانسكب بقية العصير الساحر فوق السجادة تحته، ولكنه لم يأبه له، بل صار يقفز في الهواء ضاحكًا كطفل حصل على لعبة طالما حلم باقتنائها، وهو يصيح نحوي:

"قلت لك.. قلت لك.. كانديد حيّ لا يموت أبدًا.. كانديد حيّ.. كانديد حيّ.. قلت لك.. قلت لك.."

سرَت موجة ضحك ما بيننا، صارت تعلو وتعلو حتى رجعت بنات الشيخ القوني مستعلمات عن سر ضحكنا الذي ملأ البيت. وسرعان ما صرن يشاركننا الضحك كالعدوى المستشرية.

أما عن أمير فأعياه الضحك، فسكن برهة، ثم دفع بكلتا يديه يهز زياد العملاق من كتفيه هزًا، وسط تعجبنا جميعًا، فلم يمض على تعارفنا إلى الرجل إلا بضع ساعات قليلة، وهي لا تسمح أبدًا بإزالة الكلفة على ذاك النحو. أما زياد فقد تسللت الفرحة إلى روحه فعلًا، فلم يُبدِ ضيقًا أو تأففًا، ولكنه سأل:

"ماذا تريد يا أمير؟ ماذا؟"

أدرك الشيخ عندها أننا لم نكن سوى جماعة من المخابيل، فصار يتمايل في مجلسه من ناحية إلى أخرى، والبهجة الطفولية لم تزل تعلو وجهه. صرخ أمير بزياد:

"اطلب منه.. اطلب منه أن يرشدنا إلى مزرعة كانديد على الفور!"

فتطلع زياد نحو العجوز مستعطفًا:

"سيدي العزيز.."

فقاطعه الشيخ:

"لا سيّد بيننا، فكلنا عبيد السيد الأوحد!"

وأشار بسبابته إلى فوق، نحو السماء. فأطرق زياد لحظة ثم قال:

"هل يسمح مولانا بأن يقودنا إلى مزرعة كانديد؟"

كان الشيخ لا يزال يتأرجح بجذعه من ناحية إلى أخرى وأجاب:

"كنت أود ذلك يا زياد يا بنيّ، ولكن كانديد رحل عن هنا قبل نحو شهر. لقد كان يأتي إلينا كل مساء ويصنع الذكر معنا، وسألني ذات يوم عن سبب غياب الكاثوليكيين عن اجتماعنا. في الحقيقة لم أكن أعرف من يكون هؤلاء الكاثوليكيون، فلم أردّ. لكنه كان دائم الشكوى من أنه يبحث عن شيء آخر، شيء جديد، شيء مشابه لكنه مختلف. في النهاية انقطع عن المجيء، وبعد أيام سمعنا بخبر رحيلهم من جيراننا المشتركين."

سأله زياد بعد أن اجتاحته حمّى أمير، فصار يهذي مثله:

"وهل علم مولانا مقصده؟"

فابتسم الشيخ متمايلًا:

"يقولون إنهم ربما رحلوا شرقًا، لست أعلم أنا، فالله هو وحده السميع، والعليم ببواطن الأمور. قم يا زياد يا بني، قم، فالطريق أمامكم بعده طويل، والشمس على وشك المغيب. ولكن دعني أسألك قبل أن تمضي، هل تعرف شيئًا عن الكاثوليكيين؟"

ولكن زياد لم يستسلم فسأل الشيخ مبتسمًا بدوره:

"نعم، أعرف الكثير عنهم، لكن الوقت لا يتسع الآن. بالله عليك يا مولانا، أليس لديكم ما يرشد أصدقائي إلى مقصدهم؟"

فتهلل العجوز التركي، وهو مازال يتمايل وأجابه:

"المقصد هو الواحد الأحد! رب العالمين! لكن قُل لي، هل أصدقاؤك من الكاثوليكيين؟"

فأجابه زياد باحتدام:

"لا ليسوا كاثوليكيين! ولكن ماذا عن كانديد وعائلته، نحتاج أن نتعرف إلى مكانهم!"

فرد الشيخ متبسمًا:

"كل الحاجة إنما إلى واحد!"

وأشار إلى أعلى. ثم أكمل:

"أما عنهم فلقد قصدوا 'تايلاند"؛ ذاك البلد البعيد، من بعد أن ادَّعى المدعو بانجلوس ـ حكيم زمانه ـ بأن يبحث كانديد عن الحقيقة هناك، في وسط العاصمة 'بانكوك"، في ـ والعياذ بالله ـ معبد بوذا! أسرع يا زياد وارحلوا بسلام، وإلا فلتبقوا وتصنعوا الذكر معنا، فالإخوة بعدهم قادمون، ولا يصح أن تتركوا مجلسنا بعد أن يحضروا."

الرابع

لم يكفّ أمير عن الكلام في الطريق، بينما كان زياد يقود السيارة عائدًا بنا نحو إسطنبول من جديد. كان كلامه مزيجًا من السعادة لتحقيق نظريته في وجود كانديد في القسطنطينية كما توقع، وخيبة الأمل لكونه تأخر شهرًا واحدًا، بعد أكثر من مائتي عام قضاها كانديد يزرع حديقته. مجرد شهر واحد، لو كنا تعجلنا السفر خلاله، أو إذا ما اختصرنا توقيت طلب تأشيرات السفر، أو كان موظفو السجل المدني، أو السفارة التركية أكثر همّة، لكنا لحقنا بـ "كانديد" وأصحابه قبل أن يرحلوا إلى بانكوك. ولكن لا بأس، وإنما علينا الآن أن نستخرج تأشيرات من جديد للذهاب إلى تايلاند. طمأننا زياد بأنه يعرف صديقًا لبنانيًّا يعمل بالتجارة، ويتعامل مع السفارة، ويستطيع أن يساعدنا بكل تأكيد.

تبدى نهر البوسفور يبرق بالأضواء بينما كنا نعبره بالسيارة، فوق الجسر المرتفع، في منظر خلاب.

أصر زياد أن نبيت الليلة في منزله. فكانت فرصة للقاء زوجته الطيبة "مايا". لبثت المرأة مستيقظة في انتظارنا، رغم يوم العمل الطويل الذي أتمته. لقيتنا بفستان أزرق طويل، مشغولة صدريته بخيوط ذهبية، فهمنا منها

أنه من التراث الشعبي اللبناني. كانت امرأة ضئيلة الحجم مقارنة بزوجها العملاق، رقيقة الحديث، دافئة المشاعر، لم تبد أيّ اندهاش حين أعلمها أمير عن سر زيارتنا لإسطنبول، وكأنه أمر معتاد أن يبحث الناس عن شخصيات روائية تاريخية في شتى بقاع الأرض، بل وأن يجدوها أيضًا.

اندهشت حين ألح زياد على زوجته في أن يذهبا معنا إلى بانكوك، ولو في عطلة سياحية. ولكنها اعتذرت بسبب عملها الذي يصعب أن تأخذ إجازة منه في مثل تلك الفترة الوجيزة. فطلب منها بدوره أن تسمح له بأن يذهب هو منفردًا لبضعة أيام على سبيل السفر والترفيه، وللبحث عن كانديد، فوافقت هي على الرغم منها.

مكثت معظم الليل متيقظًا، أدوِّن كل ما كان. كنت قد قررت أن أجلب معي من منزلي كراسا أزرق الغلاف، كانت قد أهدتني إياه ثريا قبل أعوام، حتى أدوّن في أوراقه كل تفاصيل الرحلة، تحسبًا لأيّ خدعة أو احتيال من جانب أمير، مثلما حدث حين تلاقينا بالإسكندرية المرة الأولى. كما دفعتني الحيطة من ضعف ذاكرتي، وقد تقدم بي العمر، إلى أن أسجل التفاصيل أولًا بأوّل، قبل أن تطمسها الأيام المتعاقبة. وجدتني أدوّن في أول صفحة عن تناسي إحضار عصاي، التي كنت أتوكأ عليها قبل أيام.

في صباح اليوم التالي انتهينا من الحصول على التأشيرات المطلوبة، وحجزنا ثلاثة مقاعد على أوّل طائرة متجهة إلى بانكوك بعد ساعات.

رحلة طويلة وشاقة للغاية، ضاعف من صعوبتها، سهري للكتابة في الليلة السابقة. توقفنا طويلًا في مطار دبي، قبل أن نستأنف الطيران. المطار هناك ضخم ونظيف، مكتظ بالهنود والباكستانيين، ومليء بالمغريات. ولكنني لم أبتع شيئًا، لأنني لا أمتلك نقودًا للرفاهية، ورفضت دعوة أمير إلى أن يبتاع لنا زجاجة كحول نترف بواسطتها خلال رحلتنا الطويلة. أما زياد فابتاع صندوقًا من السيجار الكوبي أدهشه رخص ثمنه.

ما إن خرجنا من مبنى المطار، حتى لفحتنا درجة من الحرارة ورطوبة في الجو لا أتذكر أني قد اختبرت مثيلًا لهما بطول أيامي. منذ لحظة هبوط الطائرة ببانكوك، ملأت الجو رائحة توابل غريبة لاحقتنا في كل مكان بالمدينة العملاقة. اخترنا الإقامة بفندق قريب من المعبد الكبير ـ أو القصر العظيم ـ على ضفة النهر حيث كان يقع قصر الملك إلى وقت قريب، قبل أن يصير مبنى حكوميًّا مخصصًا للمقابلات الرسمية. آملنا أن نوفق في تحقيق مبتغانا بالإقامة إلى جانب المعبد الأشهر في بانكوك، حيث يتوافد الآلاف إليه، وخاصة الغرباء من السواح مثل كانديد وذويه. على الأقل كان هذا ما توقعناه.

في الطريق إلى الفندق، لاحظت تكدس المرور، والمترو يمضي فوق قضبان معلقة أعلى الشوارع بارتفاع نحو ثلاثة طوابق أو أربعة، يصعد إليها البشر عبر سلالم عند كل محطة. وتواترت العشرات، بل المئات من عربات الـ "توك توك" الملونة بألوان زاهية مبهرة تملأ الشوارع. سائق التاكسي بدوره، والذي

اتخذ الجانب الأيمن من السيارة، سحب من أمام المقود بضعة أوراق أعطاها إلى زياد، الذي كان جالسًا بجواره في المقعد الأمامي. وهو بدوره دفع بها إلينا وهو يضحك، فإذا بها صور خليعة لسيدات عرايا. وعلى الفور بادرنا السائق وقال بإنجليزية مهترئة:

"قد نذهب إلى هناك الآن، أو يأتين إليكم بالفندق، كما تشاؤون!"

شكرته بأدب شديد، حتى أقطع الطريق أمام احتدام أمير المتوقع. وهو بدوره لم يلحّ، بل أخذ مني الصور بهدوء وأدب، وأومأ برأسه شاكرًا، ولم يعقِّب، وهو يصفُّها أمامه فوق لوحة القيادة من جديد.

كانت الزيارة الثانية، أو ربما الثالثة لزياد، الذي اتخذ من جديد موقع المرشد السياحي، ولكنّ الناس هنا كانوا يتحدثون الإنجليزية على نحو مقبول. بوغتنا بعشرات الأشخاص، يستوقفوننا وهم يوزعون اللافتات الدعائية لمطاعم، ومزارات، بل وحانات، وبيوت دعارة، حتى بدأوا يلاحقوننا. لم نلتفت إلى أيّ منهم في أول الأمر، على أي حال، ولكن بعضهم تابعونا بإصرار سخيف. لاحظت زياد وقد تهلل وجهه لمَّا بدأت صور النساء والفتيات العرايا تهاجمنا في إلحاح فج. كان رد فعل أمير صارمًا إذ قال:

"تذكر يا زياد سبب مجيئنا لبانكوك! لو شئت تستطيع أن تتركنا هنا، ثم تلقانا فيما بعد على متن طائرة العودة!"

لكنني بالطبع لم أرتح لكلماته القاسية تلك، فسارعت بالقول:

"لا عليك يا زياد، فنحن جئنا إلى هنا معًا، وسنبقى كذلك إلى أن نرحل سويةً.."

ثم التفتّ نحو أمير وقلت معاتبًا:

"لماذا تحتد هكذا يا بنيَّ؟ فكل ما جناه زياد هو انفعاله بكل ذاك الإلحاح من جانبهم في طرح بضاعتهم، ولكنه لم يحفزهم أبدًا، أو حتى يتجاوب مع أيّ منهم!"

أما زياد فلم يلق بالًا لكلام أمير، وكان لعابه ما يزال يسيل بعد كل صورة تعرض عليه، ولكن ـ للحق ـ دونما أن يجاري أحدهم فيما كانوا يطرحونه علينا.

في الفندق، اتخذنا غرفتين متجاورتين، إذ بكل غرفة سريران صغيران متجاوران، لا يمكن لثلاثة رجال أن يتشاركوا فيها. فبقيت مع أمير في واحدة، واتخذ زياد الثانية.

تلك الرائحة، ما تزال تحوم حولنا، فنظرت إلى أمير وقلت:

"أنا جوعان!"

فأجاب بدوره فرحًا، كأنه وجد عذرًا، لشعوره بالتعب والإعياء:

"وأنا أيضًا، هيا بنا نأت بزياد، فنذهب لنأكل في أي مكان هنا."

على بعد خطوات من الفندق وجدنا السيدات والرجال يفترشون الأرصفة بمواقد ومقالي، تغلي من فوقها أطعمة مختلفة الأشكال والألوان، وإن لم أتمكن من التعرف عليها بسهولة. نظرنا نحو زياد مستفهمين، فقال بثقة:

"لعله من الأفضل لنا أن نذهب إلى مطعم، به قائمة طعام مكتوبة. على أي حال، فالطعام هنا رخيص جدًا.."

في الشارع لاحظت وجود منصات حجرية، مثل محطات انتظار الحافلات العامة، مغطاة بالزجاج عند سقفها وجانبيها، وفي وسطها رف؛ هو نتوء مستطيل ملتصق بالحائط الخلفي، يتربع فوقه تمثال لـ "بوذا"، هادئ الملامح ـ أو هادئة فالتمثال قد تخاله لذكر أو لأنثى، أو للإثنين معًا ـ تعلو وجه شبه ابتسامة، وفوق رأسه تاج من عدة أدوار، وبجانب التمثال أطباق من الفاكهة أو بقايا الطعام. سألت زياد وعرفت أنه معبد صغير للمارة. وفعلًا، لاحظت توقف العديد من أهل البلد ـ وخاصة النساء ـ داخل تلك المنصات الصامتة، يسجدون قليلًا أمام التمثال ويتركون طعامًا ليأكل منه الإله أو ليقتات به الفقراء فيما بعد. شاهدتُ العديد من هذه المعابد الصغيرة، متناثرة فوق شتى الأرصفة، أمام المساكن، والمحال التجارية، والمطاعم، بل والحانات وبيوت الدعارة المنتشرة في كل مكان.

دلفنا إلى مطعم واسع، به عدة حجرات، ذي حوائط يغلب عليها اللون الأحمر. كانت تجلس في الصالة المتوسطة منه امرأة ترتدي الزي الشعبي الأزرق اللامع المشغول بخيوط ذهبية، تعزف على آلة مثل القيثارة، وتغني. لاحظت أن الموسيقى هناك ـ مثل موسيقانا ـ بها نغمات ربعية الوزن، وليست فقط كاملة أو نصفية كالموسيقى في شتى أنحاء العالم، وكنت قد تعلمت ذلك

عند محاولاتي الفاشلة في عزف آلة العود قبل أعوام. أكلنا دجاجا منقوعا في مرق توابل حريفة، وأرز، وفاكهة، وبالفعل كان الثمن بخسًا مقارنة بأسعار الطعام في إسطنبول.

تمشينا بعد الامتلاء في شوارع وسط المدينة. مررنا بسوق شهير هناك، يبيع الناس فيه كل ما يخطر لك من الملابس وتوابعها من النظارات وساعات اليد والكوفيات المعدودة من أشهر العلامات التجارية العالمية بأسعار زهيدة. فهمت من زياد أنها برمتها مزيفة، وإن كان السوق المزوّر ذاك مزارًا يأتيه السياح من شتى بقاع الأرض لابتياع بضائع منقولة عن أصولها بدقة متناهية. وعند نهاية السوق لاحظت قيام معبد صغير لبوذا، تساءلت في نفسي ساخرًا إن كان أصليا أم مغشوشا.

ولكن من أعجب ما رأيت في تجوالنا سلسلةٌ من أحواض زجاجية ممتلئة بالماء تسبح فيها أسماك ملونة دقيقة. وأمام كل حوض منها مقعد عال ـ مثل محال مسح الأحذية عندنا ـ تجلس إليه بعد أن تضع ساقيك في حوض المياه، ليتغذى السمك الصغير بجلد قدميك وساقيك الميت، فيعيد لرجليك الصحة والنشاط، في مقابل بضعة قروش. لم أجرؤ أن أخوض التجربة، وإن استمتعت بضحك أمير والأسماك تنقر جلده فتدغدغه.

من جديد مكثت أدوّن في كراستي الزرقاء، كل الأحداث التي مرت بنا، حتى غلبني النعاس. في الصباح الباكر أيقظني أمير، ثم انطلق كالسهم إلى غرفة زياد ليفيقه، ولكنه عاد وهو يغلي غاضبًا. سألته فأجاب:

"الوسخ!.. بات في حضن إحدى المومسات!"

لم ندر متى تسنى له أن يفعلها، فقد عدنا منهكين عند منتصف الليل، بعد عناء السفر، وتناول العشاء، ورحلة التجول في السوق. أعتقد أنني رحت في النوم حتى قبل أن أطفئ المصباح الموضوع فوق المنضدة التي توسطت سريرينا.

جن جنون أمير، فبدأ يغمغم بكلمات غامضة، في تتابع مريب، لم أفقه منها شيئًا. ولكني أدركت أنه عازم على الخروج فورًا دون انتظار زياد. وضع ثيابه في عجلة، وحثني أن أحذو حذوه. تأكدت أولًا من أنه ابتلع أقراص الدواء اليومية، قبل أن ننطلق نحو المعبد الكبير لنبحث عن كانديد هناك.

عند البوابة الرئيسية للمعبد، تجمع عشرات السائحين حول فيل ضخم، نعم، فيل حقيقي، تعلو ظهره مائدة خشبية مزخرفة الجنبات، ومفارش حريرية زاهية الألوان مشغولة بقطع الزجاج والمعدن البراقة التي تتدلى من جوانبها، ومن فوق رأس الفيل العظيم. وما إن عبرنا البوابة الرئيسية، حتى وجدنا أنفسنا أمام ساحة مهولة، تغطيها أحواض الزهور والنجيل الأخضر، وتتخللها ممرات من الزلط الملون المرصوص في أشكال بديعة. ولكنني أدركت استحالة مهمتنا حينما تطلعت نحو مئات، بل آلاف السائحين، الآتين من شتى بقاع الأرض لزيارة الصرح الأثري الرائع. مشينا بين طوابير الزوار في نظام وسكون احترامًا لهيبة المكان. دلفنا من ساحة إلى ساحة، وما بين صفوف وصفوف لتماثيل الإله المعبود بوذا؛ مغطاة حينًا بقشرة ذهبية، وأخرى من الفسيفساء الملون، وثالثة خشبية مشغولة، إلى أن وصلنا إلى

داخل المعبد الرئيسي، حيث التمثال الذهبي المهول القابع عند نهايته، والورود والأزهار مفروشة حول قاعدته، وعشرات المتعبّدين جاثمون في خشوع أمامه.

بجوار الحائط المقابل، وقف واحد من الرهبان البوذيين بزيٍّ أحمر قرمزي ومن تحته رداء أصفر، يتطلع برأسه الحليق فيتابع الزوار ويستعد للإجابة عن تساؤلاتهم. اقتربنا منه، فحيّانا بابتسامة هادئة، وإيماءة مهذبة، فتشجع أمير وسأله:

"نحن نبحث عن شاب فرنسي أو ألماني، ربما تكون قابلته هنا، بصحبة زوجته وأخيها وشيخ علاّمة يطرح في العادة العديد من الأسئلة.."

فقاطعنا الراهب مبتسمًا:

"أتقصد كانديد؟"

فأسرع أمير وأجاب:

"نعم هو.. كانديد، أين أستطيع أن أجده؟"

فتطلع نحوه الراهب بسحنته النحاسية التي خطَّتها تجاعيد الزمن، ورد بهدوء:

"كان يأتي هنا كل يوم ولكنه وجد المكان ممتلئًا بالسائحين كما ترى، فطلب مشورتي فنصحته بالذهاب إلى معبد 'واط فو" أو 'بوذا المستلقِي"، هل تعرف مكانه؟"

فأجابه أمير:

"سوف نجده، سوف نجده. لك جزيل الشكر!"

وسرعان ما صرنا قابعين داخل صومعة مركبة "توك توك" في طريقنا إلى معبد "واط فو".

عند المدخل فحص أمير المكان مستطلعًا، ومع ذلك اندفعنا وسط ركاب الزوار، عشرات بل مئات من السائحين، أو أهل البلد المتعبدين. لكن الأعداد هنا كانت أقل منها في المعبد الكبير. صعدنا سلالم عدة، حتى دلفنا إلى داخل المعبد. طالعنا تمثال ضخم لبوذا المذهب، وهو مستلق بالفعل يستند إلى مرفقه الأيمن يتطلع نحونا بفضول. وجدنا عددًا من الرهبان يرتدون أردية بلون الزعفران وهم متجمعون في أحد الأركان، فتوجهنا نحوهم، وسرعان ما سألهم أمير مباشرة عن كانديد. فأجاب شيخ من بينهم بصوت رخيم:

"كانديد يأتي هنا في الرابعة من بعد ظهر كل يوم! تستطيعان ضبط ساعتيكما على موعد مجيئه!"

نظر أمير نحوي والفرحة تغمره، وتكاد أن تقتلعه من الأرض ليسبح في الفضاء من فرط النشوة.

كانت الساعة بعدها تشير إلى الثانية عشرة وبضع دقائق، فترجلنا إلى خارج المعبد باحثين عن مطعم، إذ لم نأكل شيئًا منذ عشائنا بالأمس. تشجعنا هذه المرة وابتعنا من الباعة الجائلين المفترشين الطريق، شطائر لحم مقدّد، وسلطانيتين من الحساء الساخن. لكن الأمر لم يستغرق ساعة بالكاد،

ومازال أمامنا نحو ساعتين حتى يحين موعدنا للقاء كانديد. هممت بأن أقول شيئًا، ولكن في لحظة أشار أمير إلى عربة "توك توك" وكأنه قرأ أفكاري، أشار للرجل أن يتجه إلى الفندق وهو يقول لي:

"لا ينبغي أن يفوت زياد هذا المشهد، فقد جاء من إسطنبول من أجل هذا."

في بهو الفندق وجدنا زياد جالسًا بانتظارنا. لم يبد تأففه من انصرافنا عنه طوال اليوم هكذا، ولم يسأل حتى إلى أين ذهبنا، تجنبًا ـ فيما اعتقدتُ ـ لاستجواب أمير له عن البغيّ التي أمضى معها ليلته. ولكني مع ذلك شرحت له تفاصيل يومنا، فتهلل وجهه حين علم بموعدنا في الرابعة للقاء كانديد أخيرًا.

بضع دقائق بعد الساعة الثالثة، وجدت ثلاثتنا عند بوابة المعبد. قابلنا الراهب الشيخ، بوجهه الذي لوحته الشمس طويلًا، وهو مبتسمٌ عن بعد. نظر إلى ساعة يده، وبهدوء هز رأسه نافيًا أن يكون كانديد قد حضر بعد.

مكثنا نتطلع في وجوه الزوار نبحث بينهم عن كانديد وليدي كوناجوند، والبروفيسور بانجلوس، نحاول أن نتنبأ ما سيكون عليه شكلهم، ومن تراه سيتعرف عليهم منّا أولًا.

عشرات ـ بل ومئات الزوار دخلوا وخرجوا، والراهب ما يزال ينفي وصول كانديد.

واقترب مؤشر الساعة من الرابعة. وعند تمامها، دلفت جماعة من السائحين من البوابة الرئيسية، فخفق قلبي، وتطلعنا نحو الشيخ الراهب،

ولكنه هز رأسه من جديد، وأنكر أن يكون كانديد وصحبه بينهم. مرت الدقائق بطيئة، وعيوننا تتفحص الزوار، وتراقب الراهب، في انتظار الإشارة المرجوة.

وفي الخامسة توجهنا نحو الشيخ المبتسم، الذي أسقط في يده. تلقانا مطأطئ الرأس، وأعلمنا معتذرًا بكلمات إنجليزية قليلة معوجّة المخارج، بأن ذاك كان أول يوم يتغيب فيه كانديد. بأدبٍ جم، رجانا الراهب أن نعاود المجيء في الرابعة من بعد ظهر الغد.

خارج المعبد، صار التوتر يعصف بأمير، فبات متلعثمًا، حزيناً. بدأ سيل الكلمات المغمغمة يترادف، وصار أمير يكبس فمه بباطن كفه ليسد فيضانها خجلًا. دفع هذا بزياد إلى أن يقترح على نحو مفاجئ، أن نرتاد واحدة من صالونات التدليك التايلاندية الشهيرة المنتشرة هناك، حتى يسترخي أمير من جديد، ويتطلع إلى زيارة الغد. ولدهشتي وافق أمير مرحبًا، فأدركت مدى إحباطه وتأثره، بل وربما يأسه من لقاء كانديد، كما حدث من قبل عند لقاء الدرويش القوني.

كالعارف ببواطن الأمور، أوقف زياد سيارة أجرة، واصطحبنا إلى بيت كبير، بكلمات موجزة لم أفهمها طلب من السائق التوجه إليه. عبر مدخل ضيق ارتقينا بضع درجات، لنجد أنفسنا داخل حجرة متسعة تحوي خشبة مسرح واسع، ذي خلفية من قماش أحمر لامع، تصطف فوقها فتيات ونساء من مختلف الأعمار، جالسات أو نائمات، عرايا كما ولدتهن أمهاتهن، أمام

كلّ منهن رقم، تحت أضواء مبهرة تسطع من سقف خشبة المسرح. فهمت أنه يتعين علينا، وعلى آخرين يسبقوننا أو يلحقون بنا في صف الزوار، أن يختار كل واحد منا واحدة منهن، أو بالأحرى أن يختار الرقم المثبت بالبطاقة الموضوعة أمام كل منهن.

مزيج من الإحساس بالمهانة، والشعور بنشوة المغامرة الفريدة اجتاحني رغمًا مني. تقدّمنا زياد، وتبعه أمير، ثم جاء دوري فاخترت رقمًا لسيدة جالسة في استكانة وشجن. بعد مرورنا من أمام خشبة المسرح، انفتح باب جنبي في ممر داكن وصلنا إليه، خرجت منه النساء صاحبات الأرقام التي وقع عليها اختيار كل منا.

اصطحبتني امرأتي المذعنة، إلى حجرة مبلطة ببلاطات حمَّام بيضاء، يقوم عند أحد جوانبها حوض مسبح مرتفع بضع درجات، مملوء بالماء، تتصاعد منه أبخرة توحي بسخونة مياهه. بلغة الإشارة طلبت مني أن أخلع عني ملابسي، فخجلت أولًا، ولكن أشارت بأن أسرع، فرضخت مذعنًا. لم يبد عليها امتعاض من تقدم سني، أو ترهل بدني، فأدركت أن مثلي كثيرون مروا بحمامها من قبل، وعديدون سيدركونه من بعدي. ارتحت لتلك الفكرة، نوعًا ما. حضرني المثل الشائع: "وأنت في روما افعل ما يفعله أهلها".

جلست في وسط المسبح، أما هي فبقيت خارجه وأخذت بفوطة مبتلة مغموسة بالصابون السائل، وصارت تدعك جلدي بقوة، ولم تترك شبرًا واحدًا إلا وعركته. ثم مدت يدها، فشدَّتني بذراع قويّة إلى خارج المسبح، وهي تجفف جسمي بمنشفة بيضاء كبيرة معطرة. ثم أمرتني بحزم أن أتجه

نحو مائدة خشبية نمت فوقها مذعنًا. وصارت هي تدلق زيوتًا عطرة دافئة، تدعك بها ظهري وساقيَّ. ثم توقفت المرأة وأشارت إليَّ بحركات كفيها بأن أنقلبَ، حتى أرقد على ظهري. لكنني خجلت. أدركَت هي ذلك بسرعة، فغطت عورتي بفوطة بيضاء. ومن جديد صبت الزيت الدافئ فوق صدري وبطني وفخذيَّ وصارت تمعك. وبخفة مدت يدها المدربة تحت الفوطة، وفعلت بي ما اعتقدت أنه قبس من ماض سحيق.

في الخارج كان زياد متهللًا، وأمير بات مبتسمًا، أما أنا فشعرت بوخز ضمير لخيانتي الأولى لثريا، زوجتي الراحلة. نعم غدرت بها، حتى وإن فعلت ما فعت رغمًا مني. ولكنّ أحدًا منا لم يعلّق ولو بكلمة عما خضنا به قبل دقائق معدودات، بل ومضينا صامتين نحو الفندق.

غيَّرنا من ثيابنا، ورحنا في سبات عميق.

في تمام الرابعة من اليوم التالي، كنا هناك مجددًا؛ معبد "واط فو" أو "بوذا المستلقِي" أعلى الدرج المديد المؤدي إلى بهو المعبد. كان الراهب الشيخ في استقبالنا أيضًا. فور دخولنا، وجدناه يتجه نحونا مقتربًا، وقد علت وجهه المتغضن جديّة، مضادة لابتسام مطمئنّ كان عليه بالأمس.

أبلغنا ـ متأسفًا ـ بأن كانديد جاء عند الصبح ـ على غير عادة ـ ليتحاور معه. خفض ناظريه نحو الأرض، وصمت قليلًا، وهو يحاول استعادة تفاصيل الحوار الذي دار بينهما، وبدون أن يرفع رأسه، استرسل قائلًا:

"سألني عن المؤمنين الحقيقيين، أين يجدهم. أجبته بأنهم هنا وهناك، وفي كل مكان. قلت إنّ بوذا يعلمنا بأن الدين مثل الطعام، لابد من تنوعه حتى

يلائم كل الأذواق. أجابني متسائلًا عن غياب متدينين آخرين من حولنا، فقلت لست أعلم. ثم أضفت أن بوذا يعلمنا أيضًا أنه عندما تعرّف نفسك أنّ أشياء معينة هي صحية وجيدة، تفضي بنفسك إلى الرفاه الروحي، وكذلك تفعل للآخرين، فاقبلها وتابعها. ولكن، عندما تعرف أن بعض الأشياء الأخرى هي غير صالحة بل وسيّئة، وتميل إلى إلحاق الأذى بنفسك من الآخرين، ورفضهم لك، فتجنبها. نحن مسالمون أما عن أصحاب الأديان الأخرى، فبعضهم يعتنقون أفكارًا مضرة بالآخرين، لذا فنحن نتجنبهم. ويبدو أنّ السيد كانديد استاء من كلامي، فأبلغني أنه ورفاقه راحلون إلى ماليزيا؛ إلى العاصمة كوالالمبور، ليتأملوا تعايش المسلمين مع البوذيين والهندوس هناك."

ها هو كانديد يهرب من أمامنا من جديد.

عاد التوتر والانزعاج ليطيحا بأمير مجددًا، وإن ساعده الدواء هذه المرة على أن يسيطر على وجدانه، فلم ينفجر بركان التلعثم المجنون من جديد.

ألح زياد في أن يصحبنا إلى كوالالمبور أيضًا، إذ كانت رحلة الطائرة قصيرة نسبيًا، ولم يكن قد زار تلك المدينة الشهيرة من قبل.

هاتف زوجته، فتعجبتُ من إصراره على احترام مشاعرها في ظاهر الأمر، بينما لا يجد غضاضة في مضاجعة العاهرات من وراء ظهرها، بل ويستدعينا إليه، ويدفع بنا نحوه، دون أن تنتابه ذرة لوم، أو صحوة ضمير.

الخامس

يا لها من مباغتة!

لكن ماذا يعني كل هذا؟ هل يهرب منا كانديد هذا؟ هل أيقن أننا نبحث عنه، ونقتفي أثره؟

هل هي مصادفة أن يفر من أمامنا شهورًا، أو أيامًا، أو مجرد بضع ساعات، قبل أن ندركه؟

إنه على ما يبدو إلى الآن، سرّ آخر يضاف إلى معضلة عثورنا عليه. نعم، يلوح لي أننا ربما عثرنا على شخصية روائية، ألَّفها الفرنسي فولتير قبل أكثر من قرنين مضيا، قفزت من صفحات الكتاب، ثم عاشت وسطنا. ويبدو أن شهدها وعايشها أشخاص من لحم ودم مثلنا، صادفناهم في تركيا أولًا، ثم في تايلاند، وقد جزموا فعلًا بلقائها، وبمعرفتهم الشخصية بها.

آه يا ربي! هذا هو الجنون بعينه!

كنت أتفكر متعجبًا؛ إذ لم أسعَ إلى خوض هذه الرحلة، إلا إرضاءً لاختبال أمير، ولأسَكِّن من شطحات أفكاره التي اعتدتها. ها هي الأفكار ذاتها التي طالما سخرت منها، تلاحق عقلي، وتداعب ذهني، وتسخر مني بدورها.

كم هي عجيبة حياتنا، كمثل القارب الذي تتقاذفه الأمواج، فنجد أنفسنا على وشك الغرق أحيانًا، في خضم عاصفة عاتية، ثم تسكن الرياح فجأة،

فإذا بالمركب الذي كاد أن يتحطم قبل قليل، يرسو بنا عند شاطئ هادئ، تداعب أشجار نخيله نسمات لطيفة، وتترع به زقزقات عصافير متناغمة.

ولكن لماذا يبدو كانديد ذاك، وكأنه يفر من أمامنا؟

وكأنما قرأ أمير فكاري، إذ فوجئت به يصرخ في وجه زياد، بينما كنا ننتظر موعد إقلاع الطائرة المتجهة إلى كوالالمبور:

"انظر يا زياد، أنا لن أسمح لك بأن تكون السبب في فشل مهمتنا!"

بوغت زياد ـ مثلي ـ باحتدام أمير المفاجئ. ولمَّا لم يكن يدرك ما الذي كان يرمي إليه، صاح فيه بدوره قائلًا:

"ماذا بك يا رجل، أمجنون أنت؟"

وهنا هب أمير واقفًا، وفي لحظة واحدة كان يواجه زياد، ويدفع كتفيه بيديه يعنفه، وهو يستعد بكل ما أوتي من بأس لعراك ذاك العملاق، دفاعًا عن صحة عقله، بعد أن وسمه الرجل بالجنون. ولم تمض ثانية إلا وانتصب زياد أيضًا في مواجهته. وفي طرفة عين، وجدتني أقف أيضًا، وبخطوة حاسمة حشرتُ جسمي الوهن ما بينهما، لأعوق هبّة أمير غير المحمودة العاقبة. فزياد لا يعرف شيئًا عن مرض أمير ـ حتى وإن كان يبدو وقد تعافى منه في معظم الأوقات ـ ومن ثمّ، فهو لم يقصد وصمه بالجنون حرفيًّا كما ظن أمير. زد على ذلك أن زياد العملاق قادر على أن يحطمه تحطيمًا، إذا تصاعد الاحتدام وتحول فعلًا إلى اشتباك بالأيدي. ولمَّا كنتُ من أنصار مدرسة يسوع المسيح، وغاندي، ومحفوظ، في المقاومة السلبية، صددت بيديَّ كليهما بعيدًا

عن الآخر. تعجبت من نجاح هاتين الذراعين الهرمتين في الإقصاء ما بين الرَجُلين الغَضبين. لكنني لم أكتف بإبعادهما جسديًا، بل صِحت بهما قائلًا:

"ما بالكما تتصرفان كالأطفال هكذا؟ أنسيتما أننا في صالة سفر بمطار، وقد يأتي رجال الشرطة ليقبضوا علينا بتهمة إثارة الشغب، فيمنعونا من السفر؟"

نزل كلامي عليهما كالبرد فوق رأسيهما، فهدآ في لحظة، واتخذ كلاهما مقعده مضطرًا. بعدها صار عليَّ أن أتدخل أيضًا، لأمنع تطور الأمور من جديد، فتوجهت بكلامي نحو أمير ملتمسًا:

"بهدوء يا أمير يا بني، قل لنا ماذا كنت تقصد حين اتهمت زياد بإفشال مهمتنا؟"

انفكَّ أمير يتفوه بكلمات مبتورة وجمل قصيرة غامضة، حاول أن يخرسها فضغط بكفه فوق فمه كعادته. أخذت أربت فوق كتفه حتى نجحت في أن أهدّئ من روعه.

وبدا لي كأن سؤالي قد أراح زياد أيضًا، فقد التفت نحوي مستفسرًا بدوره عن سرّ احتداد أمير المفاجئ. جمع الأخير من شتات أفكاره، وتوقف بغتة عن كلماته المتلعثمة، وأخذ ينظم من أنفاسه، فبدا لي كأنه يمارس طقوسًا قد تدرب عليها خلال رحلته العلاجية من قبل. وبعد لحظات طفق يوجه كلماته بهدوء إلى زياد:

"أ.. أ .. انـ .. انظر.. انظر هنا يا أخ زياد، لقد بدأنا الرحلة آملين في العثور على كانديد، صح؟" ثم أخذ نفسًا عميقًا وأضاف: "ألم تسأل نفسك

عن السبب؟ حسنٌ، لقد قال لك الأستاذ عاطف قبلًا بأنني أعد رسالة عن كانديد، ولكن هل هذا كاف ـ في رأيك ـ لأن نواصل تعقبنا له من بلد إلى آخر هكذا؟"

كان للكلام الهادئ مفعول السحر، حينما تنامى إلى أذني زياد وإلى عقله. وسرعان ما استدار نحو أمير مستطلعًا، وأجابه بدوره:

"حسنٌ، أريد أولًا أن أعتذر عن وصمك بالجنون، وأسجل الآن أمامكما أني لم أقصد قولي ذاك. ولكنك الآن تثير فضولي بلا شك يا أمير."

ثم أدار وجهه ناحيتي قائلًا:

"بالله عليكما فسّرا لي سر ولعكما بـ كانديد هذا، ولم تبحثان عنه بإصرار هكذا؟"

بما أنه أشركني هكذا في سؤاله، بادرت بالإجابة محاولًا تشذيب جواب أمير المتوقع:

"أمير يعتقد أنّ العالم الذي نحيا به، قد فسد فسادًا مطلقًا، وأن كانديد ـ رمز الطهر والصدق ـ هو من نحتاجه لإنقاذ البشرية، والسعي نحو الخلاص." نظرت نحو أمير مستطلعًا موافقته على ما قلت، ثم أدرت وجهي من جديد نحو زياد: "هل فهمت الآن؟"

انفرجت أسارير زياد، على عكس ما كنت أتوقع. ثم انبرى يهز رأسه مرات وكأنه يعاود الإجابة عن تساؤلات يبدو أنها طرأت له مسبقًا. وبعد فترة تأمل وجيزة قال موجهًا كلماته لأمير:

"ولكن ألا تراه أمرًا غريبًا، إن كانديد القرن الثامن عشر، كان دائم النفور من رجال الدين، بل والهروب من أمام وجوههم، بينما هو الآن يفعل العكس تمامًا، فيتقرب منهم، ويمارس الذكر مع المتصوفة، والتعبد مع البوذيين؟"

ودهشت من تركه مصيبة العثور على شخصية روائية عتيقة، ووجودها المادي تعيش وسط عالمنا، بعد قرنين من الزمان من خلقها، واكتفائه بالتساؤل عن اختلاف سلوكها عما كانت عليه في سطور رواية فولتير! بل وكدت أقهقه لمَّا سمعتُ رأي أمير الحاضر، وكأنه سبق وطرح تلك الفكرة في رأسه مرات ومرات من قبل، وتأملَها جيدًا:

"أنا لا أعتقد أنّ كانديد كان ينفر من الدين في الرواية، ولكن من رجال الدين؛ وبالتحديد كان يشمئز من الفاسدين منهم؛ كالقس المحقق الذي اتخذ عشيقة له، أو اليهودي التاجر المُرابي الذي سجن ليدي كوناجوند في بيته، أو المغاربة المسلمين الذين كانوا يحرصون على أداء الصلوات الخمس وسط المذابح الحربية، وأمثلة أخرى كثيرة. ولكنه في أحيان أخرى امتدح أهل 'إلدورادو" وحكيمهم، حين أعلمه بأنهم يعبدون إلهًا واحدًا، يصلون له ويشكرونه على عطاياه في كل لحظة، وقوله حين سأله عن وجود قساوسة بالبلدة، بأن كلاّ منهم كان قسيسًا لنفسه ولهم."

فعقب زياد وهو يومئ وكأنه أصاب لب الحقيقة، وقد ارتسمت بسمة هادئة على وجهه:

"لذا صار يتحلّق حول الدراويش، والرهبان البوذيين المسالمين، وهو يتجه الآن نحو كوالالمبور ليشهد التعايش ما بين مختلفي الأديان. فهمتك الآن يا أمير. انه لشيء جميل حقًا!"

في الحقيقة لا أنكر أنني استفدت شخصيًا من ذلك الحوار الدائر. أضاف إليَّ تفهمًا لحماس أمير المتقد، وحميّته في اللحاق بهذا الـ 'كانديد' الذي لا يلبث أن يفر منا كلما ازددنا منه دنوًّا. وارتحت لتفهم زياد لفلسفته، وتعامله ببساطة مع ذاك اللغز الذي حيرني شخصيًا.

ومع ذلك، فما لبث أمير أن عاد وعكر صفاء الجو من جديد، حين قال موجهًا كلامه لزياد:

"لذلك أزعم أن كانديد هرب منا، حين أدرك سوء سريرتك ونظراتك النهمة لبنات الشيخ القوني، ومضاجعتك للعاهرات، وأخيرًا اصطحبتَنا إلى بيت الرذيلة، ذاك الذي دعوته تدليكًا!"

تدخلت فورًا قبل أن يحتدم الشرر من جديد:

"يا أمير، كلنا انبهرنا من جمال بنات الدرويش، وليس زياد وحده. كما أنه لم يكن بوسعه مواجهة تلك الإغراءات المهولة في بانكوك، فسقط مرة، ثم تاب إلى ربه. الله غفَّار يا بني."

ثم أضاف زياد بدفء:

"ثم تذكر إني لم أكن أدرك فلسفتك يا أمير في تعقب كانديد، بل احتسبت دافعها ورقة علمية كنت تحررها. على العموم لك كلمتي أن أكون عند حسن ظنك من الآن فصاعد!"

تساءلت بيني وبين نفسي، عما لو صار حماس زياد في العثور على كانديد، وإصراره على مشاركتنا رحلتنا، مجرد رغبة شخصية منه بات يرجوها، في التطهر والسمو.

خلال الرحلة القصيرة، أعلنت المضيفة أن الطائرة ستتوقف في كوالالمبور، ثم تستأنف الرحلة، لتنتهي في سنغافورة. ولكنّ الطريف أنها أعلنت أنّ على الركاب المواصلين إلى سنغافورة أن يمتنعوا تمامًا عن مضغ اللبان، أو حتى الاحتفاظ به في جيوبهم أو في حقائبهم، إذ كان اللبان ممنوعًا في سنغافورة مثله كالمخدرات تمامًا. علّلت هذا بأنّ الحكومة وجدت أن تكاليف التخلص من اللبان الملقى فوق الأرصفة والطرقات باتت باهظة، لذا حرَّمت تداوله. وأعلنت أن عقوبة القبض عليك وهو بحوزتك كانت غليظة.

أضفى تعليقها هذا بعض المرح على مزاجنا الذي مال إلى الحدة إثر النقاش الذي دار قبل ساعات بالمطار.

عند وصولنا استقبلنا ضابط الجوازات واستفسر عن سبب الزيارة. لمَّا قال زياد سياحة، تهللت أساريره، ثم أشار إلى سيدة كانت تقف بعيدًا، فأتت على الفور. قدمت نفسها بوصفها موظفة بوزارة السياحة هناك، ضمن حملة تقوم بها الدولة لتشجيع السفر إليها. كانت "زينب" امرأة محجبة الرأس، مغالية في الاحتشام، فأدركنا أنها مسلمة. في الطريق إلى الفندق قالت لنا إن نصف سكان ماليزيا تقريبًا من المسلمين، والنصف الآخر موزع ما بين البوذيين ذوي الأصول الصينية، والهندوس الهنود الأصل. لكننا فهمنا أن مقاليد الحكم والقوانين الغالبة كانت بيد المسلمين، وأن الشريعة الإسلامية كانت تسود القوانين هناك. قال (قالت؟) بتفاخر: "لذا نستطيع أن نأمن أثناء التسوق، إذ عقوبة السرقة صارمة." ولكنها حذرتنا ـ ربما لعلمها بقدومنا من

بانكوك ـ من مغازلة النساء، الأمر الذي قد يعرضنا لعقوبة قاسية. تنفس أمير الصعداء وهو ينظر نحو زياد مبتسمًا. سألها أمير مباشرة:

"أين يمكن لشخص غريب عن بلدك أن يراقب التعايش ما بين ذوي الأديان المختلفة هنا؟"

فضحكت زينب، وسط تعجبنا من قهقهتها، فالسؤال لم يكن فكاهيًّا ـ على الأقل كما ارتأيناه. ولكن سرعان ما ردَّت المرأة بعد أن انتهت من الضحك قائلة:

"عفوًا! أعذروني، ولكني ـ قبل يوم أو يومين فقط ـ اصطحبت عائلة من السياح، قادمين من بانكوك مثلكم، سألني رجل من بينهم السؤال نفسه، كلمة بكلمة! يبدو أنّ الجو في بانكوك لم يكن على ما يرام، حتى صار أصحاب الديانات المختلفة يتعاركون في الشوارع هناك!"

فتجاهلنا مزحتها، وعقَّب زياد بحماس على الفور:

"وماذا قلتِ لهم، بما أجبتِهم؟"

ضحكت المرأة من جديد بعصبية، ثم قالت:

"قمت بدعوتهم لزيارة 'مسجد نيجارا القومي" و'كهوف باتو" الهندوسية ومعبد ' ثيان هو" البوذي!"

رد أمير ملاحقًا إياها:

"وهل ذهبت بهم إلى كل تلك الأماكن؟"

فردت زينب متحيرة من اهتمامنا المبالغ بهؤلاء الأغراب:

"لا، للأسف! كان رد الرجل بأنه كان يبحث عن شيء مختلف، عن مكان يجمع بين كل هؤلاء معًا. ثم سألني أن أساعده في ابتياع تذاكر للطيران إلى أوروبا!"

شهق أمير، فسألتها أنا:

"أوروبا؟ وهل فعلت؟ أي مكان في أوروبا؟ ثم هل سافروا فعلًا؟"

فأجابت زينب على الفور:

"مهلًا، مهلًا، ما شأنكم أنتم بهؤلاء؟ هل تعرفونهم؟"

رد زياد بلباقة:

"نعم، هم أصدقاء! تقابلنا وإياهم في تركيا، ثم سافرنا معًا إلى بانكوك، ولكنهم سبقونا إلى كوالالمبور، وكنا نود أن نصحبهم من جديد في رحلتنا هنا! أرجوكِ أن تعلمينا: هل سافروا فعلًا؟"

بدا على زينب الارتباك، شاعرة أنها باحت بأكثر مما يحق لها، بخصوص أناس ليست متأكدة من معرفتنا بهم. فردَّت متلعثمة:

"أنا سيدي.. أعني أن ليس بوسعي.. عفوًا، أنا لا أملك أن أجزم، فتلك أمور تخصهم وحدهم". وصمتت السيدة قليلًا، ثم أضافت: "ربما يكونون اعتزموا التوجه إلى بوخارست أو بودابست.. هذه في رومانيا وتلك في المجر! أعرف.. أعرف.. كل ما يمكنني أن أقوله: البلد التي يقسمها النهر الشهير إلى بلدين، كما عندكم في مصر! ولكن من الجائز أن يكونوا ما يزالون هنا بعد في انتظار السفر."

ثم تطلعت نحونا ببسمة خبيثة وسألت: "هل تريدونني أن أرسل لكم حافلة صغيرة في الصباح لتصحبكم في رحلة إلى المسجد القومي والمعابد الوثنية، لعلكم تقابلونهم هناك؟ على أي حال فلن يكلفكم الأمر الكثير، فسوف تجدون أسعارنا زهيدة!"

تعجبت من وصفها لمعابد مواطني دولتها بالوثنية، وتأكدت عندها أننا لن نعثر على كانديد هناك، إن صح كلام أمير عنه. ولكن حتى أمير وزياد كانا ـ فيما بدا ـ على رأي مخالف بشأن الذهاب. أومأ زياد موافقًا، وشجعت أمير بينما كان ينظر إليَّ ليستكشف ما إذا كنت معترضًا.

تبقّى أمامنا نحو ثلاث ساعات قبل غروب الشمس، فاقترحت زينب أن نتجه إلى برج "منارة" الشاهق، حيث المطعم الدائري، الكائن على ارتفاع مائتين واثنين وثمانين مترًا، والكاشف للمدينة كلها. وبالفعل اتجهنا إلى هناك وتناولنا أطعمة لم أتبين على نحو الدقة مكوناتها، وإن حسبتها متشابهة مع مثيلاتها في بانكوك. لكن المنظر من خلال النوافذ الزجاجية العملاقة، كان يأخذ العقل فعلا كما قال زياد. دار بنا المطعم المتحرك، ومن تحتنا بدت السيارات تزحف كالنمل، واشرأبت الأبنية تجرِّب الوصول إلينا، ومن ورائها رسخت سلسلة جبال استوائية سوداء، مغطاة بزروع خضراء داكنة، وفي الخلفية سماء زرقاء، فصلت ما بينها وبين المرتفعات سحابات هفهافة، تلامست مع قمم الجبال تعانقها، وتمتزج مع ما يبدو كأنه بقايا ثلوج شتوية، ما تزال عالقة بها.

باغتني أمير بسؤاله:

"هل تعتقد أننا سنجد كانديد هنا، يا أستاذ عاطف؟"

كانت تلك المرة الأولى التي يواجهني خلالها بنحو مباشر في أمر كانديد المزعوم. الحقيقة ـ في واقع الأمر ـ هي أنني لم أكن قد صغت رأيا قاطعًا بشأنه، حتى اللحظة. بل وحتى شهادة الدرويش التركي، أو الراهب البوذي، أو مقولة زينب بشأنه، لم تكن قاطعة في نظري. فأيّ منهم لم يجزم بمعرفته الوثيقة به، ولم يحدثنا في شأنه إلا بعد إلحاح منا. ومع ذلك، فمن الغريب أن يوجد شخص ـ أو شخوص ـ بتلك المواصفات غير المألوفة نفسها، في ثلاثة بلدان مختلفة، وبشهادة أناس لا تربط ما بينهم ثقافة أو دراية مشتركة. ومع كل ذلك فلم أشأ ـ في الوقت ذاته ـ أن أجرح أمير بشكي هذا، وخاصة هنا، ونحن بعيدان عن بلدنا كل ذلك البعد. فأنا أستطيع التصرف ـ لو كنا هناك بمصر ـ إذا ما انهار أمير أو احتاج إلى رعاية طبية، أو نفسية. أمّا هنا فلن أقدر أن أنجده إن ألمَّ به مكروه.

لذا وجدتني أجيبه قائلًا:

"إذا كان كانديد ما يزال بعدُ هنا، فمن المنطقي إذن أن يتواجد في تلك الأماكن التي اقترحتها زينب، والتي يتبدى ولعه بها."

في الفندق، أخرجت كراستي الزرقاء من الحقيبة، وشرعت أدوّن كعادتي كل ما مر بنا، فتعجبت من خضم الأحداث المتعاقبة، خلال الزمن الوجيز منذ تركنا الإسكندرية.

في الصباح الباكر كنا جالسين في الحافلة، وصار يقودها رجل صيني، أو بالحري أحد المواطنين الماليزيين من ذوي الأصول الصينية. من خلال

أقاويله التهكمية تعرفنا على الجانب الآخر من الحكاية؛ فتبدّى استبداد الغالبية المسلمة للأقليات البوذية والهندوسية في البلد. فالرجل الذي احتفظ بمرح جلي في كل لحظة، كان حاصلًا على درجة ماجيستير في إدارة الأعمال، ويدرس للحصول على درجة ماجيستير أخرى، ولكنه لم يتمكن بعد من تخطي مرؤوسته زينب، بالرغم من أنها لا تحمل سوى درجة البكالوريوس. وقال إن زوجته ـ الحامل ـ كانت تعمل بوظيفتين أيضًا، حتى يتمكنا من توفير مصاريف طفلهما المرتقب. ومع ذلك فلقد احتفظ الرجل بابتسامة قانعة، ولم يبد سخطًا على حاله ذاك.

قلت في نفسي: "منتهى القهر هو ألا تقدر ولو على التذمر على ما أنت عليه!"

في الطريق إلى المسجد الوطني حذرنا من أنه قد يكون مغلقًا، إذ لا تفتح أبوابه في العادة إلا في أوقات الصلاة.

تبادلنا النظرات، ثم طلبنا منه أن نتجه نحو "معبد كهوف باتو" الهندوسي عوضًا عن المسجد، فرحب الرجل.

بعد نحو نصف ساعة وصلنا. صففنا الحافلة الصغيرة وقال لنا الصيني بأنه سوف ينتظرنا بها، إذ ينبغي أن يذاكر قليلًا استعدادًا لدروسه المسائية التي يختلف إليها، بغية الحصول على درجة ماجيستير في التسويق ـ بالإضافة إلى ماجيستير إدارة الأعمال التي كان يحملها ـ حتى يتسنى له أن يبدأ مشروعه المستقل، بعيدًا عن الوظيفة الحكومية. ثم نظر نحوي الرجل المرح الطلة مشفقًا عليَّ، وحذرني قائلًا:

"المعبد يقع بداخل كهف عند قبة الجبل، وهو يقع على ارتفاع مائتين واثنتين وسبعين درجة يا أبي، فهل تقدر عليها، أم تفضّل أن تبقى معي هنا بالسيارة؟"

ابتسمت ودفعت قائلًا:

"دعني أحاول أولًا، وإلا ستجدني أنقر على زجاج الحافلة، فتعيدني إليها."

قابلنا تمثال ذهبي هائل للإله، يتوسط ساحة واسعة تحوم حولها حمامات تنقر الحبوب التي يلقيها إليها الأطفال من الزوار. امتلأ المكان بالعائلات التي بدت وكأنها في نزهة، مثلما هو عليه جو "حدائق المنتزه" عندنا بالإسكندرية يوم عيد "شم النسيم". ساد جو من المرح، وتبادل الضحكات، ووقف باعة عناقيد الزهور البيضاء، والصفراء، والفوشية، والفل، والياسمين، يعرضون بضاعتهم، والشمس تلوّح وجوههم السمراء. وصار الصبية يركلون كرة قدم، والشباب يتفاكهون في حلقات، والرجال يقضمون الفطائر وحبات الفاكهة التي تخرجها النساء المتسربلة صدورهن بعناقيد الزهر، من أكياس بلاستيكية ملونة، والشيوخ يجلسون فوق السور المحيط بالساحة يتأملون الأبناء والأحفاد في سعادة.

وفي الخلفية، ظهرت درجات السلم المطلية بالتبادل باللونين الأزرق النيلي والأحمر، وهي تبدو كأنها صاعدة نحو السماء، ولكنها في الحقيقة تنتهي في باطن جبل صخري مشوب بنبتات خضراء عشوائية هنا وهناك.

شككت في قدرتي على تسلق ذاك الدرج كله، وقررت ألا أحاول، فأعود لأنتظرهم بالحافلة. لكنّ أمير وزياد ألحا عليَّ في أن أصحبهما، مشيرين إلى شيوخ أكبر سنًا مني يصعدون ويهبطون الدرج بمساعدة ذويهم، فتشجعت. وبالفعل استطعت بعد جهدٍ جهيد، أن أصل إلى الكهف العملاق في وسط الجبل. وجدنا بالداخل عدة تماثيل شبيهة بالتمثال الذهبي الذي بدا من أعلى صغيرًا منمنمًا. في حضن المحراب المرتفع، سجد المتعبدون في خشوع وسكون.

وفي طريق النزول تبين لي وجود مسقط مياه يؤدي إلى نبع لا أدري أين يبدأ، أو إلى أين ينتهى هكذا في منتصف الجبل.

ولكن كان كل الرواد ـ فيما عدانا ـ من الهنود، ولم نصادف رجلًا يمكن أن يشبه كانديد.

عدنا إلى صديقنا الصيني الذي كان ما يزال يدرس في الحافلة. تبدلت جديّة البحث والاستيعاب على الفور لمّا لمحنا، وحلّت ابتسامة أصيلة فوق وجهه، وبادرنا قائلًا:

"لا بد أنكم تشعرون بالجوع الآن. ماذا عن الذهاب إلى معبد بوذي بوسط الحي الصيني حيث عشرات المطاعم، فيتسنى لكم تناول الغداء هناك؟"

ذهبنا بالفعل إلى معبد "سري ماها ماريامان" وجزنا المدخل الهرمي المرصع بمجموعة بديعة من التماثيل الملونة، يقف أمامها تمثالا جنديين يعتليان حصانين، شبيهين بتماثيل القديسين مار جرجس وأبي سيفين عندنا. وفي الداخل، صافحتنا ألوان مبهرة يغلب عليها الأزرق الفيروزي والوردي

والذهبي والأخضر بمختلف درجاته. امتلأ المكان كذلك بالمتعبدين من أهل المدينة، ولكن كنا السائحين الوحيدين، ولم نجد أثرًا لـ كانديد أو صحبه.

وبينما جلسنا نأكل، باغتنا أمير بالسؤال:

"ما هي تلك المدينة الأوروبية التي يقسمها النهر الشهير إلى قسمين؟"

فرد الصيني على الفور:

"النهر الأشهر ـ بالطبع ـ هو نهركم؛ النيل. أما النهر الشهير الآخر فهو نهر الدانوب، الذي سُميت أشهر مقطوعة فالس ليوهان شتراوس على اسمه!"

فعقب زياد عندها:

"إذن فهي بودابست! هي المدينة التي يقطعها الدانوب إلى شطرين بودا، وبست، أو بشت كما ينطقونها، لقد زرناها؛ مايا وأنا، وشرح لنا المرشد السياحي هناك هذا الأمر."

عند نهاية اليوم، عدنا إلى الفندق وكانت زينب بانتظارنا من جديد، فلاقتنا بابتسامة مصطنعة، إذ تعجبت من تأخر عودتنا، ثم نظرت نحو الصيني بريبة. طلب أمير منها أن تحجز لنا أماكن للسفر إلى بودابست. بيد أنّ زياد فاجأنا بأنه لن يصحبنا، إذ كان ينبغي عليه أن يعود إلى إسطنبول، بعد أن ترك مايا بمفردها كل ذاك الوقت.

لم أكن أدري إلى تلك اللحظة، شدة اعتيادي على وجوده بصحبتنا.

السادس

ما إن جلسنا إلى مقاعد الطائرة الضيقة، حتى فوجئت بأمير وقد راح في سبات عميق، وكأنه لم ينم لأعوام. بل ومع الوقت تعالى صوت شخيره فخجلت، وخشيت أن يزعج الركاب من حولنا. انتهزت فرصة مرور المضيفة بالشراب، فأفقته. دهشت من يقظته المفاجئة، وقد دب فيه نشاط ملحوظ.

شربنا، وأكلنا، مرَّات ومرَّات، ولكن الرحلة كانت طويلة.

توجهت نحو أمير محققًا. استرخت عضلات وجهه وبدا لي في غاية الهدوء والطمأنينة، كأنه حقق هدفه المرجو من رحلته، في ذلك الحين. لكننا لم نحقق شيئًا في الواقع؛ نعم قابلنا أشخاصًا ادَّعوا معرفتهم بـ كانديد وصحبه، ولكنّ الأمر لا يعدو إلا أن يكون مجرد زعم من جانبهم، صدقناه لأننا نريد أن نصدقه، ليكون لرحلتنا الشاقة هذه معنى. ثم سألته أخيرًا:

"قل لي يا أمير، ما هو السر الدفين وراء بحثك الدؤوب عن كانديد؟"

فابتسم أمير وأطرق قليلًا، ثم على غير عادته، أجاب سؤالي دون أن يدع الزمن يمر حتى أنسى أنا شخصيًا صيغته، فقال:

"حكى لي أبي ـ وأنا بعدُ طفلًا ـ عن جدة له، أو ربما كانت جدة لأمه ـ لست أذكر ـ اسمها مريم، أو بالأحرى؛ 'الست مريم"، كما كان يدعوها الجميع."

عيناه كانتا مثبتتين نحو سقف الطائرة، كأنه يقرأ نصًا مكتوبًا فوقه، لا يستطيع أن يراه سواه. ثم أضاف:

"قال لي إن جدتنا هذه كانت مثقفة وحكيمة، لذا قررت أن تتزوج من غريم للأسرة، حتى تنأى بها عن عدوان مزمَع. فدت مريم بنفسها، لتنقذ العائلة والأهل."

تنهد أمير وهو ينظر نحوي، يتفحص وقع كلماته عليَّ. كفّ عن الكلام للحظات، ثم رفع عينيه مجددًا وقال وكأنه يعاود قراءة الكلمات المخفية:

"قال لي أبي إن الست مريم وهبتنا الحياة بتضحيتها. لذا صار يتحتم أن يحذو أحفادها حذوها، وأن يتطلعوا دومًا، ويسعوا خارج حدود حياتهم الضيقة، ويبادروا بفعل كل ما هو خيّر، عوضًا عن الآخرين، حتى وإن كلفهم العناء، كل العناء."

ثم تبسم أمير بخبث، وكأنه يغيظني وهو يضيف:

"ثم أشارت إليَّ رينا ـ ملاكي الحارس ـ بأن أقوم بالبحث عن كانديد، لمَّا شكوت لها فساد العالم من حولنا!"

وبالفعل سقطتُ في الفخ، فعلَّقتُ بانفعال:

"أتعني أننا عبرنا نصف الكرة الأرضية حتى الآن، بسبب إشارة من ملاكك الحارس؟"

فضحك أمير، وأضاف:

"بل من أجل عيون الست مريم ـ جدتي ـ أولًا، ثم لأجل نصيحة رينا، ثانيًا! ألم يقولوا قديمًا: فتش عن المرأة؟!" ثم قهقه من جديد.

لم أجد وسعًا إلا أن أشاركه بهجته، إذ كانت على كل الأحوال أفضل كثيرًا من توتره، ومن نوبات جنونه.

توقفت الطائرة لبضعة ساعات في مطار دبي. عدنا بعدها، لنقيِّد أنفسنا ـ مرة أخرى ـ أسرى لتلك الكراسي النحيلة. بعد أن استنفدنا كل محاولات قتل الوقت، وبعد أن نمنا واستيقظنا عشرات المرات، وبعد أن دوّنت تفاصيل رحلتنا إلى كوالالمبور بأسماء معابدها الغريبة التي سجلتها فوق قصاصات ورقية حشيت بها جيوبي، فوق صفحات كراستي الزرقاء، وبعد أن شاهدنا عدة أفلام على الشاشات الصغيرة الماثلة أمامنا، أضاءوا الطائرة معلنين عن موعد تناول الفطور، وأنه لم يتبق سوى ثلاث ساعات على الوصول! ثلاث ساعات جديدة، تضاف إلى الدهور التي أمضيناها موثقين إلى تلك المقاعد اللعينة. الآلام بدأت تستيقظ في ظهري من فرط الجلوس. واستشعرت تنميلًا يزحف نحو فخذَيَّ وساقَيَّ. اتكأت إلى مسند مقعدي وظهر المقعد أمامي، إلى أن تمكنت من الوقوف. بتّ أحرك قدميّ لأتأكد من قدرتهما على حملي، بعد أن استغنيت عن وجودهما كل هذا الوقت، حتى هُيّئ لي أنهما باتتا تعاقبانني على طول الإهمال.

في مطار بودابست عرفت أنه مسمى باسم "فرانز ليست" الموسيقيِّ المعروف، صاحب الرابسوديات الشهيرة. تفكرت، ثم بادرت أمير، بأنني كنت أتمنى أن نطلق على مطاراتنا أسماء سيد درويش، وأم كلثوم، وعبد الوهاب. لم يطلبوا من أمير استخراج تأشيرة لأنه كان يحمل بطاقة إقامة

(خضراء) أمريكية. أما عني فدفع أمير بضعة دولارات، لكي أحصل على تأشيرة دخول سياحية. ابتسمت وأنا أعبر المساحة الضيقة، لأدخل وراء أمير إلى صالة استرداد الحقائب. بالطبع لم أصرح للسيدة الفاتنة الملامح الجالسة خلف المكتب المرتفع بأن دخولنا لم يكن سوى رحلة عمل، مهمتنا خلالها البحث عن المدعو كانديد، أوّلًا لسبب تعبيرات وجهها الجادة الصارمة التي لم توح بتقبل دعابتي، وثانيًا لأن استخراج تأشيرة عمل كانت تستدعي إجراءات أكثر كلفة وتعقيدا كما تصورت.

مكثنا طويلًا ننتظر دورنا، في الحصول على سيارة أجرة. استغل أمير الفرصة، للتشاور مع رجل وقف سائدًا ظهره إلى الجدار الخارجي لصالة المطار، يحمل عدة أوراق بلاستيكية ملونة، ويدخن السجائر بشراهة. اتضح له، أنه كان سمسارًا في مختلف الخدمات السياحية، بما فيها الفنادق والشقق المفروشة للإيجار بالعاصمة. افتقدنا زياد ساعتها، إذ فشل كلانا في مساومة الرجل، فحصلنا على غرفة أو بالأحرى شقة صغيرة، في حي سياحي بقلب بودابست، وبالثمن الذي طلبه الرجل. ولكن الأسعار هناك كانت معقولة، إلى حد بعيد.

وصلنا إلى الشقة دون عناء. كانت بالدور الثالث من عمارة ضخمة ضمن مجموعة من عمارات الستينيات الإسمنتية المتلاصقة، والتي لا يفصل بينها سوى حارات ضيقة، امتلأت بمقاعد ومناضد مقاه ومطاعم احتلت الطابق الأرضي لتلك البنايات. تناثرت ما بينها أكشاك لبيع الأثريات المتنوعة،

والمشروبات الروحية، والهدايا التذكارية التي اشتهرت بها البلدة. ما إن وضعنا حقائبنا، حتى اقترح أمير أن نخرج من جديد لنتفحص المكان، ونتناول وجبة الغداء.

عند مدخل العمارة، وقفت امرأة خمسينية ذات شعر فضي معقوص في شكل كرة خلف رأسها، ترتدي فستانًا مزركشًا، بطراز وألوان تشي بشعبيتها. كانت تعزف الكمان بمهارة ومرح، معزوفات إيقاعية شعرت بألفة لنغماتها كأنني سمعتها من قبل. استوقفنا عزف المرأة المختفية خلف نظارتها السوداء وهي تسبح في ملكوتها الخاص، تتلقى من خلاله موسيقاها الأثيرية، وتتمايل بجذعها النحيل مع إيقاعاتها. صار المارة والسياح مثلنا يلقون بمئات الفورينتات ـ العملة هناك ـ إلى داخل قبعة سوداء مقلوبة على الأرض أمامها. أما أمير فوضع ثلاث قطع معدنية قيمتها ثلاثون فورينت. لمّا هممنا بالانصراف، توقفت المرأة عن العزف، وتوجهت نحونا متسائلة بلغة تشبه الألمانية لم نفهمها. رد أمير بالإنجليزية مستفسرًا، فسألته المرأة بدورها بالإنجليزية هذه المرّة:

"ألم يعجبك عزفي يا سيدي، وإلا فلماذا تتعمد إهانتي؟"

أجابها أمير على الفور:

""بل استمتعنا به جدًا!"

هنا وضعت ظاهرا يديها؛ تلك الممسكة بالكمان في ناحية، وبالقوس في اليد الأخرى، وأسكنتهما فوق خصرها، وهي تتساءل في غضب:

"إذن فلماذا تضع ثلاثين فورينت في القبعة؟ هل لأنني عمياء مثلًا تعتقد أنني لن ألاحظ؟ أم هل تعتبر أنّ العميان لا يأكلون مثلكم، أو لا يرعون أبناء وبنات كمثل بقية الناس؟"

فجاوبتها نائبًا عن أمير الذي تلعثم:

"وماذا عن الثلاثين فورينت، أهي مهينة لهذا الحد يا سيدتي؟"

أما هي فجعجعت وهي تقول:

"هل تعرف يا رجل أنّ ثلاثمائة فورينت تساوي يورو واحدا؟ أو هل عزفي ذاك يساوي عشرة سنتات في نظرك؟"

رد أمير بحدة على الفور:

"أولًا أنا لم أكن أعلم قيمة عملتكم بعد، إذ وصلنا للتو إلى هنا. ثانيًا كيف تأكدتِ من كوني وضعت ثلاثين فورينت وليس ثلاث قطع من فئة اليورو مثلًا؟ وأخيرًا ما نضعه في القبعة هو هدية منا، وليس حقًا تطالبيننا به كأنه ثمن محدد مسبقًا، ولعلمك، هناك العديد من الناس استوقفهم عزفك، واستمتعوا به، ثم انصرفوا دون أن يدفعوا سنتًا واحدًا!"

ثم التفت أمير نحوي وقال بحدة:

"هيا بنا!"

وهنا استوقفتنا المرأة قائلة:

"انتظر هنا يا.. ما اسمك؟ مصريان، صحيح؟ أقلّ ما يجب، أن تدعواني على الغداء إذ صرت أعزف لست ساعات متصلة، فأعياني الوقوف."

نظر أمير نحوي متسائلًا، فأومأت إليه موافقًا. أما المرأة فقالت:

"حسنٌ. أمهلاني دقيقة لأجمع حاجياتي. شكرًا.."

أما أمير فلم يدع هذه الفراسة التي أبدتها المرأة الكفيفة تمر، فسألها:

"كيف عرفتِ أننا مصريان؟"

أجابت بينما هي منحنية تضع الكمان في صندوقه:

"عرفت ذلك منذ وقفتما بجانبي، لكني خمنت أن تكونا مهاجرين، كما هو شأن معظم المصريين هنا، لذلك تحدثت إليكما بلغتنا في بداية الأمر. تعلمت أن أميِّز أصول الناس من رائحتهم." وضحكت المرأة، ثم أكملت: "المصريون رائحتهم شاي مغلي، والصينيون ثوم، والألمان شعير، والفرنسيون دقيق القمح، وهكذا."

تعجبنا مرة أخرى من قدرة المرأة الكفيفة على الاستقراء، وابتسم كل منا للآخر، بينما كانت المرأة تجمع نقودها في نظام بديع، كل عملة مع أختها، وكنت أراقبها بذهول. أخيرًا وضعت القبعة السوداء فوق رأسها وهي تقول:

"هيا بنا. أعرف مطعمًا قريبًا من هنا، يقدم مأكولات بودابست الشعبية، وأسعاره معقولة، لكنها أكثر من ثلاثين فورينت، وها أنا حذرتكما! كما أنّ شابا لطيفا يأتي إليه، يعزف موسيقى الغجر الشبيهة بما كنت أعزفه لكما، ولكنه ـ والحق يقال ـ أبرع مني، ربما لأنه ينحدر فعلًا من عائلة غجرية فيما أظن."

أبت المرأة بأدب أن آخذ بيدها. حملت كمانها في صندوقه بيسراها، وبيمينها أمسكت بطرف عصاها الأبيض الرفيع، تنقر به برفق فوق صفحة الرصيف المكسو بقطع البلاط الحجري العتيق المرصوص.

قادتنا بمهارة إلى المطعم الكائن في شارع عُلقت على ناصيته يافطة تقول: "شارع ٦ أكتوبر"!

تحيّرت وأنا أقول في نفسي: حتى في بودابست يحتفلون بحرب السادس من أكتوبر؟

لَمَّا سألت المرأة أستفسر عن مغزى الاسم، قالت إنها ذكرى استشهاد ثلاثة عشر جنرالا من قادة الجيش، ثاروا على المملكة النمساوية ونادوا بالاستقلال، ولكن أفشل الروس الانقلاب، فتم إعدامهم شنقًا، وكان الشنق وقتها يعتبر ميتة مذلة. ثم بعد استقلال المجر، اعتبروا شهداء، وأطلق الاسم على ميادين وشوارع عدة، وخاصة بالعاصمة، حيث أقيم تمثال لهم يتوسط ميدان "٦ أكتوبر" بها.

تعجبت من ثقافتها ودرايتها بكل تلك التفاصيل، وهي المتسولة الضريرة.

عرفنا أن اسمها كان "سيسي" عن اسم الإمبراطورة النمساوية المحبوبة إليزابيث المدعوة "سيسي". بينما كنا نأكل، سألها أمير باندفاعه المعهود:

"أين يمكن للمرء أن يتأمل تعبُّد الناس ها هنا؟"

فأجابته سيسي ضاحكة وهي تلوك قطعة لحم بفمها:

"تعبُّد الناس هنا؟ أتمزح يا سيد أمير؟ ألم تسمع بالشيوعية، أو بالاتحاد السوفييتي؟ بلدنا ظل تحت حكم السوفييت إلى حدود العقدين أو الثلاثة

الأخيرة. الدين كان محظورًا هنا! على العموم فالمسيحيون هنا يمثلون حوالي نصف السكان، لكني أجزم أن نصفهم ـ على الأقل ـ لا يمارسون أي طقوس للعبادة. والنصف الآخر معظمهم ملحدون مع وجود أقليات قليلة يدينون باليهودية والإسلام."

قلتُ لها أنا بدوري مازحًا:

"وأنتِ يا سيسي، هل تؤمنين بالله؟"

ابتلعت طعامها، وتبعته برشفة من كأس النبيذ الأحمر، ثم ردت:

"أنا؟ أنا عمياء يا سيد عاطف، لست قادرة أن أرى الله الذي تعبدونه! ربما أؤمن به إذا جاء إليَّ ـ مثلما جاء المسيح ـ وصنع طينًا، ووضعه مكان عينيّ، ثم أمرني أن أذهب لأغتسل، فتنفتح عيناي وأبصر مثل بقية الناس. حينذاك سوف أؤمن به بكل تأكيد، بل وأتعهد أمامكما بأن أهب حياتي كلها للتبشير به في كل شبر هنا في المجر، وفي أوروبا، بل وفي العالم كله. إلى أن يحين هذا، دعني أستمتع بتلك الوجبة اللعينة في سلام."

ضحكنا، ثم سألها أمير بتعاطف وتأثر بكلامها:

"متى فقدتِ بصرك يا سيسي؟"

فتنهدت وأجابت:

"أنا لم أجده أصلًا حتى أفقده يا سيد أمير. ولدت هكذا، وتعلمت أن أتعايش مع عالمي المظلم هذا." ولكن سرعان ما اكتسبت سحنتها إشراقة جديدة، فقالت: "ما كل هذا الحزن والظلام الذي نخوض فيه؟ قولا لي أنتما، ما الذي أتى بكما إلى هذا البلد الملعون؟"

فضحكنا منها أولاً، حتى بادر أمير بالإجابة:

"في الحقيقة يا سيسي أدركنا ـ مع الأسف ـ أنك لست الضريرة الوحيدة على هذه الأرض، بل وأكاد أجزم أن أغلب الناس من حولنا قد أصابهم العمى. لست أقصد عمى البصر الذي اعتراك، ولا العمى الأبيض الذي ينتقل باللمس كما كتب عنه الروائي البرتغالي جوزيه ساراماجو. لكنه عمى إنساني؛ من يصاب به يسودُّ قلبه من الداخل، فلا يقدر أن يرى النور من حوله، يفرح بالشر ويسعى نحوه، ويكره الحب والمحبين، ويتلذذ بأذى الناس، حتى أقربهم إليه. إنه عمى من نوع جديد، عمى هو عكس الرؤية والبصيرة، وضد الخير والعدل، ونقيض للتعاطف والإنسانية. من أجل كل هذا جئنا إلى هنا!"

كفت سيسي عن تناول الطعام، وأدارت رأسها قليلًا بعيدًا عن أمير، لتدني نحوه أذنها، وهي تصغي لكلامه. انتظرت حتى انتهى، وساد صمت للحظات، ثم علقت أخيرًا قائلة:

"لم تقل لي بعد لماذا جئتما إلى هنا، إلى بودابست بالذات؟" قالت هذا ثم دبت شوكة الطعام بمنتهى الدقة في فص الطماطم المكتسي بالجبن الأبيض السائل، وحشرته في فمها، ثم بدأت تلوك. بعد قليل، أضافت عبر فمها الملآن: "هل تعتقد أنك تجد الدواء لهذا العمى هنا، في هذه المدينة الضائعة، على ضفاف الدانوب؟ هيهه، فأنت واهم بالتأكيد!"

انعدل أمير فوق كرسيه، وتطلع بشغف نحو المرأة وأجاب:

"الحق يا سيسي أنت تبدين لي على درجة عالية من الوعي والثقافة. لذا فدعيني أسألك بدوري إذا ما كنت تعرفين من هو فولتير؟"

توقفت سيسي عن المضغ ورفعت رأسها نحوه وهي تجاوب:

"بالطبع أعرف من هو. هيء.. هيء.. وإن لم أقابله شخصيًا! نعم أعرفه وقرأت روايته كانديد."

قضمَت قطعة من الخبز، ورشفت نبيذها، ثم أضافت: "هل تعلم أنهم يقولون إنه كتبها في غضون أربعة أيام، كما يدَّعون؟ أنا لا أصدق هذا البتة! هم يحاولون دائمًا اختلاق أكاذيب خصوصًا للشخصيات التاريخية فتلتصق بهم إلى الأبد، مثلما قالوا إن فان جوخ كان مثليّ الجنس، أو إنّ الأم تيريزا صارت ملحدة، هراء، كل ذاك هراء!"

فتحمس أمير وقال على الفور:

"نعم كانديد، هو بعينه: كانديد يا سيسي.. كانديد هنا في بودابست يا سيسي!"

أشاحت المرأة بوجهها بعيدًا، ثم أخرجت علبة سجائر من جيب في ردائها، وأشعلت سيجارة بكل اقتدار، مستخدمة قداحة رخيصة، ألقتها بعدها بإهمال فوق المنضدة. سحبت نفسًا طويلًا، ونفخته وهي تستدير نحونا من جديد وتتمتم:

"مخابيل! كانديد هنا في بودابست.. نعم جاء ليصطاف هنا، بعد أن سئم الحياة في القسطنطينية.. مخابيل!"

عندها ارتفع صوت أمير قليلًا وانبرى يقول مدافعًا:

"لقد ذهبنا إلى إسطنبول أولًا، ثم إلى الأناضول، وعثرنا هناك على شيخ درويش من بلدة قونية تعرف عليه بالفعل. ولكنه كان قد سافر إلى تايلاند

قبل شهر، فذهبنا وراءه. لكنه سبقنا من هناك إلى ماليزيا، وفي كوالالمبور أعلمتنا زينب المرشدة السياحية هناك أنه جاء إلى هنا. نعم كانديد موجود هنا في بودابست، وعلينا أن نجده يا سيسي، حتى يتسنى لنا أن ننقذ العالم من داء العمى الذي اجتاحه!"

قهقهت المرأة وهي تصرخ:

"مخابيل! مخابيل!" سحبت نفسًا آخر من سيجارتها، ثم أدارت وجهها نحوي متسائلة: "وأنت يا سيد عاطف، ما بالك صامتًا؟ ألن تزيد بأن كانديد قد تزوج من مدام بوفاري، وأمضيا شهر العسل في بانكوك وكوالالمبور، قبل أن يهربا سويًا من الحرارة والرطوبة هناك، فيأتيا إلى بودابست اللعينة؟"

تجاهل أمير سخريتها، وأجاب نيابة عني:

"أولًا كانديد متزوج فعلًا من ليدي كوناجوند! وثانيًا شرحت لكِ أننا لقينا أناسًا شاهدوه وتكلموا معه بالفعل، وهم من دفعوا بنا لتعقبه، حتى أتينا إلى هنا، فهل تساعدينا في العثور عليه في بودابست؟"

فابتسمت المرأة وهي تسند خدها إلى كفها باستكانة، ثم عقبت:

"حسنٌ، أنتما مختلا العقل، هذا شأنكما. لكني سوف أساعدكما بصفتي مرشدة لكما في بودابست، بدافع مادي خالص، وليس لاقتناعي بهذا الهراء الذي تتشدقان به! وسوف تدفعان لي مائة يورو عن كل يوم أمضيه معكما، بينما نبحث عن كانديد هذا! اتفقنا؟"

فشرعت أقول أنا أخيرًا:

"لا.. بل خمسين يورو فقط!" ثم نظرت نحو أمير مستطلعًا، فأومأ مؤيدًا. أما سيسي فعقبت:

"أنتم العرب تعشقون المساومة! خمسة وسبعون يورو ويتم الاتفاق!"

فعقب أمير:

"لا بل خمسون. في الواقع، كادت نقودي أن تنفد، ولكني رسام بارع، ليتك تساعدينني أيضًا يا سيسي في رسم بورتريهات بجوار المناطق السياحية، وتسويق رسومي."

بدا عليها الاقتناع، فشرع أمير يحكي لها تفاصيل رحلتنا حتى هذه اللحظة، آملًا في أن يضعها في قلب المشهد، حتى يتسنى لها أن تقودنا حيث يمكن أن يوجد كانديد. أما عنها هي فقد صمتت تمامًا، ولم تعلق ولو بإيماءة، وقد أدارت وجهها قليلًا لتواجهه بأذنها حتى تنصت إليه. وأما عني أنا فبت أتأمل المشهد وفي داخلي سخرية من عبثيته؛ فها هي المرأة الضريرة تقودنا، في غمار هذا البلد الغريب، للبحث عن شخصية روائية عمرها أكثر من مائتي عام، تعكف على الهروب منّا أينما حللنا.

عدنا إلى الفندق ـ الشقة ـ وقد توافقنا على أن نلتقي في الصباح التالي. شعرت بالبرودة في الليلة الأولى التي قضيناها في بودابست، مع أننا لم نكن قد تخطينا أول أيام الصيف بعد، لكن يبدو أنهم اعتادوا الجو هكذا. ورغم تعبي من جراء السفر الطويل، فإن النوم ظل يفرّ من جفنيّ حتى ساعة متأخرة من الليل.

وعند شروق الشمس أيقظتني حركة أمير القلقة بأنحاء الغرفة. عندما شعر بأنه تسبب في إفاقتي، ترك الغرفة متجهًا نحو المطبخ وهو يصيح بي:

"سوف أعدّ قليلًا من الشاي، أتريد كوبًا؟"

حينما قابلنا سيسي أمام مدخل البناية، ظللت أشعر بالتعب، فالنعاس لم يزل يراودني، وكوب الشاي لم يفلح في إفاقتي بعد.

قادتنا سيسي ذاك الصباح الملبد بالغيوم إلى محطة الأتوبيس، ومنها إلى الضفة الغربية لنهر الدانوب، بعد أن عبرت بنا فوق جسر يقع ما بين حيّ "بست" أو بشت" إلى حيّ "بودا" كما سمّته سيسي. لاحظت تغير الطبيعة بمجرد عبورنا الجسر؛ فالأرض المسطحة المكتظة بالبنايات، تحولت إلى مرتفعات وتلال كثيفة الاخضرار، تناثرت فوقها الأبنية القصيرة، وتلوّت ما بينها طرقات معبّدة ضيقة، عبر خلالها سائق الحافلة باقتدار ومهارة.

عند أعلى قمة تلّ ترجلنا، وتوجهنا مباشرة لزيارة كنيسة "ماثياس" الأثرية، المبنية على الطراز القوطي، والتي تحولت زمن الاحتلال التركي إلى مسجد، ثم أعيدت كنيسةً عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، والكائنة بجوار القصر الملكي الذي تحول إلى متاحف ومزارات عدة.

في الداخل، جعل الهدوء المطبق، والضوء الشحيح، بقاءنا غير مُستحَب. ولم تعد سيسي تنقر على الأرض، إذ شعرت بانعزالنا وعدم قدرتنا على التقدم ولو بخطوات يسيرة. كنا شبه متوقفين، عدة أمتار بعد البوابة الرئيسية التي أغلقت وراءنا، حين نقر إصبع فوق كتفي ففزعت. التفتّ خلفي فوجدت

رجل دين، يقف في جلباب بُني اللون، مربوط حول وسطه حبل مجدول، يتدلى فوق فخذه. سألني بلغتهم، فلم أع ما قاله، ولكن سرعان ما جاوبته سيسي قائلة:

"مرحبًا يا أبي، جئنا نبحث عن شخص غريب عن بلدنا يدعى كانديد!"

ضحك الرجل، وكنا قد اعتدنا الظلام نوعًا ما، فبدأت ملامحه تتبدى. كان في الواقع أصغر مما توقعت، لا يمكن أن يتعدى الثلاثين، حليق الرأس والذقن مما جعل رأسه يلمع من جراء شموع قليلة تومض بعيدًا هناك بجوار المذبح. أجابها بكلام مسترسل لم نفهمه. بعد أن انتهى، انفرجت أساريرها هي الأخرى، ونظرت قبالنا وهي تقول:

"الأب يقول بأن كانديد وزوجته جاءا لزيارة الكنيسة قبل يومين، وجلسا معه لنحو ساعة، ثم انصرف حزينًا لما لاحظ غياب المصلين!"

قهقهت سيسي ما إن انتهت، فرنّت ضحكاتها مترددة بين جدران الكنيسة، ثم أضافت بين ضحكها:

"أقسم أنكم برمتكم مخابيل!"

وهنا انبرى أمير يرد اتهامها بتشنج:

"ألم نقل لك! الأب الكاهن لم يكن أول من شهد برؤيته والحديث معه. ولكن دعينا من كل هذا الآن. اسأليه على الفور أين ذهب. حاولي أن ترشدينا إلى خيط، ولو بسيط، قد يهدينا إلى العثور عليه."

فتوجهت سيسي من جديد نحو الكاهن، وتبادلا جملًا قصيرة لدقائق، ثم التفتت إلينا وقالت:

"لا يعرف أين ذهب، ولكنه يعتقد أنه ربما يكون قد غادر البلدة، واتجه نحو فيينا أو براج، إذ كانت أصول عائلة زوجته من هناك على حد قوله."

أصاب الإحباط أمير مرة أخرى، فخرج من الكنيسة منكس الرأس، وبدأت الكلمات المغتمة تتناثر من بين شفتيه.

لحسن الحظ، حسبته سيسي يتحدث إليَّ بلغتنا، فلم تدرك أنه يهرف.

أثارت هيئته المنكسرة، وإسهال الكلمات المجنونة شفقتي. مددت ذراعي لأحتضن كتفيه، وأنا أعضضه قائلًا:

"سوف نعثر عليه، لابد أن نمسك بتلابيب هذا الـ كانديد الزئبقي!"

السابع

رفضت سيسي أن تتقاضى الخمسين يورو المتفق عليها. قالت إنها أقرت أخيرًا بتأييد مهمتنا، بل وتحولت من السخرية منا، إلى الرغبة في مشاركتنا البحث عن كانديد. وفوق ذلك أصرت على أن تصحبنا في رحلة القطار إلى فيينا عاصمة النمسا، على نفقتها الخاصة، لكي تساعدنا في العثور عليه. بالطبع، أدهشني ذاك التحوُّل المباغت من ناحيتها تجاهنا، ولكنني امتنعت عن التساؤل عن كنه تلك الغرائب المتكررة، خاصة وقد بات إلحاحها علينا، هو الحدث الطبيعي الوحيد في رحلتنا المذهلة هذه.

اضطررنا إلى الذهاب إلى محطة القطار الفرعية، إذ كانت المحطة الرئيسية مغلقة، بسبب تدفق المهاجرين السوريين من تركيا إليها، في طريقهم إلى فيينا التي أعلنت قبولها لهم. تكدسوا بالمحطة في انتظار ترحيلهم إلى فيينا، حتى أنّ السلطات قررت تشغيل المحطة حصريًا لخدمتهم، فحولت جميع الرحلات المعتادة إلى محطات فرعية.

استغرقت الرحلة نحو خمس ساعات أو ست، وتوقف القطار كثيرًا في الطريق، حيث عبر قطع عدة مدن ريفية صغيرة، لا تظهر أسماؤها فوق الخرائط السياحية التي حملناها. مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية الخضراء اخترقها القطار، امتدت ما بين بيوتات من طابق واحد تجمعت في قرى صغيرة حول قضيبي السكة الحديدية، كانت تظهر بين الحين والآخر.

وصلنا إلى فيينا أخيرًا، وحالما خرجنا إلى الشارع طالعتنا الحضارة الأوروبية العريقة؛ وقد تمثلت أمام أعيننا بناياتها الحجرية العتيقة، والشوارع اللامعة النظافة، والناس بأناقة ملبسهم، وتحضّر سلوكهم الهادئ، ووجوههم المتبسمة، وإطلالاتهم المنفتحة، على عكس التجهم البادي فوق وجوه أهل المجر في بودابست.

لم نكن مهيّئين للبحث عن كانديد في فيينا! لم نمتلك خطة معيَّنة للبحث، ولكنّ سيسي طمأنتنا بخبرتها الطويلة بالمدينة التي زارتها مرارًا، خاصة منذ أن دخلت المجر إلى حزمة الاتحاد الأوروبي.

من ناحيتي، كنتُ قد بدأت الاعتياد على فكرة وجود كانديد في عالمنا الآني، رغم أن أحدًا منا لم يره. كما أنني ـ لسبب أو لآخر ـ بت أثق في رؤية "سيسي"، أو بالحري في بصيرتها! فعندما قررت اصطحابنا إلى هنا، بات ذلك توكيدًا على أننا نبحث عن مخلوق مادي معلوم الأصل، نتفهم مساره، ونتوقع اتجاهاته، حتى وإن لم يشِّ بتفاصيلها درويش قوطي، أو راهب بوذي، أو كاهن كاثوليكي. أدركتُ أنني لم أعد مجرد مرافق لأمير، أتابع لحظات بحثه المُستغرِق عن ذلك السراب حينما يظهر، ثم قلقه المجنون حين يختفي. صار لوجود سيسي معنا مدلولٌ لديَّ يفيد بأننا بتنا على الطريق الصحيح. وقد أكدت سلامة أفكاري تلك، حين قالت مخاطبة أمير، دقائق عقب وصولنا إلى فيينا:

"لكن يا سيد أمير، ما أتذكره عن كانديد، هو أنه كان يعيش في قصر البارون 'ثاندر ـ تن ـ ترونخ"، أبو ليدي كوناجوند ـ زوجته فيما بعد، في

مقاطعة ‘ويستفاليا"، وهي تقع في ألمانيا، وليست بالقرب من فيينا أو براج كما قال القسيس!"

توقف أمير عن المسير، ثم جعل حقيبة ملابسه تنسحب من قبضته فتسقط فوق الرصيف بجانبه، وبدأ يحك ذقنه بأصابع يمناه، ويفكر. ثم سرعان ما انكب فوق الحقيبة ينبش خلالها للحظات، سحب بعدها كتابًا متهالكًا، لمحت عنوانه "كانديد" لفولتير، وبدأ يقلب أوراقه ويقرأ بنهم الأوراق الأولى منه. بعد برهة توقف، ثم نظر نحو سيسي، والكتاب مفتوح بين يديه، وقال:

"معكِ كل الحق يا سيسي!"

فابتسمت سيسي متفاخرة وهي تقول:

"ومع ذلك فلقد سمعتماه معي، وهو يقول إن كانديد ذهب إلى فيينا، أو براج، مما يعني أنه لابد قرر أن يذهب إلى "ويستفاليا" عبر المدينتين الكبريين، ليبحث فيهما عن ذلك الشيء الذي دأب ينقب عنه في الأناضول، وبانكوك، وكوالالمبور، وأخيرًا في بودابست اللعينة! إما هذا، أو إنه مجنون مثلكما، ولا يعرف ماذا يفعل بوقته الثمين!"

ضحكنا من كلامها. تشجعت أنا وسألتها، وكنا قد استأنفنا المسير:

"أي شيء تقصدين يا سيسي؟ في رأيك، ما الذي يبحث كانديد عنه؟"

فأجابتني على الفور:

"هذا الأخرق ينبش في كل مكان، قاصدًا المؤمنين الحقيقيين!"

ضحكنا وقهقهنا حتى شعرت بوجع في بطني. ثم عدت أستفهم منها:

"هل لي أن أسألك إلى أين تقودينا يا سيسي؟"

أجابت وهي تنقر بعصاها فوق بلاطات الرصيف الحجرية:

"إلى محطة الترام أوّلاً، وهي قريبة من هنا، ثم نذهب إلى فندق متواضع أعرفه، لنضع حاجياتنا، ثم نذهب إلى 'بازيليكا دي سان ستيفانو". فصديقكما يبدو مغرمًا بزيارة دور العبادة المهمة، في كل مدينة يزورها."

لست أدري؛ هل كانت قهقهاتنا هي التي جعلت الشمس تطل من بين السحابات الكثيفة التي ملأت سماء فيينا، أم إن بزوغها هو ما أضفى تلك البهجة التي اشتملتنا.

لاح لي أنّ خطة البحث عن كانديد في فيينا قد تبدت معالمها. ولكنني، وبالرغم من المرح الظاهري، بت مضطربًا من نفاد أموال أمير، وعجزي التام عن مساعدته. وبالفعل تحيرت ولم أدر أأفرح لأنني موجود الآن في فيينا؛ المدينة الساحرة التي طالما حلمت بزيارتها والتغني بليالي الأنس في رحابها، أو أحزن لضيق ذات اليد الذي صرنا نعانيه، وتكاليف السفر والإقامة التي لا بد انتقصت من ثروة أمير الضئيلة. على أي حال، وكما يقولون، تستطيع أن تمضغ العلكة، وأن تسير في الوقت ذاته.

حين وصلنا، كانت الكاتدرائية مكتظة بالسائحين. رجال ونساء، شيوخ وأطفال تفرقوا إلى جماعات؛ التف البعض حول مرشد سياحي، أو تحت لوحة جدارية أو تمثال، أو مجرد جماعة تتجول ما بين المقاعد الخشبية الطويلة المتراصة إلى جانبي بهو الكنيسة الشاسع. الحق أنّ الكاتدرائية كانت بارعة

الفخامة والجمال، بحيطانها المنقوشة، وعمدانها المشغولة العالية، واللوحات الأثرية التي تزين صدر مختلف الهياكل المنتشرة إلى جانبي بهوها المستطيل، صانعة عدة كنائس صغيرة، مزينة بتماثيل للقديسين رائعة الجمال، حتى كدت أنسى السبب الذي دفعنا إلى المجيء هنا في أول الأمر. بيد أننا شرعنا ـ أمير وأنا ـ نتفحص الوجوه والملامح، وإن كنا بالطبع نجهل تمامًا شكل كانديد وعائلته، فبات بحثنا عبثيًا على أيّ حال. كانت سيسي تقف إلى جانبي، تحمل صندوق الكمان بيدها، وظلت تدير رأسها نحو الأصوات من حولنا، تبحث معنا، لكن بأذنيها. تفكرتُ أنّ فرصتها في العثور على كانديد ورفاقه متكافئة مع فرصتنا، إن لم تكن أعظم، لما تتمتع به من بصيرة سحرية.

أمضينا وقتًا طويلًا داخل 'بازيليكا دي سان ستيفانو" ولم يتوقف سيل السياح الجارف، وبالطبع لم نتمكن على أيّ حال من التعرف على كانديد وحاشيته، رغم أنه من الجائز جدًا أنه مرّ بواحد منّا، أو بنا كلنا، بل وحك كتفه حكًا بأيّ منّا، وهو يجتازنا دون أن نتعرف عليه. أخيرًا شعرنا بالجوع، فخرجنا إلى الميدان الواسع، وبدأت روائح المطاعم المتناثرة تدعونا إليها.

توقفت سيسي في مكانها، وما هي إلا لحظة حتى كانت قد أخرجت كمانها من صندوقه، الذي تركته مفتوحًا أمام قدميها، ثم شرعت تعزف موسيقاها الدافئة الإيقاعية.

ابتعدنا قليلًا، ثم توقفنا لنستمع إلى عزفها. وسرعان ما التف المارة حولها، ثم شرعوا يتقدمون الواحد بعد الآخر، فيقذفون قطعًا من العملة، أو أوراقًا نقدية أحيانًا. بل وتقدم أمير أيضًا، فألقى بقطعة عملة معدنية، ولمحت سيسي تبتسم له، وهي تنحني برأسها قليلًا.

بعد نحو ساعة توقفَت، ثم مدت يدها تجمع النقود التي امتلأ بها الصندوق المفتوح، وقالت:

"الآن، دعوني أعزمكم على الغداء!"

وبينما نحن نلوك شطائر اللحم المدخن والجبن التي ابتاعتها سيسي لنا، إذ قالت:

"ينبغي عليك يا أمير، أن تبدأ في مشروعك في الرسم، بينما أعزف أنا موسيقاي، فالظاهر أننا سوف نقضي بعض الوقت هنا، حتى نعثر على صديقكما بين كل هؤلاء السياح، والأسعار هنا أعلى منها في بودابست!"

بالفعل ابتاع أمير كراسة رسم ومجموعة أنابيب ألوان سريعة الجفاف، وفرشات للرسم، بالإضافة إلى مجموعة من أقلام الفحم. أدرك البائع أنه محترف للرسم فمنحه تخفيضا بثلث الثمن.

في صباح اليوم التالي قالت لنا سيسي ونحن نتناول وجبة الفطور المجاني في الطابق الأرضي من الفندق:

"أتريدان أن تزورا قصر "شونبروون" حيث أقامت الأميرة إليزابيث الشهيرة بـ "سيسي"، والتي تُسُمّيت على اسمها؟"

أجبت على الفور:

"بالطبع! ولم لا؟"

شعرت بأني تسرعت في الرد، إذ لم أنتظر تعقيب أمير على سؤالها، بينما هو الذي يدفع ثمن رحلتنا، ومن ثَمّ فهو يملك حق تحديد الأماكن التي يود أن يذهب إليها لعلنا نجد كانديد. ولكني ـ على الجانب الآخر ـ كنت قد

أدركت سر ثقتي العمياء في مقترحات سيسي؛ فهي كانت في الحقيقة تذكرني بفطنة ثريا؛ زوجتي الراحلة، وبصيرتها. افتقدت برحيلها عني تلك السخرية اللاذعة، وتلك البديهة السريعة، وذاك المرح الذي تشيعه من حولها. والآن وجدت كل ذلك، بل وأكثر، في تلك الغجرية الكفيفة التي تجالسنا على المائدة الآن. ها هي على بعد بضعة سنتيمترات مني، تمضغ الأكل، وتتكلم، وتضحك، وتشاكس، فكيف لا أوافقها على زيارة قصر الأميرة سيسي إذن؟ ومع كل ذلك فلقد ارتحت، حين تبدّى حماس أمير للذهاب كذلك.

استقللنا المترو إلى "قصر شونبروون". وحين دلفنا من البوابة الرئيسية، لاح القصر عند طرف بعيد للغاية من حديقة منمقة ممتدة الأطراف، تتوسطها بحيرة فسيحة، بداخلها تمثال حجري لنافورة تضخ ماء. منظر بديع استقبلنا، وكأننا ولجنا إلى باطن صورة زيتية، من رسومات عصر النهضة. وجدنا مبنى حديثا، قائمًا إلى يسار البوابة الحديدية ذات الأعمدة المجدولة، أدركنا أنه مكان اقتطاع التذاكر الخاصة بزيارة القصر. تبين لنا أن سعر التذكرة الواحدة يزيد عن سبعة عشر يورو، فتقهقرنا مفسحين الطريق لبقية السائحين.

كان مسموحًا لنا بالمكوث في حديقة القصر، دون أن نبتاع تذاكر. عند عتبة النافورة الجميلة، أخرجت سيسي الكمان، وفتحت الصندوق أمامها، وعلى بعد أمتار منها، جلس أمير فوق السور الحجري، نافضًا كراسه وشارعًا يعمل بأقلامه الفحمية، في خطوط متفاوتة الدرجات من السواد، وفي خلال دقائق كانت سيسي تتألق فوق صفحة كراسه، وهي تعزف بينما مكث "قصر

شونبروون" قابعًا من ورائها. انتزع الورقة من دفتره، وعرض لوحته مستندة إلى السور الحجري. وبعد برهة بدأ يرسمني أنا أيضًا وقد أجلسني إلى السور بينه وبين سيسي، التي كانت تعزف خلفي.

تجمع السياح حولنا، وبدأوا ينفحون سيسي عملاتهم، ثم سرعان ما اصطفوا في طابور قصير ينشدون من أمير لوحة "بورتريه"، والقصر الأصفر الجميل في الخلفية.

خلال ساعة ونصف، كانا قد جمعا ثمن تذاكر الدخول، ووجبة الغداء. لكن المفاجأة السارة جاءت حين ذهبنا لابتياع التذاكر، إذ أفادت الموظفة باستحقاقي أنا لتخفيض محترم لسبب سنِّي، واستحقاق سيسي ذلك أيضا لكونها معوَّقة.

دلفنا إلى داخل القصر، وأعطوا كل واحد منا سماعة متصلة بجهاز مسجل بالعربية لي ولأمير، وبالمجرية لسيسي، يصف لنا تاريخ كل غرفة من غرف القصر ومحتواها. كم كانت سعادتي حين وجدت نفسي في "غرفة المرايات" التي استضافت في عام ١٧٧٢ موزارت، حينما كان طفلًا في السادسة من عمره ، وهو يقدم بها أول عرض لعزفه البيانو. وفي "غرفة لاك العجوز" اجتمع نابليون بونابارت بقادة جيشه. شاهدت لوحات للإمبراطور "فرانز جوزيف" الذي تزوج من "إليزابيث" الشهيرة بـ "سيسي" التي كانت تصغره بأعوام كثيرة، والإمبراطورة "ماريا تيريزا" وهي أم "ماري أنطوانيت" التي صارت فيما بعد زوجة لـ "لويس السادس عشر" وقد أعدم الاثنان بالمقصلة، إبان الثورة الفرنسية. كان النظام بديعًا، والسياح يرفلون في هدوء بين حجرة

وأخرى، وحتى الأطفال الذين كانوا في معية آبائهم، لم يتركوهم يعبثون بالتماثيل الأثرية، أو يتقافزون فوق الأسِرة، أو المقاعد المتناثرة.

لكننا بالطبع لم نفلح في أن نعثر على كانديد وأسرته، بين مئات من السياح الذين اكتظ بهم القصر، واجتزناهم واجتازونا خلال جولتنا.

لكن مع ذلك تركَت الزيارة في النهاية وقعًا حسنًا علينا جميعًا. بَيد أننا شعرنا بجوع شديد في أعقابها، فتوجهنا إلى أقرب مطعم لتناول الغداء.

كان أمير مبتهجًا بعودته إلى الرسم، وضمان دخل أعانه على مصاريف رحلتنا. وفي الواقع شعرت أنا أيضًا ببعض الراحة، وإن كنت خجِلًا لكوني عاجزًا عن أن أضيف بعض المساعدة من ناحيتي أيضًا.

أما سيسي، فلقد قالت بعد انتهائها من ارتشاف آخر جرعة من كأس البيرة:

"لا أمل في أن نجد صديقكما في هذه المدينة اللعينة! فهو يبدو مغرمًا بدور العبادة والمتعبدين بها، والناس هنا انصرفوا عن كل ذاك منذ عقود؛ فحتى الكنائس تحولت إلى متاحف فنية، وقاعات للحفلات الموسيقية."

وسرعان ما أجابها أمير:

"وماذا نفعل إذن، وهل الحال أفضل في براج مثلًا؟"

فردت المرأة على الفور:

"نعم، أعتقد أنه أفضل كثيرًا، لسببين؛ أولًا لأنّ براج لم تدمر كما دمرت فيينا أثناء الحرب العالمية الثانية، مما جعل أناسها أقل نقمة ضد الله ـ إذا كنت

تؤمن بوجوده بالطبع، وثانيًا لأن الشيوعية كانت قد أمسكت بتلابيب الناس هناك، لذا فلمَّا انحسرت عنهم، تركت فراغًا روحانيًا اشتاقوا إلى أن يملؤونه بالتدين من جديد."

تأملنا كلماتها في صمت، وكنت متعجبًا من ثقافة هذه المرأة الكفيفة وذكائها وهي التي لاقيناها تتكسب من عزف موسيقى الغجر في شوارع بودابست. يبدو أن أمير كان قد اتفق معي على احترام رأي سيسي، لذا فقد سألها بعد لحظات من السكوت، بلهجة التلميذ حيال أستاذه، المستعد لتقبل أيّ نصيحة ينصحه بها:

"إذن فأنت تقترحين أن نترك فيينا، بعد يومين، مجرد يومين فقط من البحث؟"

فابتسمت سيسي وهي ترد:

"نعم، ولكني أذكّرك يا سيد أمير، بأنني أخمن مسار شخصية روائية، قفزت فجأة من بين صفحات رواية عتيقة، لتعيش بيننا اليوم، لذلك أرجو ألا تأخذ اقتراحي بمثل هذه الجدية، فهو مجرد حدس!"!"

لم يستوعب أمير دعابتها، إذ كان قد شرع يحلل الموقف من الناحية العملية ـ كعادته ـ ليقرر ماذا ينبغي أن نفعل. لكنه مع ذلك، أجابها مقرّا برجاحة منطقها:

"مفهوم.. مفهوم.."

لم يسألني أمير عن قناعتي، ولكنني لم أستأ، ربما لأني كنت رضيت ـ مثله ـ برأي سيسي. لكنه قرر ـ على أي حال ـ بأننا يحسن بنا لو قضينا الليلة في فيينا، إذ كان المساء قد اقترب، وكانت أجرة الغرفة قد احتسبت بالفعل. كما

حبذ هو أن نذهب إلى براج في الصباح لنبحث عن مكان مناسب للسكن، قبل أن تبدأ رحلتنا في البحث عن كانديد هناك. سعدت لمَّا وافقَت سيسي، بل وأبدت رغبتها في مرافقتنا.

حال هطول المطر الغزير، دون أن نخرج إلى الشوارع ليلًا لتعزف سيسي، ويرسم أمير البورتريهات، بغية جمع بعض النقود اللازمة لاستكمال رحلتنا. لكنّ أمير في حديث مقتضب، دار بيني وبينه ونحن نستعد للنوم، طمأنني إلى أنه ما زال معه قدر كاف من النقود، وأنه ما اشتكى حاله وقرب نفاد أمواله، إلا ليمنع سيسي من استغلالنا عند لقائنا الأول بها، وقبل أن يطّلع بنفسه على ترفعها ورقيّ أخلاقها.

كان لتلك الكلمات أثرٌ طيب عليَّ، إذ خلصتني من بعض شعوري بالذنب تجاه أمير، وقائمة مصروفاته المتنامية. ولكنني ـ مع ذلك ـ كنت أفتش في داخلي عن أي شيء يمكنني أن أفعله، لأكسب بعض النقود، ولو كانت يسيرة، أو على الأقل أوفر في النفقات، فأساهم بها من ناحيتي أنا أيضًا.

خطر لي أخيرًا، أنني أستطيع أن أطهو طعامًا بالغرفة التي سوف نبيت بها في براج، فربما يجنبنا هذا تكاليف الأكل بالمطاعم. فاتحت أمير فضحك مني، ولكنه وافق على اقتراحي، إذ تفهم الوازع من ورائه، فلم يشأ أن يعارضني، احترامًا لي، فيما أظن.

وبالفعل، توجهنا في الصباح إلى محطة القطار، وابتعنا تذاكر تقلّنا أول قطار متجه إلى براج. ولحس الحظ لم تكن الأسعار ملتهبة، كما حصلنا ـ سيسي وأنا ـ على تخفيض لا بأس به.

في الوقت الذي كنا ننتظر فيه موعد القطار، أخرجت سيسي الكمان وبدأت تعزف، فتشجع أمير وفتح كراسه، وأخذ يرسم بورتريه لها وهي تعزف. وبينما كنت أتأمل سباحة أنامله برشاقة فوق الورق، إذ اقترب منا رجل عملاق، يتطلع هو أيضًا إلى رسم أمير، ثم علق ـ بالعربية ـ قائلًا:

"والله هذا رسم محترفين يا (زلمة)!"

رفعت عيني عن اللوحة لأشكره، وإذا بزياد اللبناني الذي تركنا في كوالالمبور يقف قبالتنا مقهقهًا!

توقف أمير بدوره عن الرسم ، ثم انتفض واقفًا وأخذ زياد في حضنه. لاحظت سيسي الجلبة من حولها، فكفت عن عزفها هي أيضًا. احتضنتُه بدوري، ثم سارعت أقدّم سيسي إليه، فأبدى تعجبه لكونها برفقتنا، إذ ظن في البداية أنها كانت مجرد امرأة تعزف الكمان بمحاذاتنا. ثم قدمتُه إليها، فقلت:

"زياد صديق لبناني قابلناه في إسطنبول، وشاركنا أولى خطوات البحث عن كانديد هناك، ثم سافر معنا إلى بانكوك، ومنها إلى كوالالمبور، لكنه تركنا هناك ليعاود زوجته الرقيقة مايا، وكان قد تركها لأيام بمفردها."

سأله أمير ـ بالإنجليزية حتى تفهمه سيسي ـ أن يفسر لنا سر وجوده بمحطة القطار بفيينا في ذاك التوقيت العجيب، فأجابه زياد:

"في الحقيقة، لم أتمكن من مسامحة نفسي على تركككما، دون أن نعثر على كانديد. قضيت يومين في إسطنبول متململًا، ولاحظت مايا ذلك، فسألتني

عن السبب، وشرحت لها بالطبع. فما كان منها إلا أن نصحتني بأن أسافر على الفور لألحق بكما، مضيفة أنّ الإنسان لا يحيا سوى مرَّة واحدة، وأنّ فرصة كهذه قد لا تتأتى مرَّة ثانية بالعمر. وفي الحقيقة اندهشت فعلًا من تعاطفها مع الفكرة أساسًا، ولكنني في واقع الأمر، عقدت العزم، وسافرت في اليوم التالي إلى بودابست."

أخذ نفسًا طويلًا، بعد سيل الكلمات المتدفق هذا، ثم أضاف:

"وفي كنيسة القديس ماثياس الأثرية، قابلت الأب الكاهن، الذي حكى لي عن زيارتكم وحديثكم معه، وكنت متعجبًا فعلًا من قدرتكما على التفاهم معه، إذ لم يكن يتحدث الإنجليزية أو الفرنسية، ولولا امتلاكي بعض الكلمات الألمانية لما استطعت التفاهم معه. لكنني أدركت الآن أن سيسي أنقذتكما!"

نظر زياد نحوها مبتسمًا، وهو يومئ برأسه تحية لها، ولكنه لم يكن يدرك بعد أنها ضريرة. أكمل هو قائلًا: "وأخبرني القسيس أيضًا أنّ كانديد وأصحابه حضروا إلى الكنيسة ذاتها في اليوم السابق لزيارتكم، وكيف قال لكم إنهم اتجهوا إلى فيينا وبراج، وأبدى لي متضاحكًا تعجبه من كل ذاك الاهتمام بـ كانديد هذا الذي لم يكن سمع باسمه سوى من يومين فقط!". ابتسم زياد بعد أن تأكد من استحواذه التام على اهتمامنا. ثم سرعان ما أكمل قائلًا: "وفي فيينا لم أجدكما بالطبع، بين ذلك الكم الهائل من السياح، حتى جئت أخيرًا إلى هنا، لأواصل البحث عنكما، وعن كانديد، في براج، تمامًا كما أعلمني القسيس عن وجهتكما!".

جاء موعد القطار فاتجهنا نحو الرصيف، ولاحظ زياد أن سيسي صارت تتحسس طريقها بطرف عصاها، فمال إليَّ متسائلًا بالعربية:

"أهيَ.." سكت لحظة ثم أضاف: "هل هي عمياء؟"

فأومأت إليه بالإيجاب، ولكني أضفت، وأنا أهز رأسي متعجبًا:

"ولكنها تتمتع ببصيرة، تتفوق بها على عشرة منا!"

الثامن

في براج، حجزنا ثلاث حجرات متجاورة، بفندق في وسط المدينة. الأسعار كانت زهيدة مقارنة مع فيينا، أو حتى بالمقارنة مع بودابست. اتضح لنا مرة أخرى أنّ سيسي كانت قد زارت هذه المدينة عدة مرات من قبل، فساعدتنا في اختيار الفندق الذي كانت كل حجرة به، عبارة عن غرفة نوم ملحق بها حمام، وعند طرفها ركن صغير به موقد كهربائي وبراد للشاي ومقلاة وحلة طعام، وبضعة أكواب أيضًا، وأطباق، وملاعق، وشوَّك، وسكاكين. ولكن الأهم كان في دراية سيسي الواسعة بالبلدة. شرحت لنا خطة للبحث عن كانديد في براج إذ كانت تعرف بدقة، أماكن دور العبادة الشهيرة فيها التي توقعت أن تثير فضوله لزيارتها. كانت المفاجأة في وجود معابد يهودية كثيرة، بالإضافة للكنائس الكاثوليكية والأرثوذوكسية، كما نصحت أيضًا بزيارة "دير بريفنوف الأثري"، تلك الزيارة التي سوف تحمل لنا مفاجأة طريفة.

كالعادة، لم يضيِّع أمير وقتًا طويلًا بالفندق؛ فما إن وضعنا حاجياتنا، حتى ابتلع حبوب دوائه، ثم اتجه نحو حجرة سيسي، وسألها عن أولى الوجهات التي تقترحها لنا. عند بهو الفندق الضيق، أشار الموظف نحو حامل خشبي مرصوصة فوقه خرائط وكتيبات دعائية لمختلف الأماكن السياحية بلغات

مختلفة. وبذكاء فتح أمير خريطة المدينة أمام زياد، وطلب منه أن يبحث خلالها عن أقرب الأماكن إلينا بمساعدة سيسي. وبالفعل رفعت سيسي رأسها نحو السقف وكأنها تتلقى وحيًا يأتيها من علٍ، وتحمس زياد، وشرع يضع علامات ودوائر فوق كل الأماكن التي تشيرً المرأة لأسمائها، حتى امتلأت الخريطة، فأصبحت بمثابة خطة هجومية محكمة الجوانب.

كانت وجهتنا الأولى "كاتدرائية القديس فيتوس" الواقعة في قلب المدينة بوصفها جزءًا من "قلعة براج" حيث كان يتم تتويج البطريرك الجديد. تمشينا إليها عبر "جسر تشارلز" الحجري الشهير، المار فوق نهر "فلتافا" المتناثرة إلى جانبيه مجموعة فريدة البهاء من التماثيل الداكنة. ملأ السائحون المكان، وتناثر إلى جانبيه عازفو الموسيقى، والرسامون، وبائعو التذكارات. قال لي أمير وهو يشير إلى كل هؤلاء البشر:

"أيّ واحد من هؤلاء، يمكن أن يكون كانديد، فكيف يمكنني التعرف عليه؟ أأقف مثلًا في وسط هذا الجسر لأنادي باسمه لعله يستجيب، أم ماذا عساي أن أفعل؟"

هززتُ رأسي، مؤكدًا عجزي عن الإجابة عن تساؤله. استمررنا في التقدم حتى اجتزنا بوابة حجرية عالية، يقف على قمتها مجموعة من الحراس يرتدون أزياء من عصور قديمة بهية الألوان، وهُم يعزفون آلاتهم النحاسية. رغم حيرتي من تساؤل أمير، فإن الجو العام وروعة منظر النهر المنساب تحتنا، والمحاط بالتلال الخضراء، المرشقة بالبيوت الملونة إلى جانب، والقلعة البيضاء الشامخة الهالة إلى الجانب الآخر، جعلانا نشعر كأننا نذوب فوق

لوحة للتشيكي "جارو بروتشاسكا". امتلأت بالنشوى والنشاط، حتى بدا المشوار المفضي إلى القلعة نزهة يسيرة، حتى بالنسبة إلى شيخ مثلي.

وصلنا إلى الكاتدرائية، فوجدناها من التراث القوطي أيضًا، مثل كنيسة سان ماثياس ببودابست، ولكنها أضخم وأفخم بمراحل. سررت لمَّا قرأت في كتيب مصفوف فوق طاولة خشبية بالمدخل، فعلمت بأن القديس فيتوس كان راعيا للفنانين، ونصيرا للراقصين، وواقيا من الرعد، وعقر الكلاب، والإطالة في النوم!

شاركتهم بتلك المعلومة الطريفة فضحكنا، وعلَّق زياد وهو يصفق براحتيه:

"هو راع للفنانين! إذن فلقد اقتربنا خطوة من كانديد، بركاتك يا سان فيتوس!"

فنظر إليه أمير شزرًا، ثم صاح في وجهه قائلًا:

"احترم نفسك يا زياد! أكنت تسامحني لو كنا الآن في داخل 'مسجد الحسين" مثلًا، وصفقت مثلك، أو تضاحكت من المتمسحين بسور الضريح؟"

فسارعت أهدّئه قبل أن يتصاعد الموقف، وقلت:

"إنه يمزح يا أمير، ولا يقصد أن يسخر، أو يسيء لأحد!" ثم اعتدلت مواجهًا زياد:

"أليس كذلك يا زياد؟"

وهنا تدخلت سيسي لأول مرة زاعقة:

"ما لعب العيال هذا؟ فليقل ما يشاء، أو يسخر ممن يريد، هل عيَّنك أحد حارسًا للفضيلة هنا؟"

فانبرى أمير مدافعًا:

"أرجوكِ يا سيسي لا تتدخلي، فالموضوع له خلفيات متشابكة هناك، من حيث جئنا!"

فردَّت المرأة على الفور:

"لكنكما هنا الآن! إذا اخترتما العراك، فلترجعا إلى هناك فورًا!"

لهجتها الآمرة فرضت عليهما الصمت.

لكنهما سارا منكسين رأسيهما، فشعرت بالذنب لأنني أنا من أثار الأمر في الأساس بقراءة ما قرأت عن القديس فيتوس. اقتصر شأن البحث عن كانديد داخل بهو الكنيسة الشاسع، الممتلئ بالسياح، على سيسي الضريرة، وعليَّ أنا الشيخ الذي لا يكاد يتبيّن موقع قدميه. ولم يصادفنا كاهن، أو راهب، أو أي شخص نستطيع أن نستطلع منه، كما حدث معنا من قبل.

في ركن من القاعة، فوجئت بشاب يحتضن فتاة ويضمها إليه بشدة، ثم ما لبث أن شرع يقبّل عنقها، ثم بدأ يلثم شفتيها، وسرعان ما دس يده تحت قميصها تعبث بسخونة وقحة. ارتبكت من المشهد، ولكنني لم أستطع أن أنبه سيسي لتشهده معي، بعد أن انصرف عنا أمير وزياد. تلفتُّ أبحث عن

شرطي أو رجل أمن يحرس الكنيسة، ولكنني فشلت. تعجبت من عشرات الزوار من حولي الذين مروا بالمشهد، ولم يتوقفوا، أو يعترضوا ولو للحظة. نبهتني سيسي متسائلة عن سبب توقفي، فهمست في أذنها أصف لها المشهد. لكنها جذبتني من يدي وهي تسرع من خطاها وتقول:

"هلم بنا، هذا الأمر لا يعنينا، ولا شأن لنا به!"

انجررت وراءها في دهشة طفل تسلَّه أمه بعنف، من أمام نافذة غرفة نوم الجيران المطلة على شبَّاكهم.

وجهتنا التالية، كانت نحو كنيسة "سان جورج"؛ وهي كنيسة أثرية، جدرانها حجرية، وسقفها الخشبي يتجوّف عند طرفه البعيد في شكل قباب مزينة برسوم فرسك بديعة. الكنيسة كانت أصغر كثيرًا من كاتدرائية القديس فيتوس، لذلك كان من السهل تفحص وجوه كل الموجودين في بحثنا عن كانديد.

بلغ الصمت بيننا مداه، منذ أن صرخت سيسي في وجه أمير وزياد في البداية، ثم بعد أن جرجرتني إلى خارج الكاتدرائية. بات من الواضح فشلنا في تحقيق مهمتنا، كما افتقدنا لذة رحلتنا وشغفها، حتى وإن لم نتمكن من العثور على كانديد. ما إن خرجنا من الكنيسة، حتى توقفت عن متابعة المسير، واستوقفتهما قائلًا بالعربية حتى لا تفهمني سيسي:

"هل يعجبكما حالنا هذا؟ كأننا نسير في موكب جنائزي، أو نؤدي واجبًا ثقيلًا. ماذا بكما؟ هل سافرنا كل تلك المسافات البعيدة هباء؟ ماذا عن

مهمتنا، ألا يمكنك يا زياد أن تتحكم في تعليقاتك ولو قليلًا؟ ألا تقدر أن تتسامح قليلًا يا أمير، وأن تلين حتى ولو تصرف زياد بما لا يليق ـ من وجهة نظرك ـ فربما يكون له رأي آخر؟"

لدهشتي، شعرا بالخجل، فاعتذر الواحد منهما للآخر، بل وتعانقا. استشعرت بأنّ سيسي أدركت كل ما كان بينهما، فتبسمَت، وأكملنا المسير. ثم سألت إن لم نكن قد أحسسنا بالجوع بعد، فتصايحنا ببهجة مصادقين.

كان المساء قد بدأ يميل، فعرجنا إلى حانة ضيقة لتناول طعام العشاء. وجدنا فرقة صغيرة تستعد لأن تعزف، واكتشفنا عزفهم لموسيقى الجاز، بينما أمسينا نتناول طعامنا، مستحسنين مذاقه، وممتدحين أداءهم. وفي مسيرنا نحو الفندق، أعلنت سيسي بأنّ وجهتنا في الغد ستكون نحو الحي اليهودي القديم و"المعبد الإسباني" هناك.

امتعض زياد، ثم عقب قائلًا:

"أرجو أن تعفوني من هذه الزيارة."

فردت سيسي على الفور في قلق:

"لِمَ يا زياد؟ ماذا بك؟ هل تشعر بشيء؟ هل ألم بك مرض؟"

جاوب زياد بعد لحظات من التفكر:

"لا عليكِ يا سيسي! أنا بخير، ولكنني لا أستطيع الدخول إلى معبد يهودي!"

فتساءلت سيسي على الفور:

"ولم لا؟"

"لأسباب دينية!"

"قد أصدقك لو كنت تنشد التعبد فيه، ولكننا نبحث عن كانديد يا صاحبي!"

"أعرف ذلك، ولكنني لا أقدر!"

زفرت سيسي متأففة، ثم أسرعت من خطواتها، يتقدمها طرف عصاها الذي كان يتخبط يمنة ويسرة في عصبية، فسبقتنا بمسافة. ثم تلفتت وقالت:

"أنتم قوم متعبون! صباح الغد، سوف أعود إلى بودابست اللعينة!"

نظرتُ نحو زياد مستعطفًا، فطأطأ من رأسه خجِلًا. لكنه أسرع من خطواته حتى لحق بسيسي، واستوقفها ثم قال:

"حسنٌ يا سيسي، سأصحبكم، ولكني لن أرتدي القبعة اليهودية فوق رأسي!"

فأجابته سيسي:

"وماذا لو أصروا؟"

"لن أدخل إذن!"

"لا أعتقد أن أحدًا سوف يجبرك على ارتداء أية قبعة، وإن كنت لا أفهم ماذا يمكن لقبعة لعينة أن تفعل برأسك، أسوأ من هذا!"

"أرجوكِ يا سيسي! أنا لا أسمح! ثم إنك لا تعرفينني إلى حد كاف حتى تنتقضي خياراتي!"

"أنا لا أنتقضك أنت، بل أفكارك، على كل حال فالمنطق البسيط هو غريمك!"

"وهل يبيح المنطق البسيط لليهود أن يحتلوا أرضي؟"

"آه! اليهود، بل قل الإسرائيليون! لكن الأمر طُرح مرات ومرات على القادة السياسيين دون جدوى! هؤلاء وأولئك السياسيون لا يريدون حل الأزمة، وهم أنفسهم من أحالوا القضية برمتها إلى مناطحة دينية، حتى يكتسب كل طرف أصوات العامة وقلوبهم!"

"هذا رأيك، ولكن لي رأي آخر؛ فهؤلاء اليهود وضعهم الاستعمار ليكونوا شوكة في ظهر العرب على الدوام."

"لكن بعض هؤلاء اليهود كانوا في فلسطين منذ بداية التاريخ. لكن ما علينا! هل تعتقد بأن امتناعك عن دخول المعبد اليهودي سوف يساهم في حل المشكلة؟"

"بالطبع لا، لكنني أسجل موقفي الرافض للوضع!"

"حسن، وأنا أقول لك إنك بدخولك المعبد قد تجد كانديد؛ النقطة البيضاء الوحيدة في ذلك العالم الشرير، كما يقول أمير، وحينئذ تساهم في الحل بدلًا من أن تشارك في التأزم."

"إذن سوف أدخل المعبد، وأبحث معكم عن كانديد، ولكنني لن أرتدي القبعة. هذا خياري، وأنا مُصِّر عليه!"

في الصباح توجهنا إلى الحي اليهودي القديم، بعد مسيرة عشر دقائق من الفندق. تجلّى تمثال "فرانز كافكا" البرونزي الجالس فوق بدلة خاوية أمام المعبد، بمثابة إعلان عن دنيوية الزيارة. كانت تلك هي أول مرة أدخل إلى معبد يهودي، أنا أيضًا. دهشت من تشابه طرازه مع طراز أيّ كنيسة أو جامع بمنطقة وسط البلد بالإسكندرية أو القاهرة، كما كان الطراز العربي الهندسي بنقوشه المتكررة جليًا، فلم أشعر بالغربة داخله كما كنت أتوقع. لم يجبرنا أحد على ارتداء أية قبعة، فلم تثر المسألة من جديد مع زياد.

لم يكن موعدًا للصلاة بالمعبد، لذلك كان كل الموجودين من السياح يطوفون بالمعبد وهم يتأملون جمال جدرانه وأسقفه نصف الدائرية المتعانقة في جمال بديع. كان الرواد أقلّ عددا منهم في الكنائس الأخرى التي زرناها في براج، فتسنى لنا أن نتفحص وجوههم جيدًا، أما سيسي فأطرقت بأذنيها تستمع إلى لغة الزوار. لم تمض سوى لحظات حتى وجدت سيسي ضالتها في شاب يتحدث الألمانية مع امرأة بجواره، فتوقفت. بدأت الحديث بعد أن تعمدت أن تُسقط عصاها أمامه، ثم سألته بالإنجليزية:

"هل تستطيع يا سيدي أن تساعدني في التقاط عصاي؟"

فانحنى وحمل العصاة إليها، ثم رد الشاب بإنجليزية ملفوفة بلكنة قوية:

"بلا شك، ها هي ذي سيدتي!"

سرعان ما التقطت سيسي العصاة، وطرف الحديث بحذق وقالت:

"أنا غريبة عن براج، وأرى أنك غريب مثلي... ها ها... لا أعني كلمة 'أرى" حرفيًا، ولكني سمعت لكنتك، فأدركت أنك ربما تكون ألمانيًا أو فرنسيًا، فهل صحّ حدسي؟"

ردّ الشاب بلطف:

"في الحقيقة، أنا فعلًا من أصل ألماني، ولكني عشت بتركيا معظم سني عمري. وأنا ـ أعني نحن ـ بصدد زيارة ألمانيا لتتبع أصول عائلة زوجتي هناك!"

لم تكد سيسي أن تتمالك نفسها من السعادة، فنادت أمير بصوت مرتفع، ولم تكن تدرك أننا كنا على بعد بضع خطوات منها. فجاوبها أمير مقتربًا أكثر، ثم وجّه كلامه نحو الشاب، مادًا يمناه مصافحًا:

"أهلا بك، اسمي أمير، وهي سيسي صديقتنا ورفيقة رحلتنا، وهؤلاء هم زياد وعاطف."

سلم عليه الشاب مبتسمًا وهو يقول:

"مرحبًا، سعدت بمعرفتكم. أتمنى أن تقضوا وقتًا طيبًا في براج. عفوًا فقد كنا في الطريق إلى الخروج، حين وقعت عصا السيدة... سيسي؟"

ترك يد أمير تسقط، وفي لحظة، بينما بقي أمير متسمرًا في مكانه، مذهولًا مما حدث لتوه، كانا قد اختفيا خارج المعبد.

أسرع زياد وراءهما ليقتفي أثرهما، لكنه لم يفلح، إذ تبخرا وسط غابة من السائحين. وبالرغم من عدو زياد في مختلف الاتجاهات، فقد عاد بعد نحو عشرين دقيقة لاهثًا، ولكن خالي الوفاض.

حملنا الوجوم إلى الخارج، وجلسنا صامتين في حديقة جميلة، إلى جانب من ميدان مبلط واسع.

بالقرب منا كان هناك تجمع لبعض الشباب حول رجل يعزف الجيتار. ثم صاروا يغنون معه. أصواتهم المرتفعة، ومرحهم المغالي، كانت تشي بمفعول أكواب البيرة التي يحملونها في أياديهم.

منعتنا جلبتهم من أن نتمكن من الكلام ـ مجرد الكلام ـ حول ما حدث لنا لتوّه، فكففنا عن المحاولة. لكنّ سيسي لم تطق كل ذلك الصمت، فتمردت عليه قائلة بعصبية:

"هيا بنا نذهب إلى أيّ مكان آخر يمكننا أن نتحدث فيه، أكاد أن أنفجر!"

اتخذنا طريقًا جانبيًّا متفرعًا من الميدان الواسع، أفضى بنا إلى شارع واسع في منطقة سكنية، ذات بنايات تعود إلى العشرينيات، ولكنها حديثة الترميم ـ فيما بدا ـ ذات ألوان "باستيل" خلابة. هناك عثرنا على مقهى هادئ، فدخلنا وطلبنا قهوة وبعض الفطائر، وتسنى لنا أخيرًا أن نتحادث. بادر أمير قائلًا:

"لا شك عندي في أنه كانديد، والمرأة القبيحة بجواره لم تكن سوى ليدي كوناجوند!" نظر نحونا متأملًا وقع كلماته، ثم أضاف: "ملمس كفه في يدي، بارد، وصلد، كأنه مزيف... كأنه مصنوع من الشمع!"

تحمست سيسي، فقالت على الفور:

"وصوته النحاسي، الفارغ كأنه يتكلم من أعماق بئر بعيدة!"

عقَّب زياد مؤكدًا:

"اذا لم يكونا هما أنفسهما، فهي مصادفة؛ لا يمكن أن تقابلها إلا في الأفلام المصرية القديمة، مثل 'أبو حلموس" للريحاني."

فعلقت سيسي:

"ماذا تعني كلمات هالموس وريهاني، ما هذه الألغاز التي تتفوّه بها يا زياد؟"

فجاوبها أمير باقتضاب:

"لا عليكِ يا سيسي، فهو يستظرف!"

فامتعض زياد، وتأهب للذود عن نفسه، لكنني قاطعته قائلًا:

"أهم إنجاز هو أننا رأيناه! نعم، لقد بتنا نعرف شكله، ونستطيع أن نميّزه الآن في أيّ شارع كان، أو بداخل أيّ كنيسة أو معبد!"

مصمص زياد بشفتيه ثم عقب مطأطئ الرأس:

"ولكن، ما أدرانا أنه سوف يواصل زيارة المعابد والكنائس من جديد؟ فربما تكون رحلته إلى ألمانيا من أجل الاستقرار بها وسط عائلة زوجته ليدي كوناجوند، أو من تبقى منهم على قيد الحياة إلى اليوم!"

ساد بعض الصمت، فقلتُ متفلسفًا:

"يقولون إن المجرم لا بدّ من أن يترك وراءه أثرًا ما، حتى ولو كان لا إراديًّا، وكأنه يتعمد أن يعثر عليه الشرطي في النهاية، حتى يتمكن من

القبض عليه. في رأيي إنّ كانديد يقصد أن يَلقى أناسًا في طريقه، يفسر لهم خطوته المقبلة، وهو يعي أهمية تلك الإشارات بالنسبة إلينا. إنه يريدنا أن نتتبعه بدون شك. أضحيتُ الآن متأكدًا من ذلك!"

قالت سيسي مؤيدة، بنبرة ملؤها التفاؤل:

"أنا مع الأستاذ عاطف في رأيه. وحسب ما نعرف فإن كانديد لا بدّ يعتزم التوجه إلى مقاطعة "ويستفاليا" في غرب ألمانيا، حيث القصر الذي نشأ به، ووقع في غرام ليدي كوناجوند بين جنباته، وإن كنا ندرك بالطبع أنّ هذا القصر قد دمّر بالكامل حسب الرواية. لكني على أيّ حال أدعوكم لزيارة 'دير بريفنوف الأثري" اليوم، وقبل أن نغادر براج."

بالفعل، استقللنا حافلة إلى الدير الأثري، أخذتنا إلى الشارع المؤدي إلى بوابة الدير، التي كانت تقع أعلى تل غير بسيط، اضطررنا إلى تسلقه سيرًا على الأقدام حتى بلغناها.

كنتُ ألتقط أنفاسي في مشقة حين وصلنا، ولكني سعدت بوجود مطعم صغير إلى يسار المدخل، عرجنا عليه وجلسنا، وطلبت لنا سيسي أربعة أكواب من البيرة المحلية التي قالت إن رهبان الدير كانوا يخمرونها بالدير، وبثمن بيعها للزوار، باتوا يأتون بدخل يعين الدير على الوفاء بمصروفاته. وإحقاقًا للحق كانت البيرة في "دير بريفنوف" الأثري من أطيب ما شربت في حياتي.

لم يعلق زياد ـ أو بالأحرى ـ لم يحاول أن يسخر من صنع الرهبان للخمر داخل الدير.

لكن، وعلى العكس تمامًا، فقد بدأت سيسي تعزف، كما فتح أمير كراسته وشرع يرسم بورتريهات للسياح، ولأحد الرهبان الذي كان يقوم بالخدمة في المطعم الصغير.

وفي المساء لبثت ساهرًا نحو ساعة، بعد أن نام أمير، لأدوِّن كل ما مر بنا في كراستي الزرقاء.

وبالفعل في صباح اليوم التالي، استقللنا القطار، متجهين إلى "شتاينهايم" في "مقاطعة ويستفاليا" بالشمال الغربي لألمانيا.

التاسع

لم يكن لأيّ منا تصوُّر، لما يمكن أن تكون عليه مقاطعة ويستفاليا، إذ لم يزرها أحد منَّا من قبل. جلست بجوار سيسي، بينما اتخذ أمير وزياد المقعد التالي لنا. المسافة أكثر من أربعمائة كيلومترًا، وأدت هزات القطار الخفيفة المتتابعة، إلى أن يذهبا في نوم عميق خلال بضع دقائق. التفتّ نحو سيسي وسألتها:

"يوم تلاقينا في بودابست، لَمَّحتِ إلى أنك ترعين أسرة وأولاد، فهل كان هذا صحيحًا؟"

اتجهت نحوي، ثم ابتسمت لبرهة، ولكن سرعان ما ألبست وجهها مسحة كانت مزيجا من الجدية والحزن. ظلّت صامتة لفترة، ثم قالت:

"هذا صحيح يا سيد عاطف؛ لي ابن، وهو رجلٌ في الثامنة والعشرين من عمره، ولكنه يعيش معي. أعني أنه عاطل، لا يعمل، بلا أسرة، أو أبناء، وفوق ذلك هو مدمن مخدرات!" أطرقت قليلًا، ولكنها أضافت: "وهو يسرق ممتلكاتي ليبيعها، أو أموالي التي قد أجمعها من العزف، وإن امتنعت، يضربني ويهينني..."

من وراء النظارة السوداء، بدأت الدموع تزحف فوق خديها، فشعرت بالأسى لحالها، وبالندم لأني سألتها. لكني لم أتوقع أن يثير سؤالي البسيط ذاك،

كل تلك المواجع. وددت لو أربت فوق كتفها، أو أمسح شعرها الفضي، أو حتى أضم كفها الصغيرة بين يديّ، لأخفف عنها، لكنني لم أجرؤ أن ألمسها، لئلا تسيء الفهم بي. وكأن سيسي اكتشفت ما دار بخلدي، فمدت يسراها نحوي، وقبضت بكفي، بينما أخذت تمسح بيمينها الدمع عن وجهها.

ربتُّ برفق فوق كفها، وأنا أقول لها:

"لستِ وحدك في معاناتك يا سيسي، فكلنا نكابد مشاكلنا في صمت. أنا أيضًا يعذبني الاكتئاب، وتقتلني الوحدة، بعد أن رحلت عني زوجتي!"

أدارت وجهَها نحوي، وهي تسأل بدفء:

"هل تركَتك؟"

"نعم، تركتني... إلى الأبد!"

"ماتت؟ أُوه! أنا آسفة جدًا."

التفتُّ نحوها، وشرعت أقول لها بكل صدق:

"أشكرك يا سيسي، ولكنني أرجوك أن تدركي أنّ لكل منَّا حملا يثقل أكتافه، لذلك ارتحلنا من شتى البلدان، لعلنا نعثر على راحة ما، عن مَخرج من أحمالنا تلك. أو ربما نحن ـ برمّتنا ـ نبحث عن المخلص... من يدري؟ فها نحن في طريقنا إلى ألمانيا، لنفتش في مقاطعة لم أسمع بها من قبل، لعلنا نجد المدعو كانديد!" سكتُّ قليلًا وتنهدت، ثم وجدتني أضيف رغمًا مني: "أتمنى يا سيسي أن نظل نبحث ونبحث عن كانديد هذا، ولا نعثر عليه أبدًا. أتدرين ما السبب؟" لم تردّ سيسي، فأضَفتُ: "لأنني أخشى أن نجده، فنكتشف أنّ الألم، والحزن، والحمل الثقيل ما يزال رازحًا فوق صدورنا. ماذا نفعل عندها

يا ترى؟ أنبحث لنا عن كانديد جديد؟ أم نسَلّم بوجوب الخوض في تلك الحياة البائسة التي نحياها بلا كانديد ينقذنا؟ لعلنا نبحث ساعتها عن الموت، فهو أهون على أيّ حال!"

تشجعَت سيسي أخيرًا، فضغطَت برفق فوق يدي، وعقَّبت:

"أنا آسفة بدوري يا سيد عاطف، إذ أثرت كل تلك الأحزان المكنونة... ألم يكن أجدر بنا أن نظل صامتَين، ولا نكشف الضمادات، التي نخبّئ تحتها جروحنا المتقيحة؟"

تعمدت ألا أردّ هذه المرَّة، بل تلفتُّ نحو نافذة القطار وصرت أتابع الحقول الخضر المترامية والبيوت الخشبية المتناثرة، ومختلف الزروع الملونة في مستطيلات متلاحقة. كأننا نعبر خلال لوحة للفنان الهولندي فان جوخ، رغم كوننا نقطع ألمانيا ـ وليس هولندا ـ عرضًا باتجاه "شتاينهايم".

كانت محطة القطار جميلة وذات سقف مرتفع، قائم فوق ألواح خشبية، صانعة بتقاطعاتها أشكالًا هندسية، مماثلةً لواجهات البيوت بالمنطقة. وزينت جدارياتها بخرائط للمنطقة الشمالية الغربية من ألمانيا وبحر الشمال. كانت البلدة صغيرة، ولم تكن منطقة سياحية، بالمعنى المعروف.

كان الهواء بالخارج نقيًّا وباردًا، رغم أننا في فصل الصيف. لم تكن بحوزتنا خطة واضحة للبحث، فاقترح زياد أن نتجه إلى مطعم لنأكل شيئًا ونتدارس الموقف. تبدلت حالتنا النفسية، من الكآبة التي كانت قد أرخت إسبالها فوقنا خلال رحلة القطار، فعادت الفكاهات والمداعبات تتواتر مجددًا. فسأل زياد فجأة:

"أيّ المطاعم تفضلون؟"

فقهقه الجميع، إذ لم يكن هناك سوى مطعم وحيد، في ما بدا ميدانًا أوحدًا كذلك، تحفه من الناحية الأبعد كنيسة منمنمة. كان الميدان شديد النظافة، وقامت بعض المنازل ذات الواجهات المحلاة بألواح الخشب الداكنة، مكتنفةً لبقية الميدان، وكانت تلك المنازل في شكل مربعات ومستطيلات عرفنا فيما بعد أنها كانت علامات مميزة للبناء في تلك المنطقة من ألمانيا. لم يكن ثمة شخص واحد في الطريق، وكأنها مدينة مهجورة، أو كأنها موقع للتصوير شيد من أجل مشهد ما، ثم انفض عنه العاملون بعد الانتهاء من التصوير.

دخلنا المطعم بحذر، متوقعين أن يصير خاليًا بالمثل، لكننا فوجئنا بأنه مكتظ بالزبائن، وكأن أهل البلدة قد تجمعوا برمتهم داخله. أدركنا ـ لحسن حظنا ـ أن سيسي كانت تتقن الحديث بالألمانية حين تقدمتنا، وطلبت من المضيفة منضدةً لأربعة أشخاص. استقبلتنا المضيفة البيضاء البضة مستغربة وجودنا ببلدتهم، تلك التي لم توحِ بأنهم يألفون وجود السياح، الأجانب عنهم. ومع ذلك، فقد اقتبلتنا بابتسامة محايدة، وإن اعتذرت لامتلاء المطعم، إلا عن منضدة وحيدة إلى جوار المطبخ. كان البديل أن ننتظر نحو نصف ساعة، حتى تخلو طاولة أخرى. لم نتردد بالطبع، فأخذنا تلك التي بجوار المطبخ. علَّق أمير ضاحكًا ونحن نجلس إليها:

"الموقع فريد! على الأقل نضمن عدم تأخر طلباتنا!"

قدمت الطعام لنا سيدة أربعينية سمينة، تعلو وجهها جدية وصرامة وكأنها مديرة بنك. لم تكن هناك قائمة للطعام، لكنها وضعت في وسط المائدة، صحنًا كبيرًا من البطاطس المهروسة وخضار تشبه الفاصوليا لكنها

طويلة للغاية، ثم جاءت بأربعة أطباق تتوسط كل منها قطعة من اللحم، عائمة في صلصة بنية اللون، ووضعت أمام كل واحد منا طبقًا. لكنّ الأشهى كان أربع كاسات مهولة من البيرة تعلوها طبقة سميكة من الرغوة تنضح بطزاجتها.

أكلنا وشربنا في هدوء أولًا، ثم لمَّا أوشكنا على الامتلاء بدأ الحوار بسؤال أمير:

"هل نبادر بسؤال المرأة عن قصر البارون 'ثاندر ـ تن ـ ترونخ"، أبي ليدي كوناجوند؟"

ردت سيسي بسرعة:

"لكنّ القصر تَهدَّم في الرواية!"

فانكفأ رأس أمير أمامه، ورد بيأس:

"هذا حقيقي! ماذا نفعل إذن؟"

هنا قالت سيسي بحماسة:

"السؤال هو ما الذي يفعله كانديد، إذا جاء إلى هنا باحثًا عن عائلة ليدي كوناجوند في مقاطعة 'ويستفاليا"، ما الذي يسأل عنه، وكيف يبدأ البحث؟"

ابتسمتُ أنا وقلتُ مؤيدًا:

"أحسنتِ يا سيسي! وبما أن هذا الكلام مضى عليه أكثر من مائتي عام، فلا يمكن أن نتوقع أن يعرف أحد بأمر قصر البارون ذاك!"

وهنا أضافت سيسي قائلة:

"وربما أنّ ليدي كوناجوند شخصية روائية في الأصل، أي اختراع من صنع فولتير، فلا يمكن أن نتوقع أن تكون لها عائلة بالمعني الشائع. كل ما نعرفه عن العائلة ـ عن طريق الرواية ـ أنّ كانديد ربما كان ابنًا غير شرعي لأخت البارون! إذن، فلا بد أن يكونا قد جاءا إلى هنا للاستطلاع عن أهل المقاطعة بشكل عام، أو لاستكشاف إن كانت معاملاتهم اليوم قد تغيرت عما كانت عليه قبل قرنين من الزمان، أو شيء من هذا القبيل!"

وسرعان ما علَّق زياد قائلًا:

"إذن فربما يكونان ها هنا بين كل هؤلاء الجالسين من حولنا! حسن، دعوني أمر بين زبائن المطعم منضدة، منضدة، فأتفحص كل الوجوه ثم أعود إليكم بالخبر اليقين."

وهنا هبَّ أمير واقفًا، وقال:

"لا، بل أذهب أنا، فلقد واجهته وسلمت عليه في المعبد اليهودي، وأنا متأكد من التعرف عليه، لو كان موجودًا الآن بالمطعم."

لم يترك أمير فرصة لزياد، أو لأيّ منا حتى نعارضه، بل انطلق كالسهم يدور بشتى أرجاء المطعم متفحصًا أوجه الجلوس بصرامته المعهودة، مما أثار تذمر البعض، فوقف شاب معترضًا طريقه، وكاد أن يشتبك معه، لولا أني لاحظت ذلك، فطلبت من سيسي أن تقوم فورًا معي لإنقاذ الموقف قبل أن يتطور. اصطحبتها بسرعة إلى حيث مكان المواجهة، وبالفعل اعتذَرت بلباقة للشاب، وأبلغته أننا نبحث عن شخص غريب عن ويستفاليا قد يكون موجودًا بالمطعم الآن.

هنا صاحت سيدة من المائدة المقابلة بالألمانية: "أتقصدين كانديد؟" فترجمت لنا سيسي، ثم أومأت للمرأة مؤيدة. شرعت تتكلم مع سيسي لبضع دقائق، وهي تهز رأسها موافقة، وفي النهاية ابتسمت لها شاكرة، ثم تقدمتنا نحو منضدتنا وهي تخبط بعصاها الرفيع. جلست بهدوء، وأشعلت سيجارة، وبينما هي تنفث دخانها، عاجلها أمير وقد نفد صبره:

"هاتِ ما عندكِ يا سيسي! ماذا قالت لك المرأة؟ أم تودين أن ننتظر إلى الغد، قبلَ أن تُبلغينا؟"

ضحكت سيسي ساخرة:

"عندنا مثل يقول عيناه جميلتان، لكن قلبه هو الشيطان!" فضحكنا كلنا، وحتى أمير شاركنا، حين أدرك أنه بالغ في إلحاحه. وهنا أضافت سيسي قائلة:

"قالت السيدة إن كانديد وامرأته، وأخاها، وشيخًا معهم ـ قد يكون بانجلوس على ما أعتقد ـ قد حضروا بالفعل إلى شتاينهايم قبل يوم أو اثنين. قالت أيضًا إنهم سألوها عن قصر قديم للبارون 'ثاندر ـ تن ـ ترونخ"، لكنها بالطبع لم تعرف عنه شيئًا، بل سألت بدورها أصدقاءها ومعارفها بلا جدوى. فما كان من كانديد وأصحابه إلا أن اتجهوا من جديد إلى محطة القطار، متجهين إلى مدينة 'مُنستر" القريبة، إذ أشارت إليهم أنهم قد يجدون من يدلهم إلى ضالتهم هناك، لأنها مركز ثقافي كبير، وبها جامعة معتبرة."

زفرتُ يائسًا وأنا أفكر في نفسي: "يبدو أنّ لعنتي التي صببتها فوق رؤوسنا، وأفضيت بها إلى سيسي في القطار، بشأن عدم عثورنا على كانديد هذا، في طريقها إلى التحقق!"

لكن سرعان ما غيرت سيسي من مزاجنا الغائم هذا، بأن هبّت واقفة فجأة، ثم قالت:

"يجب أن نكافئ هؤلاء الناس الطيبين على معاونتهم لنا بالعزف. هيا يا أمير، قم أنت أيضًا، وارسم لهم بورتريهاتك الرائعة!"

وفعلًا، قام الاثنان، وشرعا يعرضان فنهما، فلقيا ترحيبًا منقطع النظير من أهل "شتاينهايم" البسطاء الذين صفقوا وطربوا ورقصوا وشربوا نخب الفنانين. ورفض كلاهما تلقي أيّ مقابل نقدي من الحاضرين. وفي النهاية، رافقنا إلى محطة القطار عدد لا بأس به منهم، وصاروا يودعوننا بحرارة كأننا أصدقاء قدامى. والشاب الذي كاد أن يعارك أمير، صار يربت على كتفه شاكرًا إياه على الرسم الذي أهداه إياه.

بعد أن انصرفوا، وخلال بضع دقائق من انطلاق القطار بنا، قال زياد:

"أنا لم أر من الألمان مثل تلك الحرارة طيلة حياتي!"

فعقبت سيسي:

"هذا صحيح يا زياد، فأهل الشمال في العادة أكثر تحفظًا من هذا بمراحل!"

اتخذنا أربعة مقاعد متواجهة، فكان ذاك مفتاحًا لسفرة أكثر دفئًا من رحلتنا إلى "شتاينهايم". وكالعادة، بادر زياد بقوله:

"أود أن أطلب منك يا أمير أن ترسم بورتريه لـ كانديد، الآن، وصورته ما تزال صافية في ذهنك، وقبل أن تذوي مع الأيام والأحداث المتعاقبة."

وعلى الفور استحسنَّا الفكرة، سيسي وأنا، فما كان من أمير إلا واستجاب، رغم أنّ زياد كان صاحب الاقتراح. فتح دفتره، وأخرج أقلامه وألوانه، وشرع يرسم خطوطه ودوائره، وخلال دقائق كان قد انتهى من الرسم. لكنّ الغريب أن صورة كانديد في ذهني، وفي مخيّلة زياد، اختلفت عما رسمه أمير الذي أصر على أنّ رسمه يعبّر بمنتهى الدقة عن كانديد الذي تحدّث إليه، وشد على يده لبرهة، قبل بضعة أيام.

سرعان ما وصلنا إلى "مُنستر" التي كانت قريبةً من "شتاينهايم" فعلًا. لكن شتان ما بين البلدين من مظاهر حضارية! فهذه كانت مدينة كبيرة حقًا، بالمعنى الشائع، مدينة مزدهرة بالسكان، والمباني العالية، والسيارات بأنواعها. ما إن خرجنا من محطة القطار ذات الواجهة الزجاجية الحديثة، إلى الطريق العام بسياراته وحافلاته التي عجّ بها، حتى صافحتنا رائحة كباب شرقية أصيلة. تلفتنا، فإذا مصدر تلك الرائحة الجذابة عربةٌ صغيرة، مصطفة بجانب الرصيف. وبالرغم من أننا قد تناولنا الطعام لتوّنا في مطعم البلدة بـ "شتاينهايم" قبل نحو ساعتين، فإنّ الرائحة استعصت مقاومتها علينا. وبالفعل أغرى أمير سيسي قائلًا:

"ما رأيك يا سيسي في لفافة من قطع الكباب الشرقي العائمة في بحر من سلطة الطحينة؟"

ضحكت المرأة وهي تقول:

"مع أنني لا أفهم حرفًا مما تقوله، فإنّ الرائحة مغرية فعلًا!"

فأجابها أمير:

"حسنٌ، فاطلبي لنا أربع لفافات من الكباب بالطحينة، فأنا لا أتحدث الألمانية!"

قهقهت سيسي وهي تقول:

"وأين هي الألمانية في ما تقول يا عزيزي؟ باكبابا أو تاهانانا؟"

فبادر زياد وهو يقترب من العربة، ويقول لأمير بالعربية:

"لا عليك سوف أطلب أنا!" ثم التفت مواجهًا البائعة وقال بالألمانية:

"من فضلِك..."

فقاطعته البائعة ضاحكةً، بينما بطنها السمين يهتز فرحًا، وهي تقول بالعربية:

"أربع لفائف كباب بالطحينة، تكرم لي عيونك!"

كانت مخارج حروفها ممطوطة، فأدركنا أنها سورية، بفضل المسلسلات التليفزيونية التي انتشرت مؤخرًا. فتشجع أمير وقال لها:

"الأخت سورية، مو هيك؟"

هزت المرأة رأسها موافقة، وهي تقَلّب قطع اللحم فوق سطح الموقد. ثم فردت الخبز فوق اللحم ليسخنه قبل أن تطليه بطبقة من الطحينة وتلف قطع اللحم بداخلها، ثم تطوي الجميع في لفافة من الألمونيوم.

ملتُ إلى أذن سيسي، فأعلمتها بأنّ المرأة سورية.

سألها زياد وهو يمضغ اللحم الساخن:

"شامية حضرتِك؟"

فأجابته المرأة على الفور، بلهجة ملؤها الفخر:

"بل حلبية!"

أفهمنا أنّ "شامية" تعني أنها من دمشق. سألته المرأة بدورها:

"والبك من وين؟"

فرد زياد وهو يشير:

"أنا من بيروت، والأخوة من مصر، والسيدة من بودابست."

"وما الذي لمّ الشامي على المغربي؟"

وهنا تشجع أمير، فأجابها بواقعيته الفجة:

"نحن هنا في مهمة استكشافية. جئنا نبحث عن رجل غريب عن هنا ..."

فأجابت المرأة:

"إذن فأنتم من جماعة الأمم المتحدة، أتيتم بخصوص اللجوء؟ على العموم أنا أوراقي سليمة!"

وعلى الفور، مسحت يديها بمنشفة أمامها، ثم انحنت المرأة السمينة بصعوبة، وفتحت طاقة بأسفل العربة، وأخرجت ملفًا بلاستيكيًا يحوي رزمة من الأوراق، وشرعت تتفحصها. لكنّ أمير قاطعها بعد أن أدرك عاقبة تسرعه:

"لا يا سيدتي، نحن لسنا من مبعوثي الأمم المتحدة، ولا شأن لنا بأوراقك! نحن جئنا إلى 'مُنستر" لنبحث عن شخص اسمه كانديد! ما اسمك أنتِ؟"

"اسمي نادية خوري!"

فرد زياد على الفور:

"من بيت خوري؟"

ولكنّ نادية عقَّبت بدون تردد:

"لا يا سيدي، لست من الشام، كما قلت لك من قبل!"

سألتها أنا:

"هل أنتِ متزوجة يا سيدة نادية؟"

"لا، بل أرملة. قُتل زوجي في الحرب، فجئنا إلى هنا..."

أصر أمير على سؤالها:

"هل صادفتِ رجلًا غريبًا، شابًا أصغر مني قليلًا، ربما يكون جاء إلى هنا قبل يوم أو يومين، بصحبة امرأة، ورجل آخر، أكبر قليلًا، وشيخ في مثل عمر هذا الرجل؟" وأشار نحوي.

"يصل إلى هنا الكثير من الغرباء يا سيدي، بسبب جامعة "مُنستر" العريقة. وأنا أتيت لنفس السبب؛ فابنتاي تدرسان بالجامعة هنا."

أما أمير فلم يستسلم، فما إن انتهت من كلامها، حتى فتح كراسه وقلَّب بين أوراقه، حتى وصل إلى آخر رسمة به، فأطلعها عليها، وسألها مجددًا:

"هل صادفك صاحب هذه الصورة؟"

"هذا الشبه... ربما... نعم... كان... كان..."

"كانديد؟"

اهتزت المرأة فرحة وهي تقول:

"نعم، نعم، هو كانديد. جاؤوا بالأمس، وأكلوا طعامي وأشادوا به!" أعلنت نادية بفخر، وربما بارتياح، لأننا لم نكن نبحث في أمر إقامتها، أو صحة أوراقها.

"ثم ماذا؟ أعني أين ذهبوا؟" قال أمير مستعطفًا...

فأجابت المرأة وقد غلب عليها أمرها:

"من أدراني أنا يا سيدي؟ لماذا تصر على أني أعلم أكثر مما أقوله لك؟ أنا امرأة بائسة يا سيدي. لقد عانينا الكثير، حتى وصلنا إلى هنا. ومن بعدها أيضًا، إلى أن وجدت عملا، ثم استقرت البنات في الدراسة! لقد تعبنا جدًا يا سيدي! صدقني، فأنا أقول لك كل ما أعرف!"

شعر أمير بالذنب، بل وخجِل من نفسه، فأطرق. أحسست بما يدور برأسه، إذ لم يراع ظروف المرأة القاسية تلك التي أدت بها إلى أن تترك وطنها، وترحل بعيدًا، لتقف أخيرًا خلف عربة، تبيع طعام جدودها، حتى يتسنى لها أن تطعم بناتها، في تلك الغربة التي فُرضت عليها فرضًا. ولكن سرعان ما تماسك أمير، وكلّم المرأة قائلًا:

"أنا آسف يا ست نادية، لم أقصد إيذاء مشاعرك. كلّ ما في الأمر هو بحثنا عن كانديد الذي بدأ في إسطنبول وامتد إلى شرق آسيا، ثم عبر بنا إلى وسط

أوروبا، ثم غربها إلى أن وصلنا إلى هنا. فقط، نريد منك أن تساعدينا في العثور عليه، هنا في مُنستر، فهل يمكنك أن تعاونينا؟"

بدت السيدة نادية متحيرة من أمرها، فرفعت يدها بلا وعي لتعبث بالمنديل الوردي الذي عقصت به شعرها، ولهيت عنا قليلًا، وهي تحاول جاهدة أن تتذكّر ما دار بينها وبين كانديد وأصحابه، في ذلك اللقاء العابر الذي لم تحتفظ بتفصيلاته، إذ لم تتوقع أن تصير ذات أهمية في ما بعد، من وجهة نظر الآخرين، مثل هؤلاء الذين يلحون عليها في السؤال. أخيرًا قطعت صمتها بلهفة، ثم أجابته:

"نعم، تذكرت الآن، قال لي إنهم من إسطنبول، وأتوا ليبحثوا عن أصل عائلتهم، إذ كانت زوجته من مقاطعة ويستفاليا، وأبدوا عزمهم على أن يزوروا مكتبة الجامعة هنا للبحث فيها. هذا كل ما أتذكره الآن!"

سألها زياد أيضًا:

"ألم يسألك عن ديانتك مثلًا؟"

فردت نادية على الفور:

"بلى! وقد تعجبت من سؤاله، إذ لا يُسأل أحد هنا عن ديانته، أو أية أسئلة شخصية مماثلة..."

"وأنت، ماذا أجبته؟"

"قلت له إني مسيحية بالطبع! فسألني بدوره إن كان هذا هو سبب هجرتي إلى ألمانيا، فجزمت بالإيجاب!"

"وهل هذا ـ بالفعل ـ السبب الرئيسي؟"

"يا سيدي، لو نزح إلى بلدتك غرباء، بعضهم لا يتكلم حتى العربية، ملتحون، يلفون رؤوسهم بشرائط سوداء، ويرتدون الجلباب، ويرفلون في الشوارع ببنادقهم المعلقة فوق أكتافهم، ويمنعوننا من ارتياد كنائسنا، بل ويحطمون تلك الكنائس، حتى الأثرية منها، وينزعون الصلبان من فوق قبابها، ويتلفون شواهد قبور آبائنا، ثم يدفعون بأبناء المسلمين إلى حمل السلاح معهم، دوننا بالطبع، فإذا صار كل ذلك في بلدتك، فتحيّنت الفرصة للهروب من ذلك الجحيم، ألا تعتقد أنّ ذاك يصير بسبب ديانتي؟"

اختصرت ما دار بيننا من كلام، وترجمته لسيسي التي كانت انتهت لتوها من طعامها، إذ لم تفهم بالطبع شيئًا من الحديث الذي دار بيننا بالعربية. كانت تنصت باهتمام شديد، وحين انتهيت من الكلام دعتنا للذهاب إلى الجامعة، وبالتحديد إلى مكتبة الجامعة.

وما هي لحظة واحدة وإذا بالسماء تنفتح، وإذا بسيل من الأمطار ينهمر فوق رؤوسنا. في الحال كدنا أن نندفع بتلقائية نحو المحطة مجددًا، تاركين نادية خوري وعربتها، ولكنها صاحت بنا لننتظر. وفي التو سحبت شريطًا مدلى من قمة العربة، فإذا بمظلة زرقاء كانت مبرومة حول أسطوانة، تنداح، فصرنا بها في صون من المياه الغزيرة، في ثوانٍ قلائل.

توجستُ من ضياع الوقت، ونحن محبوسون تحت مظلة السيدة نادية، لكن سرعان ما توقف المطر. كعادتها آثرت سيسي تقفي خطوات كانديد

بتخيل ما هو عازم على أن يفعله. وبالفعل قادتنا نحو مكتبة الجامعة، متوسلة إلى ذلك سؤال بعض من الطلبة الذين استوقفتهم ليرشدونا إليه. وقفت سيسي أمام موظفة الاستعلامات وسألتها:

"من فضلك أنا أبحث عن أي شيء يقودني إلى سليل البارون 'ثاندر ـ تن ـ ترونخ" هنا في مقاطعة ويستفاليا"

فما كان من المرأة إلا أن تبسمت بجرمانية متعالية، ثم أومأت برأسها وهي تقول:

"من العجيب يا سيدتي أن تكوني ثاني من يسألني عن ذاك البارون خلال يومين! ولكني أستطيع أن أقول لكِ الآن، وبكل ثقة، بعد أن قتلت الأمر بحثًا بالأمس، إن ذاك البارون لا وجود له على الإطلاق! ليس في مقاطعة ويستفاليا فحسب، ولكن ولا في أي موضع على وجه الأرض. نعم سيدتي، لا يوجد في أي مرجع ذِكرٌ له، إلا عند الحديث عن رواية 'كانديد" للأديب الفرنسي 'فولتير" التي كتبها في القرن الثامن عشر، وتحديدًا.." ثم بحثت فوق مكتبها حتى سحبت ورقة، قرأت منها: "هممم... في عام ١٧٥٩."

انسحبت سيسي من أمامها في بطء، ثم واجهتنا ورأسها متطأطئ، وشرعت تترجم لنا ما قالته أمينة المكتبة لها. ورغم أنها كان صاحبة فكرة استحالة عثورنا على عائلة ليدي كوناجوند في الأصل لأنها شخصية روائية ولا أثر يمكن أن يوجد لأبيها البارون، إلا أن رغبتها ـ وأمنيتنا المستعرة ـ في العثور على كانديد أثرتا عليها، بحيث تمنت لو ثبت خطؤها.

حين انتهت، انبرى أمير بعنفوانه المعهود قائلًا:

"حسنٌ يا سيسي، لكن كما قال الأستاذ عاطف من قبل، فإن كانديد ينبغي أن يكون قد ترك خيطًا وراءه، يمكننا من تتبعه. اسأليها بالله عليك، لعله أعلن لها مقصده."

وبالفعل سألتها سيسي، ثم واجهتنا من جديد، بفرحة هذه المرة، وهي تقول:

"سألها كانديد عن طريقة للذهاب إلى باريس، فأعلمته بأنّ هناك الطائرة والقطار، ولكن أرخص الطرق الحافلة التي تقوم عند منتصف الليل وتصل باريس في الصباح، بحيث يمكنك تناول طعام الإفطار بها!" من جديد، صار علينا الآن أن نبدأ صفحة جديدة تمامًا في بحثنا عن كانديد.

تبدت لي ـ على نحو مباغت ـ صحة نظرية أمير عن وجود كانديد، يحيا بيننا، رغم موت صاحب الشخصية الروائية الأصلي، فولتير، وأنّ كل ما اندثر في الرواية فنيَّ معها، مثل البارون "ثاندر ـ تن ـ ترونخ" وزوجته، وبقية شخصيات الرواية، التي اندثرت خلال أحداثها. إذن فلم يتبق سوى كانديد وزوجته، وأخيها، والبروفسور بانجلوس. وإلا فما هو تفسير رؤية الدرويش القوني له، ومن بعده شهادة الراهب البوذي في بانكوك، وزينب، المرأة المسلمة في كوالالمبور، ثم القس الكاثوليكي في بودابست، ونادية خوري، السورية المسيحية النازحة إلى مُنستر الألمانية، ثم أمينة المكتبة بالجامعة هنا؟ هذا بالطبع إذا اعتبرنا أنّ معاينتنا نحن لـ كانديد وليدي كوناجوند بالمعبد اليهودي في براج، كان مجرد أوهام صنعناها لأنفسنا، أو خيالات ابتدعتها رغبتنا الملحة في العثور على تلك الشخصية الزئبقية.

ولكن ماذا يعني كل ذاك؟ خاصة، ونحن لم ندرك ـ إلى الآن ـ المغزى الحقيقي لظهور كانديد في هذا التوقيت بالذات. إذا كان تاريخ ميلاده ـ كما أعلمتنا أمينة المكتبة –كان في عام ١٧٥٩، إذن فلِمَ ارتضى أن يظل قابعًا في حديقته الأناضولية، يزرعها لأكثر من مائتي وخمسين عامًا، قبل أن يطل على عالمنا الآن؟

لكنني لم أفاتح أحدًا بهواجسي تلك، إذ لم أشأ أن أبدل الفرحة التي شملتنا بعد أن عاد الفتيل الذي أوشك أن ينطفئ إلى التوهج مرة أخرى.

وبالفعل، سرعان ما انطلق صوت زياد مجلجلًا:

"إذن علينا بالعشاء في مطعم، ولنشرب نخب الأمل المتجدد!"

لكن سيسي قالت معارضة:

"بل علينا أن نذهب أولًا إلى محطة القطار لنبتاع التذاكر، قبل أن تنفد، ثم علينا ثانيًا أن نستعيد نشاطنا الفني لجلب بعض المال لأنّ مخزوني بدأ يتبخر، ومصاريف باريس لا قبل لنا بها، إلا إذا كانت محفظة نقودنا عامرة!" ثم التفتت نحو أمير وهي تضيف: "ألا توافقني يا أمير؟"

شعرتُ بالخجل من نفسي، من جديد، فهي لم تشر إليَّ لتسألني مثلًا، مما يعني أنها أيقنت أنني لم أكن سوى عالة على أمير. ومما أثارني فوق ذلك، هو أني سلَّمت بهذه الحقيقة مثلها تمامًا. لكنني عدت لأتفكر عمَّا يعنيني من أمر سيسي، تلك المرأة الغريبة، وما تعتقده بشأني في جميع الأحوال! فالأمر من بدايته إلى نهايته اتفاق بيني وبين أمير، ولا اعتبار للسيدة سيسي بخصوصه، لا من قريب ولا من بعيد.

بالفعل اتجهنا إلى محطة القطار، وابتعنا التذاكر. كانت الضاحية المحيطة بالمحطة، منطقة بارعة الجمال، إذ اصطفت المباني القديمة ذات الطرز المزخرفة، ومن تحتها الحوانيت المختلفة، والشوارع القديمة المبلطة، مثل منطقة وسط البلد القديمة بأحياء الرمل والمنشية بالإسكندرية. شعرت بنوع من الألفة أزاحت عني تلك الأفكار القاتمة التي باتت تملأ رأسي. ثم سرعان ما بدأت سيسي عزفها البديع على كمانها الغجري، وبدأ أمير يرسم وجوه الشباب العابرين من طلبة الجامعة، في مقابل نقود زهيدة، هي كل ما يقدرون على تحمله من جانبهم. امتلأ قلبي العجوز فرحًا، حتى كدت أن أتمايل مع موسيقى سيسي، وخطوط أمير البهيجة.

وفي خضم تلك الفرحة، وبينما زهور الشباب تتجمع من حولنا، شقراوات، وسمراوات، بيض، وسُمر، قصار ضئيلو البنية، وعمالقة مفتولو العضلات، ومنمنمات من أقاصي الشرق، من كل لون وجنس، إذا بالسيدة نادية خوري تنبثق أمامنا من وسط كل هؤلاء، وهي تصحب إلى جانبيها بنتين في مثل عمر كل الشباب من حولنا، ثم قدمتهما إلينا بزهو:

"لينا وهيلدا خوري، بنتاي!"

كانتا سعيدتين بنا، وبالبهجة التي أشعناها من حولنا. سألتنا نادية عن سبب سفرنا إلى باريس، فرد أمير بزهو:

"لكي نجد كانديد!"

ولكنها لم تفهم، فسألته ثانية:

"من؟ كانديد؟ هل تقصد الرجل الذي جاء وأكل الكباب عندي بالأمس؟ ولكن لماذا؟"

فأجابها وهو سارح في عالمه الخاص:

"حتى يمنع الشر الذي تعرضت له يا نادية، وحتى يجنب العالم كله مثل هذه الفظائع!"

"ولكن، هل بوسعه أن يفعل ذلك؟ حقًا؟ لقد بدا لي رجلًا عاديًّا، يستمتع بأكل الكباب فحسب!"

"لم تعرفيه بالقدر الكافي يا عزيزتي، فهو بسيط وطيب على السطح فقط، ولكنه في واقع الأمر عميق إلى أبعد الحدود!"

"آه! لو كنت أعرف ذلك ما كنت تركته يمضي هكذا! وأنا التي تذمرت ـ بيني وبين نفسي طبعًا ـ لأنه لم ينفحني بقشيشًا كافيًا! لو أتمكن من أن ألقاه مجددًا! بل ليتني أقدر أن أسافر معكم!"

قالت وهي تهز رأسها آسفة. فسألها أمير:

"ولم لا؟"

فردَّت على الفور:

"البنتان! من يراعيهما في غيبتي؟ ليس لنا أحد هنا!"

ودعتنا السيدة نادية وبنتاها. وانشغلنا عنهم بالترفيه عن باقي الشباب، وإمتاعهم بفن أمير وسيسي. لكن مع الوقت، ولأن اليوم كان ثلاثاء ـ من أيام وسط الأسبوع ـ بدأت الجلبة تهمد، وأخذ الشباب ينصرفون. وفي النهاية بقينا وحيدين في انتظار موعد الرحيل، مع شلة من المسافرين هنا وهناك.

وفي تمام الدقيقة الخامسة عشرة، من بعد منتصف الليل، وبينما الظلمة الكالحة تحيط بنا، أقلعت بنا الحافلة المتجهة إلى باريس عاصمة النور.

كعادتي، أخرجت كراسي الأزرق، وعكفت على تدوين كل دقائق الأحداث، في هدوء الحافلة النائمة.

العاشر

وصلنا باريس نحو الساعة التاسعة صباحا، بعد أن نمنا من فرط الإجهاد كالأطفال، طوال الرحلة المسائية الطويلة. استعلمنا في محطة "جاليني" عن كيفية الوصول إلى وسط المدينة، فأشار علينا شرطي بأن نركب المترو، الخط رقم ثلاثة. وبالفعل، كنا نجلس بعد نحو ساعة، إلى طاولة فوق أحد الأرصفة نحتسي القهوة الفرنسية القوية، ونقضم لفافات الخبز الفرنسي "باجيت" المحشوة بالجبن وشرائح اللحم المقدد.

كان ذاك إحساسًا جميلًا؛ أن أجد نفسي هكذا في قلب باريس، المدينة الحلم. كنتُ أشعر بنشاط وحيوية غير معتادين، حتى أني سارعت بالانتهاء من الطعام، وهممت واقفًا، وأعلنت أني على أتم الاستعداد لبدء تجوالنا في المدينة. تناسيت للحظة سبب زيارتنا المدينة، وتراءى إليَّ "برج إيفل"، و "حي مونمارتر"، وكاتدرائيّتا "نوتردام" والـ "ساكريكير"، و"متحف اللوفر"، وغاب عن ذهني تمامًا كل ما يمتّ بصلة لـ كانديد وأصحابه. لكن سرعان ما أفاقني أمير من حلمي بقوله:

"ما رأيكم بأن نبدأ البحث على الفور بزيارة كاتدرائية نوتردام؟ يسعدني أن أرى الأستاذ عاطف مستعدا كل الاستعداد!"

لكنّ زياد علّق قائلًا:

" بل يجب أن نجد فندقًا أوّلًا، حتى نضع حقائبنا، ثم نبحث دون أن يعترينا القلق من ألا نجد مكانًا للمبيت! على العموم فلديّ صديق هنا قد يتمكن من مساعدتنا."

وبدون أن ينتظر جوابا، أخرج هاتفه المحمول وشرع يعبث به، ثم سرعان ما غدا يحادث صديقه، وشرع يكتب فوق ظهر فاتورة المقهى بضعة إرشادات. ولما فرغ من ذلك، توجه نحو أمير وقال:

"لحسن حظنا أنّ الباريسيين تركوا المدينة، واتجهوا نحو الجنوب لقضاء عطلة الصيف على الشواطئ هناك! على أيّ حال فالفندق ليس ببعيد عن كنيسة نوتردام، ولقد أمدّني صديقي بوصفة سهلة للوصول إلى هناك."

علقت سيسي لأول مرة، وكأنها لا تريد أن تظل خارج الصورة:

"هيا بنا إذن!"

لم تزل الطاقة التي منحتني إياها باريس الساحرة تتقلب بين جدران روحي، فتدغدغني حتى أكاد أن أقهقه بلا سبب واضح. لكنني ـ بالطبع ـ كتمت تلك المشاعر المراهقة، وآثرت أن أحتفظ بها لنفسي، كي لا ينالني ما ينالني من سخرية زياد، أو حنق أمير، أو حتى دفاع سيسي عن حقي المشروع في السعادة.

كان موظف الاستقبال ـ الذي علمنا فيما بعد أنه هو صاحب الفندق أيضًا ـ رجلًا مغربي الأصل، وإن هاجر بصحبة أهله منذ خمسة عقود أو أكثر، ولم يتحدث العربية على الإطلاق. وبما أننا ـ سيسي وأنا ـ لم نفقه اللغة الفرنسية، فقد اضطلع أمير وزياد بالحديث نيابة عنا.

استقبلنا بترحاب، وخاصة لما أعلمه زياد باسم الصديق المشترك الذي دلّنا إليه. كان الفندق بيتًا قديمًا ذا ثلاثة طوابق، يقع في حارة ضيقة، موازية لشارع رئيسي، حوطته حديقة منمنمة، وقد ورثه عن أبيه. ومع الوقت، أبدل السيد عدنان الأخضر غرف المنزل برمتها محولا إياه إلى فندق ـ أو كما يقولون سرير وفطور ـ لغرض السياحة، نظرًا لموقعه الرائع في قلب العاصمة، وبالقرب من محطة المترو، مما جعل الانتقال منه وإليه في منتهى اليسر. سكن هو غرفة بالطابق الثالث. في الداخل كان المبنى الحجري ينضح بتلك الرائحة التي نألفها نحن السكندريين؛ إنها مزيج من الرطوبة المسكرة، المتداخلة مع رائحة حمضية، ناتجة عن العث الذي يكتن في أركان البيوت العتيقة وبداخل جدرانها.

اتخذنا غرفة بالطابق الأرضي لسيسي، وغرفتين بالطابق الثاني لنا ولزياد. لكننا ألقينا بحاجياتنا، لنتجه على الفور سيرًا على الأقدام إلى كاتدرائية "نوتردام" الشهيرة. بحت لأمير، ونحن ننزل الدرج إلى الطابق الأرضي:

"أشعر وكأنني بصحبة توفيق الحكيم، في بعثته التي كتب عنها في عصفور من الشرق. أشكرك يا أمير، أن أتحت لي أن أرى باريس قبل أن أموت!"

فرد أمير ضاحكًا:

"بل اشكر كانديد يا عم عاطف!"

كانت الشمس ساطعة بينما كنا نعبر نهر السين من فوق "جسر نوتردام" المؤدي إلى الكاتدرائية العملاقة التي تبدت لنا بين صف من الأشجار

الباسقة، كشاهد على تاريخ باريس الممتد من العصور الوسطى، إلى الحملات الصليبية، وإلى حفل تتويج نابليون وزوجته جوزفين، وحتى أن كتب عنها فيكتور هوجو رائعته "أحدب نوتردام".

ما إن دخلنا حتى تبدت لنا روعة البناء من أرضية رخامية فاخرة، إلى أعمدة شاهقة الارتفاع، تتقابل بعضها إزاء بعض بأقواس تؤدي إلى سقف سماوي تتدلى منه أروع الثريا، وتفضي إلى المذبح الذهبي عند أقصى البهو المهول. لم أدرك تفاصيل المذبح الفخم، الذي تتصدر واجهته لوحة هائلة للمسيح المصلوب، حتى تقدمنا نحو خمسمائة متر نحوه، ناهيك عن التماثيل واللوحات الزيتية المبهرة، التي تزين الجدران في كل سنتيمتر عبرناه. يا له من مهرجان من الجمال والروعة!

أما عن نفسي، فقد نسيت كانديد وصحبه، وأنا غارق في عالمي، لا أندم على شيء سوى افتقادي لصحبة ثريا زوجتي الراحلة، التي تمنيت لحظاتها لو كانت تشاركني السباحة في خضم تلك الطلاوة الأخاذة. ولكنني سرعان ما تحسرت على مشهد سيسي، وهي تتقدم ببطء شديد وحذر مخوف، وكأنها شبه واقفة، وحيدة، عند منتصف الممر المؤدي إلى المذبح. فلقد تركناها وراءنا، وتقدمنا بعيدًا عنها، مأسورين ببهاء المشهد الخلاب، بينما لبثت هي أسيرة الظلام والوحدة، في فضاء القاعة المهولة الجوفاء، حسب ما خُيِّل إليّ من رجع إيقاعات طرقها فوق الأرض الرخامية بطرف عصاها. ولسبب أو لآخر، شرع أحدهم يعزف الأرغن الهائل، فجفلت المرأة وكادت عصاها أن تسقط منها، فأسرعت نحوها لأساعدها.

أعادتني المرأة إلى مهمتنا التي من أجلها جئت إلى هنا، والتي لولاها ما كنت قد قابلت سيسي أصلًا. تلفتّ حولي أبحث عن أمير وزياد بين جموع الزوار، وأغلبهم كانوا من السائحين فيما اعتقدت. أبصرت أمير يحادث أحد الكهنة بجلبابه الأبيض عند الناحية المقابلة، فملت إلى أذن سيسي وأبلغتها، فابتسمت.

اتجهنا إلى مكان أمير، ولكنني لم ألمح زياد. أشرت إلى سيسي أن تتوقف بعد أن صرنا على بعد خطوات من أمير والقس الكاثوليكي، وكانا ما يزالان يتحاوران. جلت بنظري أبحث عن زياد، ولكني لم أجده. بعد أن انتهى أمير من حديثه، حيّا القس ثم اتجه نحونا. قال إنهم يستعدون للصلاة الآن، وهم في العادة يبدؤون بالترنيم، مما فسّر بدء عزف الأرغن. سأله ـ بالطبع ـ عن كانديد، ولكنه لم يبد معرفته بأيّ شيء يتعلق به. شرعنا إذًا في الخروج، ولكن زياد لم نجد له أثرًا، بعد بحث استمر لفترة غير قصيرة. لم أدر ماذا نفعل، لكنّ سيسي حسمت الأمر بقولها:

"لابد من أنه التهى بملاحقة إحدى الفرنسيات، فهن لا يقاومن!"

ضحكنا من كلماتها، وتعجبت مرة أخرى من قدرتها على قراءة مَن حولها بهذه الدقة رغم عجزها. لكني بادرت وسألت أمير عن وجهتنا التالية، فنظر إلي وقال:

"يبدو لي أنك مشتاق لرؤية حي مونمارتر الذي كتب عنه حبيبك توفيق الحكيم في 'عصفور من الشرق" أليس كذلك؟" فأومأت موافقًا، فزاد: "إذن فلنذهب إليه ونزور 'كاتدرائية ساكريكير" هناك. ما رأيك؟" فأشرت مؤيدًا من جديد، ولكني تساءلت:

"وماذا عن زياد؟"

فأجابت عنه سيسي:

"زياد يعرف مكان الفندق، فإذا لم نجده خارجًا، فلنذهب بدونه، ثم لابد أن نلتقيه في المساء عند عودتنا. لا تنس، أنه هو الذي بادر فتركنا يا عزيزي!"

خارج الكنيسة، ووسط عشرات الزوار، طالعنا زياد بوجه مضطرب، وهو يدّعي بأنه صار يبحث عنا دون جدوى، في كل مكان منذ دخلنا إلى رحاب الكنيسة. ولكن أيًّا منا لم يعقب، فلقد كان خجله من استهتاره بنا، وبتعهده لأمير من قبل، باديًا فوق وجهه.

وبالفعل انطلقنا نحو محطة المترو القريبة، واتجهنا إلى حي مونمارتر؛ أو "تل المريخ"، وملتقى الفنانين العظام مثل رينوار، ومونيه، وماتيس، وديجا، وبيكاسو، ومجمِّع البوهيميين، والصعاليك، وبيت المهاجرين الجدد من شمال ووسط وغرب أفريقيا. وقد وجدناه كذلك حقا؛ تل مرتفع يبدأ من الميدان حيث صعدنا من قلب الأرض، عند محطة المترو. ثم يتفرع الميدان إلى شوارع مبلطة بالحجر، تتراص إلى جانبيها مقاه، ومطاعم، وحانات، وبيوت بديعة الألوان والزخرف، تتكون من ثلاثة أو أربعة طوابق على الأكثر، وترتفع الطرقات وتعلو، حتى أن بعضها كان عبارة عن سلالم متدرجة، كلما اقتربنا من كاتدرائية الـ "ساكريكير" الشهيرة المشيدة فوق قمة التل. كانت مرتفعة جدًا، بحيث خيّرونا بين أن نصعد إليها عبر سلالم تبدو لا نهائية، أو نجلس إلى عربات كهربائية ترفعنا إليها، ولا أتذكر إن كانت مجانية أو بمقابل أجر

زهيد. اخترنا ـ بالطبع ـ العربات الكهربائية ربما بسببي، ومن أجل سيسي كذلك. عند القمة ترجلنا، ونظرت إلى أسفل فتبدت باريس كلها تحتنا، فأبصرت أيضًا ـ عن بعد ـ "برج إيفل" شامخًا، لأول مرة منذ وصولنا.

تقدمنا نحو المبنى الشاهق ذي القباب البيضاء الراسخة والأقواس عند المدخل، تلك الأقواس التي ذكرتني ـ مع فارق الحجم والفخامة ـ بكاتدرائية سانت كاترين بالإسكندرية. وبداخلها تبدت عظمة الفن البيزنطي المتجلي في رسم لقيامة السيد المسيح فوق قبة تعلو المذبح الرئيسي، وعلى الجدران لوحات لمختلف القديسين. لم تتمتع "ساكريكير" بالفخامة ذاتها التي شهدناها داخل "نوتردام"، لكنها كانت لسبب أو لآخر أقرب إلى نفسي. وبالفعل، ألفينا روادها أقلّ من أولئك الذين قابلناهم في الكاتدرائية الأولى. نظرت نحو أمير وقلت:

"فرصتنا للقاء كانديد هنا أكبر!"

ابتسم أمير، وهو يجول ببصره بين الزوار، يبحث عن شبيه لوجه في لوحة كان رسمها قبل أيام قليلة، في قطار عبر بنا من "شتاينهايم" إلى "مُنستر" بـ ألمانيا!

وفجأة، صاح زياد:

"ها هو! كانديد هناك! بجوار العمود المقابل، يتحدث إلى القس... انظر، هناك!"

وفعلًا، اتجهت أعيننا في الاتجاه الذي أشار نحوه، لكنّ بهو الكاتدرائية كان مزدحمًا، فلم تصل نظراتنا إلى الهدف. أما عن زياد فاستطاع بعملقته أن يجتاز رءوس الجميع ويبصره. على أي حال، اتجه ثلاثتنا خلف زياد ما بين

تكتلات الحشد اللفيف، وهو يحثنا أن نسرع حتى نلحق به. لكن ما إن اقتربنا من الناحية الأخرى للقاعة، حتى تصايح زياد من جديد:

"لقد ترك الوغد الكنيسة، اختفى!"

فتأفف منه أمير، وعلق فورًا:

"أسرِع ناحية البوابة لتلحق به، بدلًا من إطلاق لسانك السليط هذا!"

اتجه زياد نحو البوابة الرئيسية، بينما استأنفنا نحن التقدم وسط الحشود في الاتجاه ذاته ، لنلاقي القس الذي كان كانديد يحادثه.

وبالفعل وصلنا، ووجدناه واقفًا في ذهول باد، تحت عمود رخامي ضخم. رجل متوسط العمر، حليق الرأس، يميل للبدانة. حياه أمير، فأفاق من دهشه، ومد يده البضة مصافحًا إياه بتلقائية وهو يقول:

"الأب جان لوي فرانسوا."

"وأنا أمير فهيم، من مصر!"

"مرحبًا بك!"

أخيرًا بدا القس وكأنه استعاد جأشه من جديد، فابتسم وهو يقول بلهجة رسمية:

"كيف أستطيع مساعدتك؟"

رد عليه أمير بالفرنسية، فازدادت ابتسامة الرجل اتساعًا:

"هذا الرجل الذي كان يحادثك الآن..."

ذهل القس من جديد، ثم عقد ذراعه فوق صدره بينما استند مرفقه الآخر فوقه، وبدأت أصابع يده تعبث بصدغه وذقنه الحليق وهو يتفكر في صمت. ثم تمتم قائلًا:

"نعم، ذلك الرجل..."

فبادره كانديد بجرأة:

"كانديد!"

أومأ القس موافقًا:

"نعم كان صريحًا جدًا!"

حينئذ التفت أمير نحونا، وهو يكتم ضحكة كادت أن تفلت منه:

"أعرف أنّ كانديد بالفرنسية تعني 'صريح"، ولكنني أسألك عن الرجل، ذلك الرجل اسمه كانديد!"

فابتسم القسيس أخيرًا، بل وأفلتت منه قهقهة مبتورة، وقال سارحًا:

"عندما قدمت نفسي إليه، وقلت الأب جان لوي فرانسوا، ردّ وقال كانديد، فحسبته يطلب مني أن أصارحه بشيء ما، لأنه ما لبث أن سألني مباشرة عن المؤمنين بحق، أين يمكنه أن يجدهم!"

سأله أمير على الفور:

"وماذا أجبته؟ أعني، بماذا رددت عليه قداستك؟"

عاد القس ينظر بعينيه الزرقاوين إلى لا شيء، وكأنه يحاول أن يبحث عن تفصيلات عتيقة، لا ملابسات حديث وقع منذ دقائق. ثم ردّ بينما كانت أصابعه تعبث من جديد بذقنه اللامع:

"في الواقع، لم أفهم سؤاله، فالحديث عن الإيمان معقد جدًا. لقد قرأت عن الإيمان كتبًا ومجلدات، بدءًا من معلمنا يوحنا ذهبي الفم، إلى القديس أوغسطينوس، وآخرين. لم أكن مستعدًا بالفعل للإجابة عن تساؤله ذاك المشروع!"

ولكنّ أمير لم ييأس، فسأله من جديد:

"هل تعني ـ فخامتك ـ أنه ذهب عنك بدون أن يعرف إجابتك؟"

عندها رفع الكاهن سبابته، وكأنه أدرك الإجابة أخيرًا، وقال:

"لا! بالطبع لم أدعه يرحل دون أن أجاوبه! فقد سألني سؤالًا منطقيًا، لذا كنت حريصًا أن تكون إجابتي دقيقة، وخاصة لأنه استبق سؤاله بلفظ كانديد، الذي فهمته، وكأنه يقصد أن أكون صريحًا معه. لا أدري لماذا تراءى لي أنه كان يسألني عن أناس مختلفين عن بقية البشر من حولنا، ولست أعرف الآن، إذا ما كان يعني ذلك أم لا. وكذلك مظهره الخارجي ـ أنا آسف أن أعترف بذلك ـ ولكن هندامه بدا لي قديمًا باليًا، فأدركت أنه عالم من نوع فريد، أو ربما كان قد جاء ليختبر إجابتي عن سؤال معقد مثل ذاك الذي طرحه، هكذا بإيجاز: 'أين أجد المؤمنين بحق"؟ يا له من سؤال! لذلك قفز إلى ذهني هؤلاء المؤمنون القديسون؛ الذين تسبب إيمانهم في حدوث معجزات مثلًا، أيّ أشياء خارقة للطبيعة ـ إذا كنت حضرتك تؤمن بتلك الأشياء ـ فنحن الكاثوليك نؤمن بذلك، ولكننا لا نعترف بأن تلك الأشياء يمكنها أن تضيف إلى الإيمان الصحيح، وإنما تحمل في طياتها رسالات إلهية قد تساعدنا

أحيانًا في فهم أشياء رهيبة قد تحدث في العالم من حولنا. لكن جرى العرف أن يتأكد المجمع المقدس لعقيدة الإيمان، من تلك الخارقات قبل أن توثق. أنا آسف لأنني أطلت عليك، ولكن تلك كانت الخواطر التي مرت برأسي حين سألني. خطر لي أن أوجهه إلى 'لوورد" في جنوب فرنسا، حيث ظهرت السيدة العذراء للطفلة برنادت سوبيرو، والتي صارت قديسة فيما بعد. ولكنني تفكرت، وبما أننا في باريس يا صديقي، كان ما تبادر إلى ذهني عندها هو ظهور السيدة العذراء في 'شارع دو باك" لـ 'كاثرين لابوري" الراهبة المستجدة في دير للراهبات هناك، أسبوعًا واحدًا قبل قيام الثورة الباريسية، في القرن التاسع عشر. وبالفعل، ظننت أني أجبته عن تساؤله، ولاسيما أنّ أساريره انفرجت حين أعلمته، فشكرني، وهو يشد على يدي بحرارة، ثم سرعان ما تركني ومضى، وفي غضون ثوان، كان قد اختفى. إنه شيء محيّر للغاية، لم أر له مثيلًا طول خدمتي!"

ظل القس هكذا صامتًا، متأملًا للحظات الفراغَ الرحب من فوق رأس أمير، ثم نظر نحوه فجأة، وهو يتساءل:

"وماذا عنك أنت يا صديقي، هل تعرفه، أعني هل هو مبعوث من جهة ما ليبحث في شأن إجابتي عن سؤاله العميق هذا، أم ماذا؟ أرجوك أن تبوح لي بالحقيقة كلها، ولا تخف عني أيّ شيء. أنا مستعد لأن أتقبل كل ما تقوله لي بصدر رحب!"

هنا تنهد أمير متفكرًا في ما إذا كان يجدر به أن يبوح للأب جان لوي فرانسوا بسرّ مجيئنا إلى باريس، وبالذات إلى كاتدرائية "ساكريكير". وبعد تردد

قصير، وجدت أمير يشرح للقس كل ما كان من رحلتنا من الإسكندرية إلى إسطنبول، ثم لقائنا الدرويش القوني بالأناضول، وسفرنا إلى باكوك حيث أعلمنا الراهب البوذي بسفر كانديد إلى ماليزيا، ثم مقابلة زينب الماليزية التي أنبأتنا بسفره إلى بودابست، حيث التقينا بالقس الذي وجهنا نحو فيينا أولًا ثم براج، حيث شاهدناه لبضعة ثوان داخل المعبد اليهودي هناك، قبل أن نتعقبه إلى مقاطعة ويستفاليا بألمانيا، ومنها لحقنا به هنا في باريس حيث شاهده الأب الكاثوليكي وتحدث معه ، وهو الذي أرشده بدوره إلى دير الراهبات بشارع "دو باك"!

حينها انفعل الكاهن وتهلل قائلًا:

"أوه! وأنتم تفعلون كل هذا من أجل إنقاذ البشرية! يا لكم من أبطال! هل لي أن أسألك يا أخ أمير عن الجهة التي تموّل مشروعكم العملاق هذا؟"

فأجابه أمير متفاخرًا:

"لقد ورثت بعض المال عن أبي، وأنا أرسم بينما تعزف صديقتنا سيسي الكمان، فنجمع بعض النقود هنا وهناك، ونتكفل بالمصاريف هكذا!"

أما الأب الكاهن، فأبى أن يجعله يمضي، بل طلب منه أن ينتظر حتى يعود إليه. وفعلًا مشى حتى وصل إلى باب جانبي، واختفى عنا لبضعة دقائق، تزامنت مع عودة زياد خائبًا، بعد أن فشل في العثور على كانديد خارج الكاتدرائية بسبب الجموع الغفيرة التي تلاشى بينها.

عاد الأب جان لوي فرانسوا، وفي يده مظروف أبيض يحمل علامة الكاتدرائية العظيمة فوق واجهته. طلب من أمير أن يفضه أمامنا. فلمَّا فعل

أمير، نظر إلينا في ذهول، ثم تطلع نحو القس وهو لا يدري ماذا يقول. فقد كانت الخمسة آلاف يورو الراقدة بداخل المظروف كفيلة بإخراسه من شدة المفاجأة. أما الأب جان لوي فرانسوا فقال:

"لا تقل شيئًا، لكن بداخل المظروف سوف تجد بطاقة بها رقم الهاتف الخاص بي وعنواني البريدي، فلا تتردد في طلب نقود أخرى، قد تعينكم في مهمتكم المباركة!"

بينما صرنا متجهين إلى خارج الكاتدرائية، غاص كل منا في سكينة الذهول مما شهدناه لتونا. فبالنسبة إليَّ أنا شخصيًّا، أربكني أيما إرباك مصادفتنا لضالتنا كانديد للمرة الثانية، بعد أن تنبأت بها لأمير، ثم سخاء القس جان لوي فرانسوا المفاجئ. تساءلت عما يعنيه كل ذاك، فبالرغم من ترددي الأوَّلي، وشكوكي حيال الخوض في تلك المغامرة، فإن الملابسات التي مررنا بها، وخاصة أحداث هذا اليوم، جعلتني مؤمنًا بجدية مشروعنا، بل وتحديدًا مشروع أمير في البحث عن كانديد.

الحادي عشر

بعد قليل وبينما كنا ننتظر القطار الكهربائي ليحملنا مجددًا إلى أسفل التل شديد الانحدار، استفاق أمير من وقع مفاجأة الأب جان لوي فرانسوا، فتبدت الغبطة مرتسمة فوق وجهه، وأعلن بحماس:

"بهذه المناسبة السعيدة، سوف أدعوكم جميعًا على العشاء في حي مونمارتر، لنشارك الفنانين والصعاليك ـ على السواء ـ طعامهم!"

قص أمير علينا تفاصيل حواره مع الأب فرانسوا، الذي كان بالفرنسية، فلم نفهمه أنا أو سيسي، وقد فات زياد معظمه إذ كان بالخارج يبحث عن كانديد. نزلنا من عربة القطار، فترجلنا بضعة أمتار بشارع ضيّق، لا يسمح إلا بعبور سيارة واحدة، ما بين تلك السيارات المصطفة على جانبيه. ثم عبرنا متحف مونمارتر، فلفحتنا رائحة طعام شهي، تنبعث من مطعم مغربي اسمه "الغزالة"، أرغمتنا على التوقف. سألنا أمير إن كانت شهيتنا مستعدة للطعام الشمال إفريقي، فوافقنا بحماس.

جلست بجوار سيسي، وصرت أصف لها المكان، بحيطانه البيضاء المكسوة بلوحات المستشرقين من القرن الثامن عشر، وبمصابيحه النحاسية الفاطمية المشغولة، والشبيهة بمنتجات "خان الخليلي" بالقاهرة، وبوساداته المطرزة بأشكال هندسية، شبيهة بمخدات "الخيامية" عندنا. لكن زياد قطع استرسالي على نحو مفاجئ حين صاح قائلًا:

"ما زلت متعجبًا للغاية من تصرف الأب فرانسوا هذا! كيف يمنح مبلغًا ثمينًا كهذا لأناس بالكاد يعرفهم؟ ثم ما الذي دعاه لأن يثق بأمير كل هذه الثقة، فيصدق روايته اللامعقولة تلك؟ ثم كيف تحقق من أننا سوف نستخدم تلك الأموال لمواصلة البحث عن كانديد؟ بل ووعد بالمزيد منها، إذا ما عنَّ لنا أن نطلب منه في المستقبل، كأنّ تلك النقود لا تعني شيئًا بالنسبة له!"

انما درأت تساؤله سيسي، بثقة أدهشتني:

"ربما أثر فيه حديثه مع كانديد، والذي انتهى قبل لقائنا به، يا عزيزي. كلامه مع أمير كان محملًا بالتساؤلات، التي حسمَتها إجاباته، فأكدت له أننا لم نكن نعبث به! ثم إن شاء أحدهم الاحتيال على كاهن كاثوليكي، فهل يستدعي شخصية روائية ـ وكانديد بالذات، الذي كان عدوًا للكنيسة المستقرة آنذاك ـ ثم يدَّعي أنه بصدد العثور عليها؟ ألا تدرك يا زياد أنّ ذلك الشك الذي يتملك منك الآن، قد يكون هو ذاته الدافع وراء خروج كانديد من مزرعته الأناضولية، بعد أكثر من مائتي عام؟ ألا ترى وجه الشبه بين عصرنا، والعالم في زمن كانديد الأول، عند منتصف القرن الثامن عشر؛ مِن تحارُب، وتشرذم، وتباهٍ من قِبل الإنسان حيال الآخر، وانعدام الثقة بين الناس، والشر بشكل عام، والذي أدى بكانديد إلى أن تتلاطمه أمواج العالم وقتها، من شرقه إلى غربه، حتى وصل أخيرًا إلى مزرعته تلك، وحيدًا مع أسرته الصغيرة، ولكن ـ مع ذلك ـ منعزلًا عن الكون؟"

"لكن ـ ومع ذلك ـ فلقد تغير العالم منذ خلق فولتير كانديد، في قلب تلك اللوحة الكئيبة! نعم، لقد قامت الثورة في فرنسا، ثم أعقبها سقوط

المَلَكيات المتسلطة في شتى أنحاء أوروبا. وحين أتت الثورة الصناعية، تطور العالم، وتبدى الأمل في مستقبل مشرق لأبناء العبيد والمطحونين، الذين نشأ كانديد وسطهم. لكن سرعان ما انقلبت الحال مرة أخرى، في أيامنا هذه؛ فلقد عادت الحروب الفتاكة تتدانى من جديد، وتنامت بذور الشر ثانية، فأثمرت وطرحت التناحر ما بين الشعوب، وسادت الفرقة، وحتى التنابذ بين أصحاب الأديان، كل يمجد ذاته، ويحتقر الآخر، بل ويسعى إلى فنائه. ربما كان هذا كله هو سبب صحوة كانديد الثانية. لست أعلم، ولكنّ قلبي يحدثني بذلك!"

أعادنا صوت النادل إلى قلب المطعم المغربي في قلب باريس. كان شابًا أسمر البشرة، نحيل القوام، مائلًا للقِصر، لكنه شعلة نشاط، باسم الطلة، قوي الذراعين، يحمل فوقهما أعدادًا هائلة من الأطباق من المطبخ وإلينا، وبالعكس (وعكسا، منّا إلى المطبخ). كان يتحدث الفرنسية بطلاقة، بدون لكنة الأجانب المعتادة، كما أعلمنا زياد في ما بعد. سأله أمير عن طبقه المفضل، إذ كانت تجربتنا الأولى مع المطبخ المغربي، فابتسم وقال قبل أن يبتعد مسرعًا:

"الإخوة عرب؟ دعوا الأمر لي إذن! هل تأكلون الطعام الحراق؟ وهل تريدون شيئًا من النبيذ المغربي أو الفرنسي؟"

قام زياد بالترجمة، فتبادلنا نظرات سريعة، ثم أجمعنا على الموافقة على كل شروطه، فتركنا له أمر انتقاء الأطباق، وحتى نوع النبيذ. لم يكن يسير بين موائد المطعم الكاملة العدد، مثلما يسير باقي الخلق، بل قل إنه كان يجري، يرمح، بل يطير بينها، وبين المطبخ، يركض نحوه بطلبات الزبائن، ثم يهرول

منه حاملًا صحونًا متراصة، يمسك بها كالأخطبوط بين أصابعه، فيصنع منها باقتين من الأطباق، ما بين أصابعه العشرة، ثم يطير عائدًا بالأطباق الفارغة، وهكذا جيئة وذهابًا، حتى أنه كان يتزلج أحيانا من فرط السرعة، بين مائدة وأخرى، كالمتزحلقين فوق سطح الجليد. وسرعان ما وضع أمامنا زجاجة نبيذ مغربي أحمر وأربع كؤوس، ولكنه اعتذر عن تقديم النبيذ بالطريقة التقليدية، لأنه كان يعمل بمفرده تلك الليلة. كان العرق يتصبب منه وهو يعود بصحون مزركشة، تحمل بداخلها وجبة الكسكسي، الممزوجة بالخضروات، وقطع اللحم، والصلصة الحمراء، تطل منها رؤوس الفلفل اللاذعة المخيفة.

صار الكسكسي المغربي هذا، من أشهى ما أكلت منذ تركنا الإسكندرية. ثم بعد العشاء، بعد أن فرغنا من الأكل، قدم لنا الشاب المغربي إبريقا من الشاي الأخضر، وقطعًا صغيرة من الحلوى الشبيهة بالحلويات الشامية، وقال إنها هدية منه إلينا لأننا تحملناه وهو يعمل بمفرده، ثم لأنها كانت تجربتنا الأولى مع المطبخ المغربي. كانت بادرة لطيفة من قِبله. ومع الوقت، هدأت وتيرة العمل، وبدأ الزبائن ينصرفون، فجاء إلينا الشاب متسائلًا عن الطعام، وما إذا كنا تقبلناه. أغرقناه مديحا، ثم سأله زياد عن السبب في عمله بمفرده طول الأمسية. فما كان منه إلا أن سحب مقعدًا خاليًا قرب المنضدة المجاورة لنا، وجلس إلى طاولتنا. سألنا إن كنا من باريس، فأجابه زياد:

"الإخوة من مصر، والسيدة من بودابست، وأنا من بيروت."

فتهلل وجهه المغربي وهو يقول:

"أوه مصر! بلد أم كلثوم! والدي كان مجنونًا بها، ولم يكفّ عن ترديد حديثه عن رؤيته إياها فوق مسرح الإليزيه، قبل أربعين عامًا أو أكثر! ولايزال الشيخ يستمع لأغنياتها بالبيت، وهكذا فقد تعرفت أنا عليها منذ صغري. لست أنكر أني كنت أكرهها في البداية، ولكن مع الوقت صرت أحب أغانيها، وخاصة "أنت عمري" أغنيتها المفضلة لديَّ! لكن هل يتحدث الجميع الفرنسية هنا؟ لا أعتقد أنّ السيدة الحسناء تفهم الفرنسية! حسنٌ، بما أني لا أتكلم المجريَّة أيضًا، أو حتى العربية، سوف أتحدث بإنجليزيتي العرجاء!"

اغتاظ زياد لهروب دفة الحوار بعيدًا عن سؤاله، وربما لتجاهله التعليق عن بيروت، فعاود بإلحاح، ولكن بالإنجليزية هذه المرَّة:

"لكنك لم تجبني عن سرّ عملك بمفردك هكذا!"

أطرق الشاب وصمت لبرهة، ثم واجه زياد وهو يبوح بحسرة:

"أخي الأصغر تغيَّر يا صاحبي! كان ذراعي اليمنى هنا، إلى جانب أختي وزوجتي بالمطبخ. لكنه تحول بين ليلة وأخرى. لست أدري لتبدله سببًا، لكنه تذمر قبل أسبوع واحد، لأننا نقدم النبيذ بالمطعم. ظننته يسخر أوّل الأمر فضحكت منه، فالنبيذ في فرنسا كالماء في بلادكم، من مستلزمات المائدة، وليس بخمر بالمعنى الشائع!"

فوافق زياد بقوله:

"هذا صحيح، مثلما كان العرق بلبنان، والبيرة بمصر، قبل أن تتبدل الأحوال!"

فسارع المغربي:

"تمامًا! هذا هو بالضبط ما أعنيه؛ 'تتبدل الأحوال" هو ما حدث لأخي على نحو مفاجئ، وكأنه انقلب من شخص لآخر ما بين يوم وليلة. بدأ بالنبيذ، ثم لأنني أتضاحك مع الزبائن أحيانًا، بعد ذلك نهرني لأني لا أتوقف عن العمل لأصَلِّي. وحتى الأمس، حين أعلمني بأنه لن يعود للعمل معي، فظننته يمزح أولا، ولكنه بالفعل لم يأت اليوم، ثم امتنع عن الردّ على الهاتف. كأننا نهرّج هنا، أو نأتي إلى هنا لنُلهي أنفسنا، ونقتل فراغنا! أقسم بالله، سوف يكون عقابه شديدًا الليلة!"

استأذن وانصرف عنا بحجة خدمة الزبائن، ولكنّ الحزن والغضب كانا قد تملكا منه إلى أبعد الحدود.

علقت سيسي قائلة:

"أتدركَ الآن يا زياد لِمَ صدَّقنا الأب فرانسوا؟ ولِمَاذا عاد كانديد للحياة من جديد؟"

ركبنا المترو، وعدنا إلى الفندق. في الطريق إلى غرفتنا، كنت أتساءل إذا ما كانت ثمة قرابة بين صاحب الفندق السيد عدنان الأخضر، والشاب المغربي صاحب المطعم، الذي لم نسأله عن اسمه أصلًا!

نمت كما لم أنم منذ تركت منزلنا بالإسكندرية.

زارتني ثريا في الحلم، تراءت لي مبتسمة أوّلًا، وكأنها تشجعني، ثم تجهمت بعض الشيء، ثم اتسعت عيناها فزعة، وكأنها تنذرني بخطر وشيك، لكنها ما لبثت أن عادت تبتسم من جديد، وصارت تربت بحنان فوق كتفي، فأفقت.

كان ضوء الفجر الخفيت قد بدأ يتسلل عبر نافذة الغرفة، فأدركت أني لم أستفق عند منتصف الليل، كعادتي للذهاب إلى الحمَّام، فلم أحاول معاودة النوم من جديد. بل نهضت، واتجهت إلى المغسل، لكنني أدركت أن أمير كان بالداخل، فتيقنت بأن النهار قد أوشك، لذا تأهبت نفسيًّا لليوم الجديد. تعجبت أكثر، لمَّا أدركت أن آلام الركبتين التي طالما كنت أشعر بها عند استيقاظي من قبل، قد ولّت عني، لسبب أو لآخر، رغم تركي للعصا التي كنت أتكئ عليها، هناك، بالإسكندرية.

حين نزلنا إلى الدور الأرضي، استقبلنا السيد عدنان الأخضر بسحنة مكفهرة، فقلت في نفسي "يا فتاح يا عليم!". تمنى أمير له يومًا سعيدًا، ونحن نمر باتجاه البهو، في طريقنا إلى احتساء قهوة الصباح من الماكينة هناك.

ما كدنا نجتازه، حتى هب الرجل واقفًا، وصاح في أمير:

"ما بالكما أيها الرجال! ألم تعلما بالكارثة التي حدثت هنا بالأمس؟"

فنظر نحوه أمير في ريبة، ثم تلفت نحوي قائلًا:

"يسألني عن كارثة حدثت بالأمس، لا بد أن زياد أتى بعاهرة إلى الفندق أو مصيبة مشابهة!" ثم التفت مجددًا إليه، وهو يسأله في سذاجة: "لا، مع الأسف، ما الذي حدث؟"

رد عدنان بوجوم:

"أمس الخميس، وأثناء الاحتفالات بالعيد الوطني الفرنسي، بمدينة 'نيس"، حيث آلاف من الناس يملؤون طريق الكورنيش، إذا برجل يقود

حافلة بسرعة فائقة يدهس بها المارة، حتى تدخل البوليس وأرداه قتيلًا. مات أكثر من ثمانين حتى الآن، والقاتل يبدو أنه عربي الأصل!"

أصابنا الذهول.

تمالك أمير نفسه، فسأل السيد عدنان ما إذا كان زياد أو سيسي قد أفاقا بعد، أو علما بما حدث، فنفى الرجل. طلب منه أمير الاتصال بغرفتيهما، ففعل.

جلس أربعتنا نتناول القهوة ببهو الفندق واجمين.

لكن سيسي بادرت أخيرًا بقولها:

"لا يجب أن ننسى أننا هنا في مهمة، ويتحتم علينا إتمامها. فربما ما كان مجيء كانديد إلى فرنسا بالذات، إلا من أجل هذا الذي حدث بالتحديد!"

اقتنعنا بكلماتها، ونهضنا. في خلال ساعة تقريبًا، كنا في مواجهة الشارع المُفضي إلى دير الراهبات بشارع "دو باك".

العطفة المتفرعة من ذلك الشارع الرئيسي، والمؤدية إلى مدخل الدير، كانت تشبه إلى حدّ بعيد "بيت السحيمي" في القاهرة، وكنت قد زرته قبل سنوات حين ألح عليَّ الدكتور رمزي ـ خال أمير ـ أن أصحبه إليه خلال إحدى زياراته مصر. عبرنا الفناء المؤدي إلى الدير، أو الكنيسة، حيث ظهرت السيدة العذراء مريم للراهبة "كاثرين لابوري"، الشابة حينذاك، نحو منتصف القرن التاسع عشر. اكتظ بهو الكنيسة بالمصلين، الخاشعين هذه المرة. لم يكونوا سائحين، أو زوارا يتسكعون لمشاهدة لوحة هنا أو تمثال

هناك، كما في الكنائس التي زرناها حتى الآن. أعاد منظر تعبدهم الخالص من أيّ أمور دنيوية، إلى ذهني مشهد المتعبدين البوذيين في تايلاند، وماليزيا. وذكّرتني وجوههم المستبشرة، بملامح الدرويش القوني بالأناضول. لكنني، لم يسع قلبي شعورٌ برهبة غامضة، ملأ أحشائي منذ صرنا في حضن الكنيسة. تكلل المذبح بتمثال للمسيح المصلوب، ومن ورائه تمثال ضخم للسيدة العذراء مريم، وكأنها تعتلي سحابة. صرت أتفكر في وجودي بداخل نفس المكان الذي تجلت فيه السيدة العذراء يومًا ما، فامتلأت نفسي بتلك السكينة العجيبة، ووجدتني خاشعًا ـ مثل بقية الحاضرين ـ وغبت في صلاة صامتة.

أعادتني كفّ تربت برفق فوق كتفي، كما فعلت ثريا في حلم الليلة الفائتة، فالتفتُّ، وإذا بها سيسي تنبهني أنها لم تسمع صوتًا من أمير أو زياد لوقت لا بأس به، وتخشى من أن يكونا قد انصرفا. تلفت هنا وهناك، ولكني لم ألحظ أيًّا منهما بالفعل. وقفت، وأمسكت بيد سيسي، وتوجهنا إلى حيث احتشد كثيرون إلى يسار المذبح. تقدمنا ببطء حتى وصلنا، فشاهدت صندوقًا زجاجيًا، كمثل تابوت، مسجى بداخله جسد القديسة كاثرين لابوري، كما كتب بحروف ذهبية من تحته. لم أدر إن كان ذاك جسدًا محنطًا، أم تمثالًا من الشمع، متقن الصنع. أعترف بأن مشهد الجسد المسجى لم يؤثر فيّ، إذ كنت قد اعتدتُ رؤية المومياوات ـ وهي أقدم كثيرًا ـ بالمتحف المصري، الذي زرته كثيرًا خلال سفراتي المتكررة ـ وغالبًا ما كانت بصحبة الدكتور رمزي ـ إلى القاهرة.

لمحت أمير جالسًا القرفصاء في ركن الكنيسة، إلى يسار الصندوق الزجاجي. كان يبكي. ملت إلى أذن سيسي، فأخبرتها، ثم تركتها عني، وتوجهت نحوه بمفردي. انحنيت فوق رأسه، وربتُّ برفق فوق شعره، فوجل، ورفع رأسه بغتة، وهو يمسح دمعه بكفيه.

سألته مترفقًا بحاله:

"ماذا بك يا أمير يا بني؟"

أجابني وهو ينهض واقفًا:

"لست أدري، لِمَ ذكَّرتني هذه المرأة بأمي 'ماريا" رحمها الله! ربما كانت تشبهها، لست أدري، فلقد رحلت عني منذ زمن بعيد جدًا، كنت ما أزال بالمدرسة بعد، ومع ذلك أفتقدها بشدة إلى اليوم!"

وسرعان ما تمالك نفسه، ثم عدنا إلى حيث تركتُ سيسي. استفسر أمير عن زياد، فتلفتت سيسي بنظارتها السوداء حول أرجاء الكنيسة، ثم قالت:

"في الحقيقة، لست أراه في أيّ موضع!"

انفجرنا في ضحكات بريئة، كتمناها بصعوبة احترامًا لرهبة المكان وسكونه، ولخشوع المصلين. لكنّ أمير عاد فسألها:

"هلاّ بحثت لنا عن كانديد كذلك!"

فكررت سيسي نفس حركتها التمثيلية، ثم أشارت وعقَّبت:

"ثمة شخصً هناك يشبهه، ولكنني لست متأكدة من أنه هو!"

فتطلعنا بتلقائية إلى حيث كانت تشير، ومن المثير للعجب، أن وقف شاب يصلي هناك، قريب الشبه من كانديد، حتى أنّ أمير همَّ بأن يذهب إليه فعلًا، ولكنه أدرك حين أمعن فيه النظر، أنه لم يكن هو.

أما زياد، فكان قد اختفى كعادته!

خرجنا من صحن الكنيسة إلى الخارج، حتى يتسنى لنا الكلام. قلتُ على الفور:

"أنا متعجب جدًا أننا لم نلتق كانديد هنا. كل توقعاتي باءت بالفشل!"

فعقَّب أمير:

"وأنا مثلك... ولكن أين اختفى زياد؟ فلا أثر لفتيات باريس الفاتنات هنا، حيث كل رواد الدير من المسنين، وذوي الحاجة إلى المعجزات!"

علَّقت سيسي قائلة:

"ومن ذا الذي لا يحتاج إلى معجزة يا أمير، ألم يقل يسوع 'من كان منكم بلا خطية، فليرمها أوّلا بحجر"؟"

فرد أمير:

"لكن معظمنا لا يدرك ذلك يا سيسي. كل منا يشير نحو الآخر ويدعو إلى رجمه، كما فعل اليهود بالمرأة الزانية، فلقد أتوا بها ليسوع ليمتحنوه أمام الشعب الذي كان قد تجمع حوله!"

ما كان مني إلا أن قلتُ:

"يا إلهي! ما كل هذا الجدل الروحي! هل حدث كل هذا لمجرد مكوثكما لنصف ساعة بكنيسة الدير؟ يا لها من معجزة بحق!"

ما إن انتهيت، حتى حدثت معجزة أخرى، إذ ظهر زياد مهرولًا نحونا، وهو يقول وأنفاسه المتهدجة تعلو وتهبط:

"لقد رأيته... كان واقفًا يتحدث مع راهبة عند مدخل الكنيسة... التفتُّ باحثًا عن أيّ منكم، بلا طائل... فاقتربت منه لأتأكد من أنه كانديد حقًا... لكنه ـ أظنه ـ لمحني... فسارع بإنهاء حديثه معها، وتركها ثم اختفى... لكنني لم أدعه يذهب، فأسرعت أتعقبه... وبالفعل رأيته في الفناء هذا، وكان متجهًا ناحية الشارع الرئيسي... سارعت نحوه لألحق به... انعطف يمينًا، وأنا وراءه... كان يتلفت خلفه مرَّات، بينما يعجَّل من خطاه، وكأنه يحرص على ألا ألحق به... لكنني لم أيأس، بل وكدت أن أعدو عقبه... لكنه لمّا عاين إصراري، أشار إلى سيارة أجرة، ثم قفز بداخلها، واختفى... لست أدري السبب، ولكن كانديد لا يرغب في أن نعثر عليه... صرت واثقًا من هذا!"

قلت له:

"اهدأ الآن، واسكن. لقد فعلت كل ما في قدرتك!"

أما أمير فجذبه من ساعده وهو يقول:

"لابد أن نجد تلك الراهبة التي كان يتحدث معها كانديد، هيا بنا إلى الكنيسة من جديد، قبل أن تختفي هي الأخرى!"

استجاب له زياد، فتركانا واقفين عند منتصف الباحة المؤدية إلى الكنيسة. ولم أشأ أن أجرجر سيسي وراءهما إلى داخل الكنيسة من جديد. وبالفعل، لم تمرّ سوى بضع دقائق حتى عادا متهللين، وصاح أمير فينا:

"وجدها زياد! وأكدت الراهبة حديث كانديد إليها. بل وسألها عما حدث في 'نيس" وعن هؤلاء الفرنسيين العرب. فقالت إنهم مسلمون، لكنهم يكرهوننا لأننا مسيحيون! فسألها بدوره ما إذا كانت هي تحبهم، فأجابته بأنها لا تكرههم. ثم ما كان من كانديد إلا أن تساءل عن المؤمنين بحق! فجاوبته متلعثمة ـ إذ بدا وكأنه في عجلة من أمره ـ بأن بإمكانه أن يذهب ليبحث عنهم في الفاتيكان!"

قهقهت سيسي عندما أتمّ زياد كلامه، أما عن نفسي، فلقد تحيرت فعلًا من ردة فعلها، إذ كنت آمل في أن نعثر على كانديد هنا في باريس.

في واقع الأمر، بتّ أشتاق إلى بلدي مصر، وإلى الإسكندرية بصفة خاصة بالطبع. بل حتى شقتنا الصغيرة، وسريري حننت إليهما. لقد طال أمد ترحالنا، فجبنا بلادًا شتى، وأنا رجل شيخ، ومن الصعب عليَّ الاستمرار هكذا، إلى الأبد. نعم أقول إلى الأبد، إذ ـ كما قال زياد قبل قليل ـ دأب كانديد على الفرار منا. أنا لا أدَّعي فهم إصراره على الإفلات منَّا، وكأننا نضمر له شرًا. وعلى فرض أنه كان يعمد إلى ترك رسالة وراءه، تدعونا إلى معرفة خطوته التالية، فأنا لم يبق لديَّ جلد لمواصلة الرحلة الدهرية. لكن، هل يتعمد كانديد الهروب منا بحق؟ أبَعد ما حدث بالأمس في "نيس"، يستطيع أحدٌ أن يأمن إلى سلامته، خاصة حين يجد عملاقًا مثل زياد، ذا ملامح شرقية، يتتبعه وهو يخرج من حضن كنيسة في دير للراهبات، ثم يصر على ملاحقته، بل والعدو خلفه حين يحاول الإفلات منه؟ ثم إنه لم يتعرف

ولا شك على زياد، ولم يربط بينه وبين أمير مثلًا، لأنه لم يسلّم عليه يدًا بيد، أو يتحدث إليه مثلما فعل مع سيسي. كما أنه لا يُعقل أن يتهرب منا، من ناحية، ثم يصر ـ في الوقت ذاته ـ على ترك خيط لنا، من أجل اللحاق به.

ومع كل ذلك، قررت أن أعود إلى مصر.

ولكن، ماذا عن أمير؟ وكيف يتقبل فكرة تخلفي عن مصاحبته. لقد اعترف لي في أول الأمر بالإسكندرية، بأنني الوحيد القادر على مساعدته في العثور على كانديد، وإنقاذ هذا العالم من شروره. ثم إنه وزياد لا يتفقان إلا نادرًا، ولولا تدخلي في معظم الأحيان، لتعاركا ثم انفصلا منذ كنا في بانكوك. كما أني لا أشك لحظة، في أنه سوف ينهار نفسيًا ـ على الأقل ـ إذا ما واجهته برغبتي في العودة.

وفي النهاية، كيف يتأتى لي أن أرحل من هنا بمفردي، وهل أجرؤ أن أطلب من أمير أن يبتاع لي تذكرة سفر، حتى يتسنى لي أن أعود إلى الإسكندرية، بينما يواصل هو بحثه عن كانديد بمفرده؟ وهل يقبل أن يكافئني على خيانة العهد الذي قطعته على نفسي، يوم وافقت على اصطحابه في تلك الرحلة، أم إنها كانت مجرد رحلة للسياحة والاستجمام، واليوم حان الوقت للعودة؟

ثم ماذا عن سيسي؛ تلك المرأة الضريرة، التي تعاني الوحدة، وتهرب من صلف وإذلال أغلى الناس وأقربهم إليها، إنها تحتاج إلى معونتي في كل لحظة. صحيح أنها عاشت حياتها بطولها، دون اللجوء إلى خدماتي، ولكن أية حياة كانت تعيشها تلك المسكينة؟ بين الظلام الأبدي الذي سجنت بين جدرانه، والابن العاق الذي يهينها ويضربها من أجل المخدر اللعين! لا شك

في أنها تبدو أكثر سعادة الآن، مقارنة بالحال التي وجدناها عليها في ذلك اليوم القريب البعيد، أمام الفندق ببودابست. ثم إنني بدأت أكنّ لها مشاعر دافئة، لم أتخيل أني قادر على أن أكنّها لأيّ إنسان، منذ رحيل ثريا. فماذا يصير من أمرها، إذا ما قررت فجأة أن أتركها وأذهب؟ ولأيّ سبب، وبأيّ مبرر؟ وهل يكفي "الحنين" عذرًا؟

عدنا إلى الفندق، بالرغم من أن النهار لم يكن قد انتصف بعد. التزم كل منا صمتا مريبا، وعمّت المكان غمامة حزينة، كأننا نشارك في عزاء عزيز علينا.

ما إن دلفنا عبر البوابة، حتى لاقانا السيد عدنان الأخضر بفرحة، متناقضة مع الوجوم الذي كان قد استقبلنا به عند الصباح؛ حتى أنه دار حول مكتب الاستقبال قائلًا بالفرنسية:

"أين كنتم يا أصدقائي؟ وماذا عن هاتفك يا زياد، لقد اتصلت بك نحو خمس مرات دون جدوى!"

فأجابه زياد:

"كنا في زيارة دير الراهبات بشارع 'دو باك"، وبالفعل ماتت بطارية تليفوني، إذ لم أشحنه ليلة أمس! ولكن لماذا حاولت..."

قاطعه عدنان بقوله:

"قبل نحو نصف ساعة، وبينما كنت أصلي صلاة العصر، هنا خلف المكتب..." وأشار بيده إلى المكان، ثم أكمل بعجالة: "إذا بشاب يقف أمام المكتب، ثم ينحني من فوقه ليتابعني في سجودي وقيامي، حتى انتهيت.

سألني الشاب عما كنت أفعله، فارتبت منه، وخاصة بعد ما حدث بالأمس في 'نيس"، فقلت له كنت أصَلِّي!" سكت برهة ليلتقط أنفاسه، ثم أكمل بالانفعال نفسه: "سألني الشاب عن ديانتي، فزاد شكي إذ لا يمكن ألا يكون قد رأى مسلمًا يصلِّي من قبل! لكني أجبته بهدوء: مسلم. لكنه قال كالمعتذر بأنه كان صديقًا لدرويش مسلم من الأناضول لعدة سنوات، ولم يشاهده يصلِّي مثلي مطلقًا!" تبادل عدنان نظرات تعجب مع زياد، ثم استمر: "قلت له إني لست أعرف السبب، فسألني عندها عن السيد أمير!" وهنا اتجه السيد عدنان الأخضر نحو أمير، موجهًا حديثه إليه: "قلت له إنكم خرجتم منذ الصباح، فسألني إن كنت أعرف رقم هاتفك، فأجبته لا، بل صديقه السيد زياد، فطلب مني أن أحاول أن أطلبك." ثم استدار ناحية زياد، وأكمل: "بالطبع لم تردّ، فحثني أن أحاول عدة مرات، ثم في نهاية الأمر، طلب مني أن أعيره ورقة وقلما، وترك لكم هذه الرسالة." سحب ورقة من درج أمامه، وأعطاها لأمير.

أخذ أمير الورقة، وقام هو وزياد بترجمة حديث السيد عدنان الأخضر، بينما كنا نتجه إلى بهو الفندق، حيث جلسنا حول أمير، الذي بدأ في ترجمة الرسالة المكتوبة بالفرنسية فوق الورقة:

"أصدقائي الأعزاء، كم كنت أودّ لقاءكم هنا في باريس، لكنني للأسف لم أتمكن من ذلك. على أيِّ حال، فأنا أدعوكم للقائي بعد غد في 'الكابيلا سيستينا" بالفاتيكان في روما. لكنني أنصحكم بألا تتركوا باريس قبل قضاء يومٍ بمتحف اللوفر... إمضاء... كانديد!"

رفع أمير عينيه البنيّتين نحونا وهو يكاد أن يدمع من شدة التأثر، وسأل:

"وما هي تلك 'الكابيلا سيستينا" يا ترى؟"

فأسرعت سيسي تجيبه بالإنجليزية المصحوبة باللكنة المجرية:

"هي الـ 'سيستين شابل" الكائنة في المقر البابوي في روما!"

فعلقتُ أنا:

"إذن فكيف لنا أن ندخل إلى المقر البابوي، وذلك المكان؟"

فرد زياد ضاحكًا:

"يا سيد عاطف 'سيستين شابل" هو متحف عام بداخل الفاتيكان. ألم تسمع بلوحة "الخلق" لمايكل أنجلو التي رسمها بسقفها؟"

"نعم... نعم... بالطبع أعرفها، ولكني لم أدرك الاسم، لأوّل وهلة."

وهنا توتر أمير، وارتبك، فاندفع يقول مدافعًا عني:

"وأنت يا زياد، ألم تسمع عن اللياقة، ألم تتعلم آداب الحديث مع من هم أكبر منك سنًا ومقامًا؟ وهب أنه لا يعرف اسم المكان، فأيّ عيب في ذلك؟، 'سيستين شابل" أو الكابيلا سيستينا" ليست بالأسماء الدارجة عندنا... سيستين شابل... كابيللا سيستينا... سيستين شابل... كابيللا سيستينا... سيستينا... سيستينا... ستينا... تينا... تينا...تينا..."

ثم بدأ يتلعثم، وانطلقت الكلمات تتواتر من فمه كالرصاصات، وبتلقائية رفع الورقة نحو ثغره محاولًا أن يكتم تلك الكلمات، وبطريقة ما، أن يكبتها ويعيق خروجها المخزي، فصار يكمش الورقة ويحشرها حشرًا داخل فيه.

وفي لمح البصر، هببت نحوه محتضنًا إياه، وأقمته معتذرا لسيسي وزياد. أخرجت الورقة برفق من فمه، إذ خشيت أن تخنقه، ثم صعدنا معًا إلى غرفتنا بالطابق الثاني، حيث هدأت من روعه. أعطيته حبة من دوائه، وجرعة ماء، ثم أجلسته فوق السرير أوّلًا، وبعد لحظات رفعت رجليه، وطلبت منه أن يستلقي، ويغمض عينيه. ثم بدأ يهدأ بالتدريج، فانتظمت أنفاسه، حتى بدا لي وكأنه نام. أمضيت الليلة بطولها عند حافة سريره، أرقبه. لم يستفق من جديد، وتمثلت صورة طفل، أو طيف ملاك فوق وجهه، بينما ظللت أتابع كل خلجة من خلجاته. أخيرًا، ومع الساعات الأولى من الفجر، تملك مني التعب، فنمت.

بالفعل، استجبنا لنصيحة كانديد، فقضينا يومًا كاملًا بمتحف اللوفر، بعد أن ودَّعنا السيد عدنان الأخضر، عند صباح اليوم التالي.

استقبلتنا ساحة المتحف أوّلًا بالهرم الزجاجي الأشهر. في الداخل تجولنا في رحلة عبر الزمن، متتبعين فنون الإنسانية منذ أصولها المصرية عند ضفتي النيل، مرورًا بالحضارات السومرية، والبابلية، والفارسية، حتى الحقبة الإغريقية، ثم الرومانية، وحتى الإسلامية. ثم طالعتنا فنون القرون الوسطى في أوروبا، فشهدنا لوحة "الموناليزا" لليوناردو دافنشي، التي فوجئت بصغر حجمها. ولكنني انبهرت بلوحات رافاييل، ومايكل أنجلو. ثم تتبعنا الفنانين الفرنسيين من أمثال دافيد، ولوحته الشهيرة "تتويج نابوليون"، ودي لا كروا، ولوحة الثورة الفرنسية المعروفة "الحرية تقود الشعب". تبين لي عند

نهاية اليوم، كم كانت نصيحة كانديد ثمينة، فما كان ينبغي لرحلة باريس أن تكتمل دون زيارة اللوفر.

بعد أن خرجنا من المتحف، ورغم الإحساس بالتعب الذي تملك مني، فإن أمير وسيسي قررا تقديم وصلة من فنونهما، في مقابل بضع قطع معدنية من فئة اليورو، تصلصل في صندوق الكمان المفتوح! لكنّ جوًّا حزينًا كان قد ساد جراء ما حدث في "نيس"، فلم يتحمس السياح لاعتبار فنّ أمير، ولا عزف سيسي، فلم يجمعا إلا القليل من المال.

ومع حلول المساء، اتجهنا نحو محطة القطار لنستعد للسفر إلى روما. لكننا فوجئنا بكم من رجال الشرطة، يتفحصون أوراق المسافرين بدقة وحزم. كان ذلك بالطبع من تبعات ما حدث في "نيس" فتفهمنا الأمر من جهتنا، إلا ـ بالطبع ـ زياد الذي شرع يتذمر بسبب خوفه من أن يفوتنا القطار. تدخلتُ على الفور، فأمرته في حسم بأن يصمت، فانصاع. حين تفحص الشرطي جوازات سفرنا ـ في ما عدا سيسي ـ أدرك أننا شرق أوسطيون، وجئنا من تركيا، قبل أن نذهب إلى شرق آسيا، ونصل بعدها إلى عدة دول أوروبية، خلال مدة وجيزة، فطلب منا بكل أدب أن ننتحي جانبا حتى حضرت شرطية أخرى يبدو أن كانت رئيسته. سألتنا عن سر ترحالنا المريب هذا. ردّ أمير نيابة عن ثلاثتنا، فاختار أن يصارحها بحقيقة رحلتنا، كما هي. آثر ألا يسعى لاختلاق حكاية، قد تبدو أكثر منطقية، لئلا يتلعثم أحدنا فنثير شكوكًا حولنا، نحن في غنى عنها. بالطبع بدت الدهشة على وجه الشرطية،

لكنها ارتأت صدقه رغم غرابة ما كان يبوح به. لكن بسبب تدافع الناس وكثافة الزحام ورائنا، وربما لتقدمنا في العمر أيضا، سيسي وأنا، لعل ذلك كله هو الذي جعل الشرطية ترد جوازات السفر وتدعونا للمرور، متمنية لنا بابتسامة مصطنعة ـ لكن لطيفة ـ سفرة سعيدة.

الثاني عشر

قام زياد بإجراء مكالمة مع زوجته ليطمئنها على سلامتنا، فبدا أنه كان قد أعلمها مسبقًا بسفرتنا إلى فرنسا، وبالتالي ألَمَّت بما حدث في نيس.

استقللنا القطار في صمت، غير مصدقين أنهم سمحوا لنا بالسفر أخيرًا، واقتنعوا بأننا في مهمة للبحث عن كانديد، وفي قلب فرنسا، بلد فولتير!

كنا ـ هذه المرة بالذات ـ على موعد معه في الـ'سيستين شابل"! نعم، موعد قاطع، عيَّنه هو، ووصّى به مباشرة، وليس مجرد تعقب لوهم، أو تحقيق لحلم، أو إدراكٍ لخيال. وبعفوية، وجدتني أمد يدي، لأُخرج الورقة التي تركها لنا كانديد، وكاد أمير أن يتلفها، وأوشكت أن تتلفه، بعد أن حشرها حشرًا داخل فمه.

راح الكل في سبات عميق منذ تحرك القطار. بينما ظللتُ أنا يقظًا، أتأمل الورقة التي طحنها أمير، قبل أن أخلصها من جوف ثغره. فتحت ضياء المصباح الرفيع، المثبت بالسقف من فوقي، رحت أتأملها.

ها هي الرسالة بين يديّ، أتفحصها كدليل مادي منظور، مدوَّن بخط يد كانديد، وموقعة باسمه. لا مجال الآن للجدل حول حقيقة وجود كانديد من عدمها، أو صحة شهادة من شهد، عن لقائه ومشاهدته، أو الحديث معه. بل ولم تترك لي كلماته المدونة حيزًا ـ ولو ضئيلا ـ للشك في صحة نظرية أمير،

تلك التي طرحها عليَّ قبل بضعة أشهر. لكن السؤال الذي يلح عليَّ الآن هو: "هل عاد كانديد إلى الحياة في عصرنا هذا، لإنقاذ العالم من شروره كما يدَّعي أمير؟ أم إنه بات موجودًا منذ خلقه الفرنسي فولتير، قبل مائتين وخمسين سنة، وظل عبر كل الأزمنة والعصور يزرع حديقته، أو يتجول بين شتى بقاع الأرض، وإن غاب عن الإنسانية أن تدرك كينونته بيننا من قبل؟ وفي هذه الحالة، فما المانع أن يكون بيننا عشرات بل مئات من الشخصيات الروائية؟ هل يمكننا أن نجد بيننا اليوم دون كيشوت، بطل رواية سرفانتس؟ وهل ما يزال يحارب طواحين الهواء، وهو الذي سبق مولد كانديد بنحو مائة عام؟ أو هل ترى بات سيرانو دي برجيراك، شخصية إدمون روستاند، يتجول بيننا منذ القرن التاسع عشر، وكان قد عاش قبل كانديد بأكثر من ثلاثمائة عام؟ ربما كان أمير ميكيافيللي يهيم بيننا أيضًا، أو لعل الشابة أنتيجون نفسها تسير بيننا وهي شخصية سوفوكليس في المسرحية التي كتبها أربعة قرون قبل الميلاد؟ فما المانع، إذا صار لدينا دليل على وجود كانديد، أن نجد هؤلاء، ومئات غيرهم بيننا؟ هذا طبعًا بعد غياب الأبطال التراجيديين الذين قتلهم مؤلفوهم من أمثال هاملت، وعطيل، والملك لير... "

"السؤال الذي ينتابني الآن، هو بخصوص دعوة كانديد لنا إلى أن نقضي يومًا بمتحف اللوفر، قبل أن نلقاه في روما. لماذا؟ هل كانت دعوة إلى الترفيه والراحة، ولو ليوم واحد، لالتقاط الأنفاس؟ هل قصد بهذه الدعوة أن يتيح لنا ـ مثلًا ـ أن نلقي نظرة عابرة على تاريخ البشرية برمته، عن طريق تطور الفنون، كما رتب المتحف العريق عرض مقتنياته؟ بل، وهل كان يرسل لنا

رسالة مستترة لم نعها بعد؟ لابد أن أطرح هذا التساؤل على سيسي بالذات، فهي تتمتع ببصيرة مدهشة، أو على أمير، أو حتى زياد، لعلهم يعينوني على إيجاد إجابة. ثم لماذا استدعانا كانديد للقائه في كنيسة 'سيستين" في روما بالذات؟ ولِمَ لم يسألنا أن نقابله بمتحف اللوفر مثلًا، وهو الذي أشار إلينا أن نزوره، بِمَا يجزم بأهميته لديه؟ أما كان أجدر به أن يلقانا اليوم، هنا في قلب باريس، في رحاب هذا المقام الأصيل، دون الحاجة إلى سفر جديد، وتفتيش وتحقيق من قِبل أفراد شرطة باريس؟ لا شك لديَّ الآن في أنه يسعى إلى لقائنا، ولكن مغزى إشاراته ما يزال يغمض عليَّ."

"دعوى زياد بأنه يتهرب منا، أو أنه يتنصل من لقائنا، لم يعد لها مقام الآن. والدليل الجليُّ يكمن في طيات هذه الرسالة التي تركها لنا. فالسيد عدنان الأخضر لم يعرف بأيّ حال أنّ زيارتنا لباريس، كانت لغرض البحث عن كانديد، ومع ذلك فهو الذي بادر إلى إعلامنا بزيارته لنا بالفندق، وتركه هذه الرسالة لنا. بل ولم تبدُ عليه إمارة واحدة، تشي بمعرفته بشخصية كانديد الروائية بالأساس، حتى بعد أن قدّم كانديد نفسه إليه، بينما هو يسأل عنا. لذلك أقول إنه من المستحيل أن يكون السيد عدنان قد انتحل قصة حضور كانديد ليطلب لقاءنا. إذن، فلا أثر لاشتباه، أو لافتعال، أو لكذب، أو حتى مجرد ريبة في أصالة تلك الرسالة، وكونها ـ كما يحمل توقيعها ـ موجهة من كانديد شخصيًّا إلينا. كما إن هذه الرسالة تحمل دعوة صريحة منه إلى لقائنا في روما، بل وحدد فيها المكان والزمان اللذين يبتغي لمقابلتنا أن تجري فيهما. فهو إذا لا يسعى إلى التملص من لقيانا. فلقد كان باستطاعته أن يترك

باريس، وهو مدرك تمامًا من أننا سوف نتعقبه إلى روما، في كل الأحوال، بعد تحاورنا مع الراهبة في الدير. لكنه رمى بهذه الرسالة، أن يعلن عن تغيير جذري في رحلة بحثنا عنه. لم نعد نمارس لعبة القط والفأر، لن نطارد كانديد هنا أو هناك بعد البارحة، بل لقد صرنا أصدقاء له، يدعونا إلى أن نلتقي به، ويرحب بلقائنا، بل ويناشدنا أن نستمتع بالرحلة في باريس، حتى يحين موعد ذاك اللقاء الموعود في روما!"

استرسلت في تلك الأفكار، حتى تملك مني تعب ليلتين متتاليتين من الأرق، فغلبني النوم أخيرا، واستجبت له مرحبا.

استفقت على أصوات أمير وزياد، تنبهني إلى اقتراب موعد وصولنا إلى روما. بحثت بين كفيَّ، فاكتشفت على الفور ضياع الورقة – الرسالة التي تركها لنا كانديد ـ من بين يديّ، حين غفوت. انتفضت من مكاني، وفحصت بعناية كل جيوبي. صرت أبحث عنها فوق المقعد، وأسفله، وفي المساحة الضئيلة بين المقعدين، حتى وجدت أن وسادة المقعد وقد انخلعت عن مكانها بين يديّ، فبحثت تحتها. كل ذاك ظل بلا جدوى، فلم أعثر لها على أثر! أثارت حركتي فضول أمير، فاقترب مني، وتبعه زياد، مستعلمين عما أفتش عنه بيأس هكذا، فقلت:

"الرسالة!"

فسأل أمير على الفور:

"أيّ رسالة؟"

"الرسالة التي تركها لنا كانديد..."

"ولكنني أتلفتها بالأمس، هل نسيت؟"

"لا لم تفسخها كلية، بل انتزعتها أنا من فيك، ثم احتفظت بها. وقد ظللت أعاينها لساعات خلال رحلتنا، هنا بالقطار، الليلة الفائتة. لا بد أنها سقطت مني هنا أو هناك حين غفوت!"

هبّ أمير، وساعده زياد في فحص المقعد من جديد، وقلبنا المكان من جديد رأسا على عقب، لكن بلا فائدة. لقد اختفت الرسالة!

ظلت سيسي تغط في سباتها، رغم اشتداد الحركة حول مقعدي المجاور لها. شككت للحظة، في أن تكون هي قد سحبتها من بين يديّ حين غفوت، لكني استبعدت ذاك الاحتمال، أوّلًا لسبب عماها؛ إذ كيف لها أن تدرك أنّ الورقة بحوزتي، إن لم أكن أعلمتها بذلك، وأنا لم أفعل. وثانيًا، حتى لو ارتابت في وجود شيء معي، ودفعها الفضول إلى أن تنتزعه من بين أصابعي، فلابد لها وهي الكفيفة، أن تلمس يدي أو أصابعي، أثناء المحاولة، ولو حدث ذلك لكنت استيقظت على الفور. ثم ما الذي يدفع امرأة بهذه الفطنة، إلى أخذ ورقة من بين يديّ، لن تقدر على قراءتها أصلًا. كما إنها تدرك تمامًا درجة إفلاسي، فلن يلوح لها أن أوراقًا نقدية ـ مثلًا ـ كانت بمعيتي، أنا بالذات، حتى لو افترضنا أنها كانت تسعى إلى السرقة!

في نهاية الأمر وصلنا إلى روما، دون أن نجد للورقة المراوغة أثرًا في أيّ مكان.

قررت أن أنحّي أمر الورقة جانبًا، فأضفته إلى رزمة الأشياء التي فشلت طوال رحلتنا، في أن أجد لها تفسيرًا منطقيًا. شرعت أعدل من هندامي، وأسيطر على اضطرابات أفكاري المشتتة، وأنا أستعد للقائي الأول بالعاصمة

الإيطالية. لقد غادر القطار باريس في المساء، في الساعة السابعة والربع، ووصلنا صباح اليوم التالي في تمام العاشرة إلا ثلثا.

لم يكن لدى أيّ منا معرفة سابقة بأماكن الإقامة في المدينة الصاخبة. عند مغادرة (النزول من) القطار، وجدنا أنفسنا داخل مبنى أشبه بالمطار منه إلى محطة قطار؛ فالسلالم المتحركة، والعواميد الفولاذية اللامعة، وشواهد السفر والوصول الإلكترونية، والواجهات الزجاجية، ومحلات الأزياء، والأحذية، والإكسسوار، والطعام، توحي كلها بالسوق الحرة في أي مطار فخيم مررنا به. ولكن، ما إن غادرنا إلى الخارج، حتى تخيلت لأول وهلة أننا نزلنا بميدان "رمسيس" في القاهرة.

ساحة واسعة مكتظة بالناس الذين يشبهوننا إلى حد بعيد، فهم يتحدثون بصوت مرتفع مثلنا، ويتضاحكون دائمًا. تلك الساحة يحدّها عند مرمى البصر شارع ومبان وحركة دؤوب، وسيارات أجرة تقف بغير نظام، يتخاطف سائقوها الزبائن. لكني ارتعدت لرؤية رجال يرتدون زيّ الجنود، وكانوا ممشوقي القوام، يحف رؤوسهم الحليقة كاب أحمر مائل إلى جانب، ويقفون قابضين ببنادقهم الآلية، على أهبة الاستعداد لمواجهة أيّ خطر. درجة الحرارة المرتفعة، ونسبة الرطوبة كذلك، والشوارع المزدحمة، والسيارات والحافلات يعج بها الطريق، كلها ذكّرتني ببلدي.

الإشكال كان في جهلنا بأيّ مكان يمكننا أن نقيم به، حتى نضع حاجياتنا على الأقل، ثم نبدأ رحلتنا إلى كنيسة "سيستين" تلك!

اتجهنا نحو محطات الأتوبيس، فوجدنا ضالتنا. إعلانات عن فنادق مخفضة الأثمان، وغرف ببيوت، تشمل خدماتها الإفطار، ووقفت شابة ترتدي تنورة كحليّة اللون ضيقة، وقميصا أبيض هفهافا، تحضننا بابتسامة إيطالية واسعة. بالطبع، اتجه زياد نحوها، وتحدث معها بالإنجليزية، ولحسن الحظ جاوبته، إنما بلكنة إيطالية غليظة، ولكن مفهومة.

انتهى بنا الحال إلى الإقامة بفندق يطل على واحد من الشوارع الرئيسية، بوسط المدينة، أظنه كان اسمه "إنترناسيونالي" أو شيء من هذا القبيل. كانت الغرفة ضيقة للغاية، لكن الزخرف واختيار الألوان أضفيا على المكان ككل روحا مرحة، جعلت الإقامة به مبهجة. وضعنا حاجياتنا، ثم سحبنا خريطة من موظف الاستقبال الأنيق، واتجهنا إلى أقرب مطعم بيتزا.

بينما كنا نقضم الشرائح الرقيقة، إذ طرحت السؤال الذي أرّقني خلال رحلة القطار بالأمس:

"لماذا حثّنا كانديد على التوجه نحو متحف اللوفر، قبل أن نغادر باريس إلى روما؟ ولماذا لم يلقنا بفرنسا فيكفنا مشقة السفر؟"

تبدت الدهشة على وجوههم، إذ لم يخطر ذلك التساؤل على بال أيّ منهم. لكن ـ وكما توقعت ـ ازدردت سيسي قضمتها في عجالة، ثم أجابت:

"لسببين ـ في رأيي؛ أوّلا لأن الراهبة التي التقاها في دير الراهبات، أشارت إليه بأن يبحث عن المؤمنين الحقيقيين بالفاتيكان، فكان عليه أن يترك باريس

ويأتي إلى هنا، وثانيًا لأني قرأت الكثير عن الـ 'سيستين تشابل"، فهي مكان خاص جدًا، حقق فيها الانسان أهم إنجازات عصر النهضة، بل ويعتبرها البعض، قمة مآثر الفنون بوجه عام، فبها لوحة "خلق آدم" التي تعد أحد أهم أعمال "مايكل أنجلو"، فأراد كانديد أن نلقاه لأوّل مرَّة، في رحاب ذلك الصرح الخالد."

نظر أمير وزياد نحوها مندهشَين، غير مصدّقين لمدى بصيرة تلك المرأة. وفي لحظة واحدة، كان أمير ينحّي عنه ما تبقى من شريحة البيتزا من أمامه، ثم يقف معلنًا:

"علينا أن نذهب فورًا! يجب أن نكون الآن داخل كنيسة الـ'سيستين". لا تنسوا أنّ كانديد جاء إلى هنا يومًا كاملًا قبلنا، وربما ـ بل أنا متأكد ـ من أنه قصد الكنيسة تلك منذ الصباح الباكر!"

كالعادة أثمر أسلوب أمير الآمر، فانتهينا من طعامنا خلال لحظات. التففنا حول الخريطة، فأشار زياد إلى بعض المعالم، ثم سرنا نحو الـ "كوليزيام" الشهير. انبهرت بضخامته، ومنّيت نفسي بزيارته في وقت لاحق، وإن لم أجرؤ أن أتفوّه بذلك، لئلا أستثير أمير. سرعان ما صرنا داخل حافلة، متجهين نحو متحف الفاتيكان، شغوفين بلقاء كانديد الموعود.

في الواقع، كانت الرحلة القصيرة بمثابة استعراض لمعالم روما الفاتنة؛ كمّ هائل من بنايات وكنائس، لم تكن سوى معرض لفنون العمارة الباهرة

الحسن. تطلعت نحو أمير، فوجدته يشاركني الانبهار. تذكرت أنه خريج كلية الفنون الجميلة، فخمنت أن يكون تأثير ذلك المعمار الآسر مضاعفًا لديه.

حين وصلنا، فوجئنا بأنّ متحف الفاتيكان كان في الواقع عدة متاحف، ولم تكن الـ "سيستين تشابل" سوى جزء منه. لكنّ الصدمة الكبرى كانت في طول طوابير الزوار، لابتياع تذاكر الدخول. تفتّق ذهن زياد عن فكرة أن يذهب مباشرة إلى الحارس الواقف بجانب المدخل، ويسأله إن كان ثمة مكان مخصص للمعوقين، لأننا كنا برفقة سيسي. وبالفعل خلال بضع دقائق فقط، كنا داخل المتحف، في طريقنا نحو الكنيسة الشهيرة.

تخطينا طبعًا متاحف الفاتيكان المختلفة، تلك المتاحف المخصصة للتماثيل، وللوحات عظماء عصر النهضة كمايكل أنجلو، ورافاييل، وليوناردو دافنشي، وكارافاجيو، وغيرهم ـ في حينها على الأقل ـ ثم اتجهنا مباشرة إلى كنيسة الـ "سيستين تشابل" حيث من المفترض أن يلقانا كانديد، حسب الاتفاق.

لكن ما إن دلفنا إلى القاعة المؤدية إلى الكنيسة، حتى انتبهنا إلى إشكالية جديدة؛ فلدواعي النظام، ولتجنب التزاحم داخل الكنيسة، أبقوا حارسًا أمام الباب الموصد المفضي إلى باحة الـ "سيستين تشابل"، فلبثنا منتظرين خارجه، حتى انتهت المجموعة التي سبقتنا من مشاهدة الكنيسة والطواف حول جدرانها. ثم فتح الحارس البوابة، فإذا ببهو الكنيسة خال تماما، حتى

ملأناه نحن، ثم أوصدوا الباب خلفنا، وهكذا... واكتشفنا أيضًا أن باب الخروج كان عند الناحية المقابلة من الكنيسة. إذن فلقد تبينا استحالة لقاء كانديد ها هنا، إذ الجميع في حركة دؤوبة، ما بين الدخول والخروج من البهو!

أما عن الـ "سيستين تشابل"، ففاق حسنها وزهوها كل التصورات التي كنت قد أعددتها في ذهني، من بعد مطالعتي للكتيبات التي وزعوها علينا عند مدخل المتحف. تعجبت من معلومة تفيد بأنها بنيت بنفس المقاييس المذكورة في الكتاب المقدس لهيكل الملك سليمان. جدرانها كانت غاصة بالأعمال الفنية الباهرة التي تصور مشاهد من سفر التكوين في ناحية، ومن حياة السيد المسيح من الناحية الأخرى، وهي مشاهد مستوحاة من كتابي العهد القديم والجديد من الإنجيل المقدس. كما تتدلى أبسطة حائط مرسومة متفرقة، تغطيها نقوش لستائر من ذهب وفضة. أما السقف الأسطواني البالغ الارتفاع، فهو مقسَّم لعدة مربعات ومستطيلات ومثلثات، رسمها مايكل أنجلو بالألوان الجصية (الفرسكو)، بداية من لوحة خلق آدم الشهيرة، ثم آدم وحواء، ثم فلك نوح والفيضان، مرورًا بموسى ونخبة من الرسل والأنبياء، وحتى لوحة يوم الحساب الأخير التي تصل ما بين السقف وهيكل الكنيسة. شعرت لرؤية سقف كنيسة الـ "سيستين" أنّ الله قد أرسل نفحة من روحه، وزرعها في عقل الفنان الإيطالي البارع ويده، ليسجل للتاريخ، عبر

الأجيال المتعاقبة، قصة الخلق، وسر علاقة الله بالإنسان منذ الأزل، ومدى قدرة الخالق والمخلوق على السواء.

أما عن كانديد، فلم يكن من الممكن أن نجده هنا، داخل هذه الكنيسة بالذات.

بغتني خاطرٌ بأنني نسيت سيسي في خضم ذلك الجمال. تلفَّت حولي، ولكن لم ألمحها. شهدت أمير وزياد بين الجمهور المتلاحم، ولكنني لم أجد سيسي لأوّل وهلة. بيد أنني أعدت البحث بتأن، إذ كنا على وشك إخلاء القاعة، لتبدأ دورة جديدة، وحشد مستحدث يملأ فراغ القاعة من بعد أن نخليها. هناك، عن بعد، لمحتها ملتصقة، في حالة من الرعب، بالجدار الجنوبي للكنيسة، لا تدري معنى لوجودها وسط ذاك الجمع المتلاصق، يدفعونها دفعا هنا أو هناك، دون أن تدري لأيٍّ من ذاك سببًا. لكنني لم أجد سبيلًا للمرور عكس التيار المتدفق، لكي أتوجه نحوها. أقصى ما استطعت أن أفعله، هو أن أنادي زياد المتعملق فوق رؤوس الحشد، وأهتف به أن ينقذ سيسي، مشيرًا نحو مكانها، بجوار الحائط وراءنا.

وبالفعل تمكن زياد من شق مسار له، باتجاه الجدار أوّلا، ثم للخلف، معوِّلا على ضخامته وقوة بنيانه، حتى وصل إلى المسكينة التي باتت ترتجف من قسوة الموقف الذي وجدت نفسها تجابهه وحدها.

تجمّعنا كلنا في القاعة الملحقة ببوابة الخروج. صارت سيسي تبكي، لأوّل مرة منذ التقينا بها في بودابست. أخذت أهدّئ من روعها، وأعتذر لها عن تركها خلفنا، وتفكرت أن أصف لها مقدار الجمال الذي صرفني عن الاهتمام بها، ولكني تداركت نفسي، لئلا أضيف إلى حزنها، أساها لعجز بصرها.

على أيّ حال، استعادت سيسي جأشها بعد لحظات، فتماسكَت، وكفَّت عن النحيب. ولدهشتي، اقتربت مني متسائلة ما إذا كانت "سيستين تشابل" تستحق كل هذا العناء! فأومأت بالإيجاب، لكني أدركت أنها لم تر إيماءتي، فقلت:

"ما لم تره عين، وما لم يخطر على قلب بشر، هو ما شهدناه في تلك الكنيسة، يا سيسي. لو قُدِّر لي أن أفقد بصري الآن، في هذه اللحظة بالذات، فحسبي أني رأيت الـ 'سيستين تشابل'." صمتُّ لحظة وأنا أتفكر، ثم وجدتني أقول: "ولكن، كيف أستطيع مساعدتك عندها؟ الكتاب يقول: 'إِنْ كَانَ أَعْمَى يَقُودُ أَعْمَى يَسْقُطَانِ كِلاَهُمَا فِي حُفْرَةٍ" إذن فلابد أن أبصر من أجلك يا سيسي. يجب ألا نسقط أبدًا. أنا آسف حقًا، وأعترف بكوني مقصرا في حقك، لأني تركتك وحدك داخل الكنيسة، وأعدك ألا يتكرر هذا الأمر مجددًا!"

وهنا سأل أمير مستغيثًا:

"ماذا عن كانديد؟ لم نجده حسب الاتفاق الذي تركه لنا في رسالته. وليست لدينا أدنى فكرة عما يمكن أن نفعل الآن!"

خشيت من أن يتطور الاضطراب بأمير، فتجتاحه الأزمة النفسية المعهودة، فيفقد السيطرة، ويهتاج ويهذي بين ذلك الجمع الغفير. لكنني ـ مع ذلك ـ لم أجد إجابة عن سؤاله. تطلعت نحو سيسي، وزياد ملتمسا أن يبادر أحدهما برأي سديد، أو فكرة صائبة.

وما هي إلا أن انطلقت سيسي كعادتها، تفنّد الأمر بصوت عال:

"موقفنا شبيه جدًا بموقف كانديد، أيها الأصدقاء. فهو اعتزم لقاءنا بصحن الكنيسة، كما نشدنا أن نلقاه هناك بالضبط. ولقد فوجئ هو مثلنا تمامًا، باستحالة ذلك لسبب تدفق حشود السائحين. إذن فالسؤال هو ماذا فعل كانديد، أو ماذا سوف يفعل، إن كان لم يأت بعد؟"

تنهد أمير، مُبديا بعض الارتياح لكلماتها. لمحته فرحبت بالفرج، وشكرت سيسي في نفسي.

عقد زياد ذراعيه أمامه، وهو يتساءل:

"لو كان كانديد شخصية طبيعية، أعني لو كان شخصًا معاصرا مثل أيّ منا، لتيسر الأمر. إذا تواعدت مع صديق لي على اللقاء هنا، ثم تعذَّر ذلك اللقاء لأيّ سبب كان، فمن البديهي أن أتوجه إلى المطعم الموجود بداخل كل متحف، وأنتظر حتى ألقاه هناك. ولكن هل يفكر كانديد مثلنا، أو بالحريّ هل كان أناس القرن الثامن عشر يفكرون هكذا؟"

فعقبت سيسي على الفور:

"على العموم، لا مجال هنا لمناقشة صحة تلك النظرية من عدمها، فليس

أمامنا بالفعل سوى أن نتجه نحو المطعم، وهناك سيتضح كل شيء، وسوف نتبين إن كان للمنطق سِنّ، أم إن المنطق واحد عبر الزمن!"

أضفت أنا:

"إذن، فلتبحث عن المطعم فوق الخريطة يا زياد..."

وبالفعل فرد زياد الخريطة أمامه، وشرع يدور حول نفسه ليتخيل موضعنا، بالنسبة إلى الكنيسة التي أصبحت خلفنا. التصق أمير به وصار يوجهه كذلك، ثم قال زياد أخيرًا:

"لو سرنا هكذا..." وأشار بيده للأمام، ثم أكمل: "وعند نهاية الممر، نتجه يسارا أوّلا، ثم يمينا، سوف نجد المطعم، وهو ليس بعيدًا عن كاتدرائية القديس بطرس، مقبرته، وأكبر كاتدرائية في العالم، فربما نعثر على صديقنا الزئبقي هناك، فهو مغرم بالكاتدرائيات!"

وكعادته ثار أمير من سخرية زياد، إذ بات متأكدًا الآن من أنّ كانديد كان يتجنب لقاءنا بسبب زياد.

ورغم أن النهار لم يكن قد انتصف بعد، فإن خطواتنا كانت ثقيلة، وكأننا نخشى مغبة أن نصل إلى المطعم، ولا نجد ضالتنا.

الثالث عشر

ما إن دلفنا إلى قاعة الطعام، حتى وجدناها مكتظة بالزائرين الملتفين حول المناضد الدائرية الصغيرة، وكانوا يقضمون شرائح البيتزا، وشطائر الجبن واللحم المقدد، ويجرعون زجاجات البيرة المثلجة، والمياه الغازية. تصاعدت ضوضاء محبّبة، بعد السكون المطبق الذي كان قد لفّ قاعات المتحف الأولى التي مررنا بها. بل إنّ السكينة قد سادت داخل الـ "سيستين تشابل" نفسها، وكانت مكتظة بالزوار. كأننا حلَّقنا في الفضاء الخارجي، فوق مستوى جلبة القشرة الأرضية المعتادة، فقد عمّ هدوءٌ متأملٌ، رغم امتلاء الكنيسة عن آخرها. تقدمنا زياد باحثًا عن مكان شاغر لنجلس إليه، أو عن كانديد، فربما كان قد سبقنا، فحجز لنا مائدة نشاركه إياها. وبالطبع طافت عيوننا ـ أمير وأنا ـ تمسح المطعم، بحثًا عنه بالمِثل.

لم تطل وقفتنا في انتظار زياد، بل فوجئنا خلال لحظات بجماعة من رجال الكهنوت الكاثوليكي، يهرعون نحونا مسرعين، بأثوابهم السوداء، وأحزمتها العريضة، المطرزة بمختلف الألوان الزاهية، وصلبانهم الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة تتدلى فوق صدورهم. حينما اقتربوا منا أكثر،

خيّل إليَّ أنّ بينهم الأب "جان لوي فرانسوا"، ذلك الأب الكاهن الذي كنا قد قابلناه في كاتدرائية الـ "ساكريكير" بباريس قبل بضعة أيام. وبالفعل تأكد لي ذلك حين وصلوا إلى حيث كنا نقف، فتقدمهم بخطوة الأب جان لوي فرانسوا، ومد يده ليصافح أمير، ثم جذبه إلى صدره يحتضنه بحرارة، وكأنهما صديقان، بل نديمان متآخيان منذ الصبا. اندهش أمير، بالطبع، لكن مباغتة الكاهن له، لم تدع أمامه من سبيل إلا أن يستسلم له. ثم انتزعه الأب فرانسوا من حضنه برفق، وكأنه يخشى أن يتفتت بين ذراعيه، ثم تقهقر قليلا، ونظر إلى يمينه، وهو ينحني ليقدم الكاهن المسن الواقف بجواره، قائلاً:

"المطران ،فاللينيي" رئيس كهنة روما." ثم إلى يساره:

"الأسقف (فلان)!".

وقد كانا يرتديان ثوبين أسودين، وكانا متمنطقين حول خصريهما بلفافتين كالحزام، إحداهما قرمزية، والأخرى بنفسجية، وكانتا متطابقتين مع لوني طاقيتين فوق رأسيهما. ثم قدّم الأبوين (فلان، وفلان) وكانا يرتديان ـ مثل الأب فرانسوا ـ أثوابا بيضاء ناصعة. قال أسماءهم جميعا، ولكنني بالطبع لم أدرك كل تلك الأسماء، ولم أجرؤ أن أطلب منه إعادتها. سلمنا عليهم بانحناءات وقبّلَت سيسي الصليب القابضة عليه يد المطران، ولست أدري كيف ميزته وسط بقية الإكليروس. حدث كل هذا في غضون بضع

ثوان، ولكنها كانت كافية لتلتوي أعناق رواد المطعم، متسائلين عمن يكون أصحاب ذلك المقام الرفيع، الذين دفعوا بتلك القامات العالية إلى المجيء خصيصا لأجل استقبالهم، في مطعم متحف الفاتيكان.

وفي الوقت ذاته ، تعالى صوت زياد من الناحية المقابلة للمطعم، يشير إلى أمير بأنه عثر على طاولة شاغرة. نظر أمير نحو الأب فرانسوا والآباء الإكليروس، متسائلا عما يتحتم علينا أن نفعله. نظر الأب فرانسوا إلى ساعة يده، وأعلن وهو ينظر نحو المطران متسائلًا:

"أعتقد أن لدينا بضع دقائق قلائل، يمكننا أن نتبادل خلالها بعض الكلمات، قبل بدء صلاة البركة؟"

أومأ المطران موافقا، وسرعان ما تقدمَنا بنشاط ـ رغم تقدم سنه ـ بزيه اللامع المبهر، وبخاتم مرصع في يمناه، وهو يحيّي الحاضرين بانحناءة خفيفة بالرأس، بينما يرفل ما بين الموائد، التي كان يهبّ كل شاغليها واقفين، بمجرد أن يقترب منهم الركب، احتراما وتبجيلا، حتى يمر فيعاودون الجلوس. توجهنا إلى حيث كان يقف زياد مذهولا، وهو يراقب الموكب المهيب المتداني نحوه. أما أنا وسيسي، فتذيلنا الجميع، وأنا أقودها برفق بين الطاولات وشاغليها الذين بلغت بهم النشوة إلى حد أن راحوا يصفقون أخيرا.

تسابق العمال والندل إلى إحضار مقاعد إضافية حول مائدتنا. وما إن جلسنا، حتى بدأ الأب فرانسوا في الكلام، وكأنه يلقي خطابا كان قد أعده مسبقا بعناية فائقة:

"أخي الحبيب أمير، وأخوتي الأعزاء، أنا سعيد حقا بلقياكم هنا في حضن الفاتيكان، وعلى مقربة بضع خطوات من كرسي المعظم، البابا فرانسيس الذي سوف نتمتع بمباركته لنا بعد بضع دقائق. لكن دعوني أشرح لكم كل ما كان حتى لحظتنا الآنية، لعلكم تدركون عمل الله في حياتنا. تذكرون بالطبع يا أحبائي يوم التقينا في باريس في قلب كاتدرائية الـ "ساكريكير"، وقد انبهرت ببعثتكم المقدسة، باحثين عن كانديد لتخلّصوا العالم من شره المستفحل. في الحقيقة، لا أخفي عليكم ندمي الشديد، بمجرد أن تركتموني وراءكم، وانطلقتم تواصلون مهمتكم السامية. رحلتم، بينما بقيت أنا هناك، بيد أني أنا الذي وهبت حياتي قبل سنوات، ليتسنى لي أن أفعل بها ما أقدمتم أنتم على فعله، بكل إخلاص وتفان، وبدون معاونة أو تحضيض. الحق، أعترف لكم، أني لم أنم ليلتها. شعرت بأنّ صوتا سماويا كان يحثني أن أشارككم رحلتكم الإنسانية المقدسة، بنفسي، وليس عبر حفنة من الأموال أهبكم إياها، قد تساعدكم على إنجاز مهمتكم. لكنني مع كل أسف، لم أعرف لكم رقم هاتف، أو اسم فندق، أو أيٍّ ما يدلني إليكم. ثم تذكرت أني حدثت أمير ـ أرجو أن تسمح لي أن أدعوك أمير هكذا بدون ألقاب ـ عن كلامي مع كانديد بخصوص دير الراهبات الكائن بـ 'شارع دو باك". وبالفعل، عقدت العزم في اليوم التالي، على زيارة الدير، بعد الخدمة الثالثة للقداس التي اضطلعت بها. وهناك أرشدني الرب إلى لقاء الراهبة التي تحدثتم إليها، والتي حادثت

كانديد من قبلكم عن المجيء إلى الفاتيكان، من أجل البحث عن 'المؤمنين الحقيقيين" وحسنًا فعلت..."

انقطع الأب فرانسوا عن الكلام موجها نظره نحو المطران والأسقف، ثم أحنى رأسه قليلا، وهو يرفع كوب الماء الذي وضعه النادل أمامه قبل لحظات، وكذلك فعل أمام كلّ واحد منا. رشف من الكوب، وأكمل قائلا:

"لقد جاسرت وتحدثت مع قداسة الأب 'أندريه الثالث والعشرين"؛ مطران باريس بشأنكم، وبخصوص مهمتكم المباركة. وحين اعترفت برغبتي في اللحاق بكم، تحمس قداسته، وتفضل بالتحدث إلى قداسة المطران 'فاللييني" الذي رحب بدوره بأمر مجيئي إلى روما، واستضافتي بالفاتيكان. وبالفعل سافرت مساء أمس إلى هنا، واليوم طلبت من نيافة الأسقف زيارة الـ 'كابيللا سيستينا" ـ كما يدعونها بالإيطالية ـ قبل موعد صلاة البركة التي سوف يقدمها البابا المعظم في الساعة الثانية عشرة، هنا أمام ساحة القديس بطرس، فوافق متكرمًا. وبينما أنا أجول بداخل الكنيسة منبهرًا، إذا بي وجهًا لوجه مع 'كانديد"... نعم وجدتني مقابلُه شخصيّا!"

سكتَ مجددًا، وهو يتفحص وقع كلماته على كل منا. ثم رشف مجددا من الماء، وأكمل:

"لا تتصوروا مدى سعادتي بلقائه، إذ شعرت بأنّ يد الله كانت تحركني وتدفعني دفعًا، فاستشعرت أني على الطريق الصحيح، وأحسست ببركة

سماوية تكتنفني. تعرّف هو عليَّ على الفور، وارتسمت فوق وجهه أمارات السعادة بلقائي. حين خرجنا من الكنيسة، تعرفت على زوجته 'ليدي كوناجوند"، وصاحبه 'كاكامبو"، وصديقهم الشيخ 'بروفيسور بانجلوس" الذي باح لي فور لقائنا، بأن ليس بالإمكان أفضل مما كان في هذا العالم. أخبرني كانديد بأمر تلك الرسالة التي كان قد تركها وراءه، ودعوته إياكم إلى لقائه هنا. لكنه أعرب عن أسفه من عدم إمكانه انتظاركم بصحن الكنيسة كما اعتقَد، وعن يأسه من أن تقدروا على اللحاق به بعد اليوم، إذا ما فشل في مقابلتكم. لكني سعيت إلى طمأنته، ونحن نسير نحو مقر قداسة البابا فرانسيس، الذي أصر كانديد على لقائه شخصيًا، ليسأله عن 'المؤمنين الحقيقيين". استطعت بالفعل أن أدبّر له مقابلة مع قداسة البابا، بمساعدة نيافة المطران 'فاللينى"، ثم وعدته أن أعود وأبحث عنكم حتى ألقاكم. وبالفعل حضرت إلى هنا عدة مرات، وفي المرة الأخيرة طلب منّي نيافة الآباء اصطحابي، فسررت، وأنا متأكد تمامًا من نجاحي في العثور عليكم، في هذه المرة بالذات، لأن يد الله التي كانت معي، هي التي سمحت بصحبة نيافة المطران والأسقف والآباء، لنكون جميعًا هنا، في استقبالكم، وليتمجد اسم الله القدوس!"

سأله أمير، فور أن انتهى:

"وهل اصطحب كانديد عائلته معه، للقاء البابا؟"

"بالطبع!"

وهنا تنحنح المطران، وأومأ إلى الأب فرانسوا، برأسه الممتلئ، معلنًا أنه سيبدأ الحديث. وبالفعل، بدأ الشيخ يتحدث إلينا، بصوت محشرج، ولكن باللغة الإيطالية، وشرع الأب فرانسوا يترجم لنا إلى الفرنسية، ثم يفسر لنا أمير ما قاله، باللغة الإنجليزية، فقال:

"أوّلا، أرحب بكم في الفاتيكان، موضع شهادة القديس بطرس، صخرة الكنيسة، كما دعاه السيد المسيح."

"ثانيا، أحب أن أعبِّر لكم عن امتناننا لهذا الجهد العظيم، وللرسالة السامية التي من أجلها تركتم دياركم، ورحلتم إلى شتى البلدان، من أجل هدف سام، وهو خلاص البشر، والانتصار للحق والخير والسلام."

"ثالثا، أعترف بأنّ عملكم هذا لا يخضع للأمور الدنيوية، المنطقية، العادية، التي تمر بحياتنا كل يوم. ولكن، مع ذلك فمساحة الرؤيا بكنيستنا تتسع لأمور كثيرة غير منظورة، وتشمل أشياء عديدة نقبلها بالإيمان، رغم أنها لا تنصاع في العادة للقوانين الأرضية الاعتيادية."

"رابعًا، أستميحكم عذرًا في سرعة تناول وجبة خفيفة هنا، حتى يتسنى لكم الانتهاء منها خلال فترة وجيزة، لكي تشاركونا في تلقي البركة الأسبوعية، التي يقدمها للشعب قداسة البابا فرانسيس ظهر كل أحد تقريبًا، إذ لم يتبق ـ في الواقع ـ سوى بضع دقائق عليها. ونحن بدورنا سوف نتيح

لكل منكم تذكرة للدخول، وهي مجانية على أيّ حال، ولكن كان ينبغي حجزها مقدما. لذا، فسوف نسبقكم إلى ساحة القديس بطرس، وهي على بعد خطوات من هنا، وسوف نترك الأب فرانسوا معكم، ليرشدكم إلى الطريق، بعد أن تفرغوا من طعامكم."

ثم قاموا على الفور، وهم ينصرفون مودّعيننا، بابتسامات وقورة مرحبة.

وعلى الفور تلقى النادل طلباتنا، وسحبت أنا كرّاسي الأزرق من حقيبتي، ومكثت أدوّن كل تفاصيل ما حدث هنا، حتى جاءت الشطائر والمرطبات.

بعدها كان المشهد مهيبًا؛ امتلأت ساحة القديس بطرس بالمؤمنين. وبعد الظهر بدقائق معدودات، خرج قداسة البابا إلى شرفة من البيت الفخم ـ أو قل القصر الفاخر ـ الذي يقيم به بابا الفاتيكان. ولدهشتنا أبصرنا، إلى جانب المطران "فالليني"، شابًا واقفًا ذا شعر أشقر مجعدة أطرافه الطويلة التي كادت أن تصل إلى أكتافه، وهو يرتدي قميصًا أبيض ذا أكمام منفوشة، وسروالا غامق اللون، واسعًا جدا، وقد بات ينظر نحو الجمع ذاهلًا. وقفَت إلى جواره امرأة تلبس رداءً ورديًّا، ذا ياقة حمراء تحيط بعنقها، وقد عقدت شعرها الطويل في شكل كعكة عالية جدًا فوق رأسها. كانا يبدوان وكأنهما ممثلان من فرقة مسرحية جاءت لتؤدي فقرة تاريخية. لكن علا صوت أمير فجأة، وهو يشير نحوهما:

"كانديد، وليدي كوناجوند، بمحاذاته!"

أتم قداسة البابا صلاة البركة باللغة اللاتينية، فلم أفهم أيّا مما قال، ثم نظرتُ باتجاه سيسي، لأتأمل وقع الصلاة عليها، فخلتها تتأمل ما يجري من وراء نظارتها السوداء. شعرت بي، فقبضت فوق يدي برفق، لتبلغني بأنّ كل شيء على ما يرام. لكنني ـ بعد ذلك ـ شعرت بخشوع يغشاني، فأحنيت رأسي، وجلت في رحاب صلاة عميقة.

أفقت على يد الأب فرانسوا تربت بترفق فوق كتفي. وسرعان ما استحوذ على انتباه أربعتنا، حين قال بالفرنسية، وتكفّل زياد بالترجمة لي ولسيسي:

"قداسة البابا يبتغي لقاءكم!"

انطلقنا عبر سد من البشر المحتشد، إلى أن وصلنا إلى باب خشبي موصد، طرقه الأب فرانسوا، وانتظر. بعد برهة انفتح الباب الخشبي وأطلت رأس رجل في زيّ كاهن أو راهب، فهمس له الأب بكلمة، ثم أشار إلينا أن نتبعه. دلفنا إلى باحة واسعة، خافتة الضوء، مبلطة برخام قديم، أبيض وأخضر، يشبه رقعة شطرنج ممتدة، تحفها حوائط مغطاة بألواح خشبية محفورة أطرافها بعناقيد عنب، وصلبان متجانسة بعضها مع بعض تجانسًا بديعا. توسط الحائطَ الخشبي المقابل، تمثالٌ رخامي رائع للسيدة العذراء، حاملةً الطفل يسوع. توجهنا نحو الجهة المقابلة للجانب الآخر من التمثال. رنَّت أحذيتنا، ونقرات عصا سيسي فوق الرخام، فملأت القاعة الصامتة جلبة. انتهينا إلى حيث ارتقينا سلما خشبيا مؤديا إلى الطابق الأعلى. رانت رائحة زهور وردية عبق بها المكان، ومع ذلك لم أبصر أثرا لورود.

صعدنا إلى الطابق الثاني، فاستقبلنا المطران "فاللِيني" عند أعلى الدرج. تهلل وجهه الأبيض السمين المتغضن بفعل الزمن، فاهتز اللحم أسفل ذقنه، وهو يعلن متأثرا:

"قداسة البابا بانتظاركم!"

مشينا وراء المطران في ممر طويل، مفروشة أرضيته بالسجاد، ومزدانة جدرانه بلوحات للباباوات القدامى. سيسي كانت تسير بمحاذاتي، متأبطة ذراعي، بينما تقدمنا بنحو خطوة أمير وزياد اللذان سارا خلف الكهنة مباشرة. أعلمنا نيافة المطران ـ وترجم الأب فرانسوا ـ بأنّ قداسة البابا لا يستقبل في تلك الحجرة إلا كبار الشخصيات من أصحاب المقام الرفيع. وصل ركبنا إلى آخر الممشى، فتوقفنا أمام باب خشبي، طرقه المطران، ثم فتحه على مصراعيه، فولجنا إلى الغرفة.

لم تكن غرفة بالمعنى السائد، بل ساحة عريضة أرضيتها من الرخام المزخرف في أشكال هندسية، تغطيه مجموعة من السجادات العجمية التي لم أر لجمالها مثيلا. إلى جانبي الشرفة قامت خزانتان خشبيتان مكتظتان بالكتب. وتدلت من السقف نجفة بلورية أنيقة.

توسط مقعد البابا الباحة العريضة، أمام الشرفة التي وقف بها قبل دقائق ليمنح البركة للشعب. جلس قداسة البابا وملأت ابتسامة رقيقة صفحة وجهه الطيب، وهو ينظر نحونا بعينين آسرتين، تشداننا إليه شدًّا.

انحنى المطران أمام البابا، ثم تبعه الأسقف، فالأب فرانسوا، ثم تقدم الأبوان الآخران اللذان لم أتذكر اسميهما، وقبّلوا جميعًا الخاتم بيده. ثم انحنى أمير وحاكاه زياد، ثم سيسي، وأخيرا أنا. سَرت في جسمي قشعريرةٌ وأنا أمسك بيدي يد البابا فرانسوا الناعمة الطرية، بينما أقبّل الخاتم فوق بنصره الأيمن. لحظتها كنت أحلّق فوق سماوات عالية.

جلسنا بعدها إلى مقاعد وثيرة من حول كرسيه، ثم أومأ البابا فجاء راهب شاب بصينية مذهّبة تحمل كؤوسًا من الكريستال، وتحوي سائلًا أصفر لذيذ الطعم، عرفت في ما بعد أنه عصير اللوز المُحَلَّى. عبرت بعينيّ أتفحص الغرفة الواسعة، باحثًا عن كانديد وليدي كوناجوند اللذين رأيناهما بصحبة قداسة البابا حينما كان واقفًا بالشرفة من قبل. لكنني لم أجد أيا منهما. لمحت أمير وزياد وهما يبحثان أيضا، ولكن بلا طائل.

لاحظ قداسة البابا حركتنا، فصدرت عنه ضحكة مكتومة، ثم قال مداعبًا بلغة إنجليزية ركيكة:

"لماذا تبحثون عن الحيّ بين الأموات؟"

لكن سرعان ما أجابه أمير:

"هل تقصد يا قداسة البابا، أنّ كانديد كان ميّتًا، ثم قام من بين الأموات؟"[1]

---

(١) * قَدَاسَةُ البَابَا فرنسيس المُقَابَلَةُ العَامَّة يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ المُوَافِقَ ٢٣ أبريل ٢٠١٤ ــ بساحة القديس بطرس
(بتصرف لتتلاءم مع أحداث الرواية)

*"أيها الإخوة الأعزاء وأيتها الأخت الغالية، إنّ هذه الكلمات تمكث في قلوب المؤمنين منذ صباح الفصح قبل قرنين من الزمان، إذ كتب لنا القديس لوقا في الإصحاح الرابع والعشرين من الإنجيل؛ عندما ذهبت النساء إلى قبر يسوع لتكفينه، لقيهنّ الملاكان، وقالا لهن: 'لِماذا تَبحَثنَ عن الحَيِّ بَينَ الأَموات؟". فهذه الكلمات هي بمثابة 'حجر الزاوية" في إيماننا، ولكنها أيضًا 'حجر عثرة" إن لم نتطَّلع بإيمان إلى البشرى السارة، وإن فكرنا بأنّ يسوع الميت، أقل إثقالا من يسوع الحيّ!"

"ولكن، كم من المرات خلال مسيرتنا اليوميّة نحتاج لأن نسمع من يقول لنا: 'لماذا تبحث عن الحيّ بين الأموات؟". كم من مرّة نبحث (تبحث؟؟) عن الحياة بين الأشياء المائتة التي لا تتمكن من أن تحييها."

"لماذا تبحثون عن الحيّ بين الأموات؟ فتسألوني عن كانديد، أين هو من هذا العالم الشرير، الميّت موت الخطيئة. ليت هذه الكلمات تجعلنا نتخطّى تجارب النظر إلى الوراء، وتدفعنا إلى الأمام. فيسوع ليس في القبر، إنه قام من الموت، إنه الحي الذي يجدد دائمًا جسده؛ فجسد المسيح هو أنتم، وأنتم أقامكم يسوع معه، فتتجدد الكنيسة وتتبدل من موت لحياة بكم، فهو يسيِّرها جاذبا إياها نحوه، فتحيا."

"هذا هو ما تكلمت به مع كانديد؛ عن عمل الله؛ الذي يقيمنا من بين الأموات، فنحيا لا نحن في المسيح، بل المسيح يحيا فينا، كما علّمنا بولس الرسول."

"واليوم يُطرح هذا السؤال علينا نحن أيضا: أنت! لماذا تبحث عن الحيّ بين الأموات، أنت الذي تنغلق على ذاتك بعد سقوط ما، وأنتِ الذي فقدتِ الأمل من قدرة الله، وأنتَ الذي لم تعد تقوى على الصلاة؟ لماذا تبحث عن الحي بين الأموات؛ أنت الذي تشعر بأنك وحدك ومتروك من الأصدقاء، وربما من الله أيضا؟ لماذا تبحث عن الحيّ بين الأموات، أنت الذي فقدت الرجاء وتشعر بأنك سجين خطاياك؟ لماذا تبحث عن الحيّ بين الأموات، أو حتى أنت الذي تتوق إلى الجمال والكمال الروحي والعدالة والسلام؟"

فقاطعه أمير:

"كمثل كانديد يا قداسة البابا؟"

انزعج رجال الكهنوت من مقاطعة أمير للحبر الأعظم، لكنّ قداسة البابا ابتسم في وداعة، ثم أكمل:

"وهل كانديد وحده من يحتاج إلى تلك الكلمات؟ أنا أحتاجها أيضا. نحن بحاجة إلى هذه الكلمات عندما ننغلق في أيّ شكل من أشكال الأنانيّة والاكتفاء الذاتي، وعندما نسمح للصراعات الأرضيّة، ولأمور هذا العالم بأن تغوينا، فننسى الله القريب، وعندئذ نضع رجاءنا في تلك العبثية الدنيوية، وفي المال والنجاح والسلطة. عندها، تقول لنا كلمة الله: 'لماذا تبحثون عن الحيّ بين الأموات؟" لماذا تبحث هناك؟ إنها أمور لا يمكنها أن تعطيك الحياة، ربما

قد تعطيك بعض لحظات فرح، ولكن ماذا بعد؟ 'لماذا تبحثون عن الحيّ بين الأموات؟". علَّ هذه الكلمات أن تدخل إلى قلوبنا، واليوم عندما يعود كل منا إلى بيته يرددها في قلبه بصمت، ويسأل نفسه: لماذا أبحث عن الحيّ بين الأموات؟"

فهمَّ زياد واقفًا وهو يقول بقدر من الحدة:

"مع كل احترامي لقداسة البابا المعظم، هل لنا أن نتقابل مع كانديد الآن؟ لقد تركنا منازلنا وأعمالنا وأسرنا حتى نلقاه، وهو الذي دعانا إلى أن نجده هنا بالفاتيكان. كما أننا عاينَّاه وهو واقف بجوار قداستكم أثناء الصلاة، لذا فنحن بتنا موقنين الآن من أنه حقيقي، وليس خيالا، أو شبحا مثلا، أو عفريتا، فأين ذهب؟ كل ما فهمت من كلماتكم، أجده عميقًا ومؤثرًا، ولكنني أخشى أن يضيع الوقت في الحديث، فيبتعد عنا كانديد من جديد، وهو الذي كان يقف على بعد أمتار منا. فبالله عليك، أين هو؟"

ابتسم قداسة البابا بحنوّ، ثم وقف بدوره، فوقفنا جميعًا، احترامًا له. وهنا قال قداسة البابا:

"لقد سألني كانديد عن المؤمنين الحقيقيين، فأجبته أنّ الله وحده هو فاحص القلوب والكُلى، وهو الذي يدرك من هم مؤمنوه، وما هو قدرهم. ثم قدمت إليه نصيحة أرجو أن تكون نافعة؛ كل ما في وسعي هو أن أصلي

له ولكم، أن يفتح الله أعين قلوبكم، فتدركوا بمشيئته هدفكم الذي تسعون نحوه. قلت له أيضًا عن المؤمنين الأوّلين، الذين دعاهم إيمانهم إلى أن يتركوا العالم بضجيجه، وينشدوا وجه الله الحيِّ في الوحدة، والخلاء، فقصدوا الصحراوات المترامية."

كفّ قداسته عن الكلام، أشار إلينا أن نقترب منه، ففعلنا، وعندها رفع يديه، فانحنى المطران، والأسقف، وبقية الآباء الكهنة، فانحنينا. ثم راح يغمغم بصلاة صامتة وهو يباركنا.

عندها دعانا الأب فرانسوا برفق إلى أن نستعد للانصراف. همس له أمير قائلًا:

"لكن، أين كانديد؟ هل ترك المكان؟ هل ذهب من هنا؟ أين نجده؟"

تمتم له الأب فرانسوا بدوره:

"لننصرف الآن، لأنّ قداسة البابا يريد أن يعتكف، ولكني سوف أعود لأسأل عن كانديد مجددا. لا تنس أنني صرت معكم الآن، وشريكا في بحثكم عن كانديد، حتى نعثر عليه ثانية، حتى لو كلفنا الأمر أن ننقب عنه في كل بقعة، في كل بلدان العالم. لقد أدركت ذنبي حين تركتكم قبلا، ولن أعود إلى تكرار ذاك التصرف الصبياني من جديد. ثق في كلامي، أرجوك يا سيد أمير."

الرابع عشر

انتظرنا أمام البوابة الخشبية الموصدة، المطلّة على ساحة القديس بطرس، وقد خلت من الجمهرة التي كانت تعج بها قبل نحو ساعة زمن. وقف أربعتنا ذاهلين من تأثير لقائنا بالبابا فرانسيس. كم كانت بساطته وهو يلقانا، نحن الغرباء عنه، وهو رئيس الكنيسة الكاثوليكية جمعاء، أكبر مؤسسة دينية في العالم، وهو الذي يتلاقى مع رؤساء الدول وملوكها. من منَّا كان يحلم بمثل ذلك اللقاء، ونحن نغادر الإسكندرية، ونطير وراء حلم، أو فكرة عجيبة طرأت لهذا الأمير الذي يقف أمامي الآن مضطربة نظراته، متهيجة قسماته، حتى شعر رأسه انتصب كالقنفذ، من بعد أن فشلنا ـ مرة أخرى ـ في العثور على ضالتنا المنشودة. وبالفعل، لم تمض سوى لحظات حتى انفجر أمير صائحًا:

"ما معنى كل هذا؟ لماذا تبحث عن الحيّ بين الأموات؟ نحن ما جئنا إلى هنا إلا لنعثر على الحيَّ بين الأحياء! ووجدناه بالفعل، وأبصرناه جميعا، واقفا بالشرفة، إلى جوار البابا، وإلى جانبه كانت ليدي كوناجوند. ثم ماذا؟ صعدنا إلى الغرفة ذاتها التي تطل منها الشرفة، خلال لحظات. ثم اختفى كانديد،

وليدي كوناجوند، وبقي البابا المعظم ليسألنا: لماذا تبحث عن الحيّ بين الأموات؟ هل يتفضل أحدكم بتفسير ما حدث؟ توشك رأسي أن تنفجر!"

"اهدأ يا أمير، أرجوك!" أجبته مشفقا.

وهنا انفتحت البوابة، وخرج الأب فرانسوا منها، وقد اعتلت وجهه ابتسامة رائعة. لاحظ على الفور اضطراب أمير، ولم تكن حالة زياد أفضل بكثير، فبادر قائلًا:

"لقد تقابلت مع المطران "فاللينى"، الذي بقي بالغرفة العلوية، من بعد انصراف قداسة البابا ليعتكف. فسارعت بسؤاله عن كانديد. فأجاب بأنه تركه بصحبة قداسة البابا، بعد انتهائه من الصلاة. وقال إنه حضر إلى الساحة ليأتي بنا، ثم إنه كان بصحبتنا حين صعدنا إلى الغرفة، حيث فوجئ مثلنا باختفائه عن الحجرة حين عاد إليها. ولكنه دعاني إلى أن أنتظر، بينما خرج هو ليسأل السكرتارية، لعل أحدهم ينبئنا بالخبر اليقين. وفعلًا عاد بعد برهة، ليخبرني بأن قداسة البابا اقترح على كانديد الذهاب إلى صحارى مصر، حيث الأديرة العتيقة التي أعلمه بأنّ مؤسسها الأول هو الراهب المصري الأنبا أنطونيوس، منشئ نظام الرهبنة في العالم أجمع، فربما وجد هناك ضالته من المؤمنين بحق.

طلبت منه الإذن بالسفر إلى مصر، فوافق قداسته على الفور، وأشار بأن أتوجه إلى دير راهبات مصر الفرنسيسكانيات، بحي كلوت بك، بالقاهرة،

واسأل هناك عن الأخت "ماري حِنَّة"، التي أوصى قداسة البابا كانديد بالذهاب إليها، وهي سوف تساعدنا على زيارة الأديرة المصرية، والعثور على كانديد. ثم باركني بالصلاة، وها أنا ذا جئت لأبلّغكم بما جرى."

بوغتنا ـ بالطبع ـ بتلك الأنباء.

كانديد توجه ـ أو يستعد للتوجه ـ إلى مصر؟

أنعود بعد كل ما كان، إلى نقطة البداية في رحلة بحثنا؟ ومع ذلك فقد شعرت بنوع من الراحة، لأنني اشتقت بالفعل للعودة إلى بلدي، بعد تلك السفرة الطويلة.

لكنّ كلمات زياد نبهتني إلى أننا أصبحنا فرقة، ولم نعد ثنائيا، كما كنَّا حين تركنا مصر. فقد قال متصايحًا:

"رباه! كم كنت أتمنى أن أزور مصر! كانت زيارتها حلمًا لديَّ منذ أيام الصبا، وها أنا أزورها برفقة أصدقاء، بل إخوة لم أكن أحلم بصحبتهم إليها!"

وعقبت سيسي، التي كانت التزمت الصمت لوقت طويل:

"بالفعل، زيارة مصر أمل راودني أنا أيضا، ولكني لم أتوقع أن يتحقق. أما الآن، فأنا على أتم الاستعداد لأن أستنفد كل ما أملك، حتى أذهب إليها بصحبتكم!"

لكنّ الأب فرانسوا أعلن بثقة، والغبطة تكاد تقفز من بين شفتيه:

"لا يا سيسي، واسمحي لي أن أدعوكِ هكذا بلا ألقاب، لكن هذه الرحلة ستتكلف بها الكنيسة. أنتم ضيوفنا من الآن فصاعد، ومكتب قداسة البابا بصدد حجز تذاكر السفر بينما نحن نتحادث الآن، لكنني أرجو أن تسلّموني جوازات السفر، لكي يتم استخراج تأشيرات الدخول عبر السفارة المصرية هنا."

وبالفعل، أعطيناه جوازات السفر، فعاد واختفى من جديد عبر البوابة الخشبية، ولبثنا نحن في الساحة الخالية، منتظرين عودته.

كانت عيناي معلقتين بأمير، متابعتين ردود أفعاله، إذ كنت أدرك بحكم العشرة الطويلة، تأثير تلك التغييرات المباغتة فيه. كنت أشفق من أن تجلب إليه نوبة من نوباته المجنونة. لكن لحسن الطالع، ظل أمير متماسكًا، بل كدت أجزم أنّ ظل فرحة ما كاد أن يلفّ به، منذ علم بقرار عودتنا لنبحث عن كانديد في مصر. ولِمَ لا، فحب أمير لبلده، لا يقل بأيّ قدر عني، وهو الذي اختبر الغربة لسنوات هاجر خلالها إلى أمريكا، ثم عاد، ليبحث فيها عن ذاته فوق أرض وطنه. بل وشارك أمير في ثورة أبنائها ضد الظلم والقمع، ولم يثنه عن مواصلة العصيان سوى توجّه المتظاهرين نحو أسلمة الحركة الشعبية حينذاك. على أيّ حال، فما فعله أمير وقتذاك، أكثر بكثير مما عملته أنا، حتى ولو كنت انشغلت بمرض ثريا، ثم رحيلها.

رجع الأب فرانسوا متهللًا وهو يعلن الانتهاء من حجز أماكننا على متن شركة "أليطاليا" بعد ظهر الغد. ثم أعلن أنّ الأب "بيدرو جيوفاني" ـ أحد الأبوين اللذين كانا بصحبتنا في مطعم متحف الفاتيكان صباح اليوم ـ يدعونا للعشاء في مطعم عائلي بروما، متخصص في تقديم الأسماك والمأكولات البحرية، لا يرتاده سوى أهل روما، إذ ليس معروفًا للسياح الكثيرين الذين يتوافدون على المدينة. وأعلمنا بأنه عرف أنّ رئيس الطهاة هناك مصري الأصل.

ابتسمت، وأنا أرمق أمير بغمزة، معناها أن لا بد من أنه سكندري الأصل. وتبسم هو بدوره، فانتابني ارتياح لكونه قصيّا عن إحدى نوباته الخبلة.

افترقنا حتى نذهب إلى الفندق أوّلا، لنستريح قليلًا، ونبدل ثيابنا، ووعدَنا الأب فرانسوا بإرسال سيارة لتصحبنا إلى المطعم في تمام السابعة، إذ لم يكن يعرف عنوانه.

وفعلا، حضر الأب بيدرو جيوفاني في الموعد، وجلس بجوار سائق الحافلة الصغيرة، التي خاضت بنا شوارع روما المتلألئة. أما عن الأب بيدرو، فكان شابا نضرا، ممتلئا لحما وشحما وبهجة، ينضو عنها ملامحه الرائقة، وفمه البسَّام. وصلنا نحو السابعة والنصف، إلى شارع ما، في قلب العاصمة الإيطالية. استعرت حرارة الجو، وملأت رطوبته الهواء من حولنا، حتى التصقت أقمصتنا بأجسادنا، وكأننا نمرق داخل حمام بخار،

بينما ترجلنا في حارات ضيقة، لا تستطيع السيارات أن تمرق عبرها، إلى أن وصلنا إلى الطعم. حين بلغناه، كانت الساعة حوالي الثامنة إلا ربعا، وكان المطعم خاويا إلا منا. لم تكن تلك علامة تنبئ بجودة الطعام الذي يقدمه، إذ لم يكن المكان مكتظًا بالزبائن، كما عهدنا. لكن استقبلنا النادل ببشاشة، وهو يدعونا إلى مائدة طويلة، عند جانب الحائط الأبعد من المدخل، بدا وكأنها معدّة خصيصًا لنا.

اتخذ كل منا مقعده، واتخذت الكرسي المجاور لسيسي. ملت إلى أذنها وهمست:

"لا يوجد في المطعم كله سوانا!"

فابتسمت، وإن لم تعقّب.

جلس الأب "بيدرو جيوفاني" إلى صدر المائدة، بينما اتخذ الأب فرانسوا المقعد المواجه، وقعد أمير وزياد بمواجهتنا ـ سيسي وأنا.

طلب الأب بيدرو زجاجتين من النبيذ الأبيض، معلقًا بأنه أكثر مواءمة للمأكولات البحرية. اندهشت حين عاد النادل بالنبيذ، وشهدت القسيسين يحتسيان النبيذ معنا. وقام أمير بسؤالهما نيابة عني:

"هل يُسمح للكهنة بشرب النبيذ هنا؟"

فضحكا معًا، ورد الأب فرانسوا قائلًا:

"النبيذ في إيطاليا، كما هو الحال في فرنسا، وكثير من البلدان الأوروبية، لا يعد مسكرا، ولا يتطلب إذنًا خاصًا لاحتسائه. فشرب النبيذ أثناء تناول وجبة

العشاء بالذات، يعد مرادفا لشرب الماء عند بقية الشعوب. حتى الأطفال هنا يحتسون النبيذ مع الطعام، ثم إن القليل منه يصلح المعدة!" وقهقه ضاحكا.

سألَنا الأب بيدرو مبتسمًا عن الجو في القاهرة الآن، فأجابه أمير:

"الحرارة شبيهة بها هنا في روما، وإن كان الهواء الرطب قد يصير أحيانا محملا ببعض الغبار أيضا. وقد يحوِّل هذا المزيج، ذلك العرقَ الذي تصببناه ونحن في طريقنا إلى هنا ـ خلال المشوار القصير إلى المطعم قبل قليل ـ مع التراب، يمكنه أن يجعل ياقة عباءتك البيضاء هذه، تميل إلى السواد، فقط لا أكثر!"

فضحكنا جميعا.

سرعان ما ابتدأت العائلات تتوافد إلى المطعم، وزخرت المناضد بالزبائن تباعا، حتى امتلأت عن آخرها، نحو الساعة الثامنة، وهنا توجه النادل إلى الباب الزجاجي، فأوصده، معلنا امتناعه عن استقبال روّاد جدد.

لم نطلب أطباقا بعينها، إنما جاء النادل أوّلا بصحون شوربة الأسماك، وتركنا لدقائق. ثم أتى ومساعدوه بأطباق الجمبري المطعّمة بأوراق الريحان الطازجة، ثم صحون السباجيتي المخلوط بقطع بلح البحر المقلية. أكلناها بنهم، فلقد كان المذاق من أشهى ما مر بي، رغم كوني إسكندرانيا، اختبرت أروع مطاعم الأسماك بالثغر. دار حديث رائق أثناء تقديم مختلف صنوف

الطعام، أدركنا خلاله أنّ جد الأب بيدرو جيوفاني، كان يحيا بالإسكندرية في النصف الأول من القرن الفائت، ثم عاد إلى إيطاليا في أواخر الخمسينيات. كان يحكي عن جده بودّ وحميمية، وعما رواه له من حكايات عن الإسكندرية، التي لم تنتهِ أبدا، حتى اغرورقت عيناه، وهو يروي لنا عن أيام الجد الأخيرة، حين وافته المنية في بلدته الصغيرة التي تدعى "كييتي" في شمال إيطاليا.

ثم أتى النادل، وهو يحمل فوق يسراه صينية عظيمة، وكنت أعتقد انتهاء الوجبة الشهية، فإذا به يخفض الصينية إلى مستوى عيوننا، فرأيت سمكة عملاقة، تتصاعد منها أبخرة الطهي، محاطة بقطع من البطاطس والطماطم والبقدونس والبصل. لكنّ العجيب أنّ النادل أمسك بملعقة وسكين بين أصابع يمناه، ثم صار يُخلي السمكة من قشرها وأشواكها، بينما هو يحملها بيسراه، معلقة هكذا فوق رؤوسنا. وفي خلال دقائق معدودات، كان قد انتهى من جراحته الدقيقة، ثم شرع يقدّم لنا قطع السمك المتماسكة، مع بقية الخضروات فوق أطباقنا تباعا.

وفي نهاية العشاء، قدموا لنا أطباقا من السلطة، المطعمة بقطع من المأكولات البحرية كذلك، إلا أنني ـ وكذلك أمير وسيسي ـ لم أستطع أن أمسها، إذ كانت معدتي قد امتلأت عن آخرها بكل الأطباق السابقة. أما عن الأبوين، وزياد أيضا، فاستمروا يلتهمونها إلى النهاية.

اقتربت الساعة من الحادية عشرة، ولكن من الغريب أن أحدا من الرواد حولنا لم يترك المطعم، بطول الأمسية. حتى الأطفال كانوا يجرون حول المناضد من حولنا، رغم تأخر الوقت. فهمت من الأب بيدرو، أنّ تلك كانت عادة الإيطاليين في تناول طعامهم، متمهلين، متخيرين، متذوقين، بينما هم يتجاذبون شتى الأحاديث إلى أن ينتهوا تماما، ثم ينصرفوا إلى بيوتهم.

وفي نهاية الأمسية، خرج الطباخ المصري، ليحيّينا. شكرناه بحرارة على جَودة طهيه، وبالفعل أدركنا من كلامه أنه كان إسكندريًّا مثلنا، هاجر إلى روما قبل نحو عشر سنوات.

تلقى الأب فرانسوا مكالمة هاتفية، فابتعد قليلا عن منضدتنا، حتى يستطيع التحدث، بدون أن يقلقنا، حين كنا نتكلم مع الطباخ السكندري.

بينما نحن في الحافلة الصغيرة، في طريقنا إلى الفندق، إذا بالأب فرانسوا يسألنا بجدية:

"أود أن أتطرق إلى أمر حساس بعض الشيء."

التفتنا نحوه متطلعين، فإذا بوجهه وقد انطرحت عنه البشاشة المعهودة، ثم أضاف:

"بالطبع، أنتم لا تتابعون الأخبار المتنامية، التي تصلنا، بينما أنتم مشغولون بأحداث رحلتكم المباركة. لكنّ الشر ما يزال يجتاح العالم من حولنا. لقد حدث شيء خطير اليوم."

توقف عن الكلام لبرهة، ثم خفض وجهه نحو أرضية الحافلة، في ظلمة الليلة المحيطة، وتكلم بصوت ملؤه الشجن:

"تلقيت مكالمة الليلة، تفيد باختطاف كاهن فرنسي، من داخل كنيسة في شمال فرنسا، بالقرب من بلدة تدعى "روان"، وقد قام باختطافه رجلان اثنان ينتميان إلى داعش. من المؤسف أن أقول إن هذا الكاهن، البالغ من العمر أربعة وثمانين عامًا، قد مات متأثرا بطعنات سكين أودت بحياته. قلبي حزين للغاية لما حدث، وأصلّي أن ينيح الرب روحه، ويسكنه فردوس النعيم. ولكني أود أن أسألكم الليلة، كيف هي الحالة الأمنية في مصر الآن، ونحن على أعتاب زيارتنا لهذا البلد العريق. أرجوكم أن تجيبوني بكل صراحة، هل هناك.. أعني لكاهن فرنسي مثلي.." وسكت قليلًا، ثم أضاف: "ما هي نسبة الخطورة؟"

انعقدت ألسنتنا. لم نكن نعلم شيئا عما حدث، كما توقع الأب فرانسوا. دارت في رأسي الأفكار.. وتوالت مشاهد قتل المسيحيين.. وحرق منازلهم.. بل وإحراق الكنائس بشتى أنحاء مصر.. وبالأخص في بلدان الصعيد.. من بعد الثورة الثانية ضد حكم الإسلاميين.

تبادر إلى ذهني أنّ دير الأنبا أنطونيوس أبي الرهبان ـ المزمع زيارته كما أشار قداسة البابا إلى كانديد ـ يقع في جنوب مصر. صحيح أنه متواجد بقرب شاطئ البحر الأحمر، بعيدا عن محافظات مصر الجنوبية المتاخمة لنهر

النيل، حيث الأحداث الإرهابية، لكنّ شمال فرنسا بعيد عن تجمعات داعش بالمثل. هل أقول له إن مصر بلد آمن، وقد سرقوا سيارتي من أمام بيتي، ولم تستطع الشرطة حمايتي، حين التجأت إليها؟ هل أدَّعي أمان بلدي، وأنا الذي حبست نفسي أسيرا بها، ألوذ بحيطان شقتي، فامتنعتُ عن الخروج منها لسنوات، حتى جاءت مكالمة أمير، فخرجت بعدها من بيتي، ومن الإسكندرية، ومن مصر كلها؟

التفتُّ نحو أمير، مستعطفًا إياه أن يرد سؤال الأب فرانسوا عني. لكنّ حال أمير لم تبدُ أحسن من حالي. بل لاح مرتبكًا، متحيرا، مهفوتا، وترأرأت عيناه سريعًا بيننا، فأدركت أنه بلغ حافة الانهيار.

وكيف لا؟ فالمسكين كان واحدًا من ضحايا تفجير كنيسة القديسَين بالإسكندرية، في فجر الأول من يناير عام ٢٠١١، حين كُسرت ساقه، بضعة أسابيع قبل أن ألقاه لأوّل مرة، بعد الثورة مباشرة. ثم إنَ أباه قُتل غرقًا إذ دفعوا سيارته إلى ترعة، فمات. كان جرمه الرهيب هو إنشاء كنيسة، بتحويل مبنى يملكه في الصعيد إلى كنيسة. ومن قبله، ذبح الإسلاميون جده، صاحب متجر الذهب، وسرقوا مصوغاته. ألم تؤد كل تلك المصائب التي ألَّمت به إلى ما هو عليه؟

وجَبَ عليَّ ـ إذن ـ أن أرد عنه، وبإسراع، وإلا جن جنون أمير ابني على الملأ. فما كان مني إلا أن قلت:

"الإرهاب الدموي يحارب العالم بأسره، يا أبي القس. وكما هو الحال في فرنسا، فإن مصر من البلدان التي تعاني من ويلات تلك الحرب الكاسرة. ولا تنس أنّ هذا هو أساس رحلتنا للبحث عن كانديد، اعتقادًا منا ـ وخاصة أمير ـ بأنّ هذا هو السبيل الأمثل لتخليص هذا العالم من شرِّ الإرهاب. ولا يفوتنّك أنّ مصر ـ يا عزيزي ـ ما تزال تحتضن أكبر عدد من المسيحيين في الشرق الأوسط، رغم كل شيء."

تنهد الأب فرانسوا، وقد رفع رأسه من جديد، وهو ينظر نحونا، وقد لمعت عيناه وسط الظلام السائد داخل الحافلة الصغيرة، القاطعة شوارع روما، ثم قال:

"إذن فلنصلِّ لأن تباركنا العذراء المقدسة، وتبسط يديها الطوباويتين من حولنا، لتحافظ علينا هنا، وهناك، وفي كل مكان."

ثم أغمض عينيه، وأحنى رأسه، وراح يصلِّي.

في صباح اليوم التالي، ومن بعد نوم مضطرب، تركنا الفندق. أمام المدخل، لقينا الحافلة الصغيرة ذاتها ، حيث جلس الأبوان فرانسوا وبيدرو يستقبلاننا ببشاشة وبِشر. ساعدنا السائق في رص الحقائب في مؤخرة المركبة، إلى جوار حقيبة متوسطة الحجم خمنت أنها تخص الأب فرانسوا. حينها، أدركت أنّ الأب بيدرو جيوفاني لن يسافر معنا، إذ لم ألمح له حقيبة. وفي الحقيقة، لقد تحرجت من سؤاله ليلة الأمس، خاصة بعد حديثه الحميمي حول جده، وذكرياته عن مدينتي، الإسكندرية.

توجهَت العربة بنا إلى المطار عبر المدينة، ثم إلى الطرق السريعة. وظللت موجها نظري إلى النافذة، تنتابني مشاعر متناقضة؛ فها أنا أودِّع شوارع روما، وسلسلة الجبال البعيدة عند الأفق، حينما اقتربنا من المطار. كأنني أشيِّع شخصًا تعرفت عليه، وتوثقت صداقتنا، فصار قريبًا لديَّ، ولكنّ ذهني ـ مع ذلك ـ صار يعبُره، وأنا أتفكر مغتبطًا في لقاء الحبيب المأمول. كنت أشعر بالتعب، من بعد تلك السفرة المديدة، التي ألقت بكاهلها فوق جسدي العجوز. لذا بتّ متطلعا، أكثر من أيّ وقت، إلى العودة لبلدي.

في مطار ليوناردو دافنشي، وهو اسم مطار روما الدولي، تولى الأب بيدرو مسألة التذاكر، وعيَّن شابًا حمل حقائبنا فوق عربة، وأوصلها إلى السير المتحرك. ثم اتجهنا نحو مكتب الجوازات، وبسرعة تراقص خاتم الضابط فوق جوازات السفر. استدار الأب بيدرو نحونا، فأعطانا الجوازات، وسلَّم علينا بقبضة يد دافئة، متمنيا لنا رحلة سعيدة.

حين حان موعد الصعود إلى متن الطائرة، وجدت الأب فرانسوا يهبّ واقفًا، قبل أي شخص آخر، وهو يشير إلينا أن نتبعه.

كانت تلك أوّل مرة في حياتي أسافر ضمن الدرجة الأولى. استقبلني المقعد الرحب فاحتضنني بلدانته، وطراوته، ثم سرعان ما جاءت المضيفة، وهي تحمل فوق ابتسامتها الواسعة، فوطًا ساخنة، لنمسح بها وسخ الحياة القاسية، التي تركناها لتوّنا، ولنستعدّ للدخول إلى جنة الغنج، ونعيم الدلع.

ملتُ نحو سيسي التي جاورتني، فلقيتها مبتهجة، منتشية، تكاد أن تطير من فرط الغبطة، لكأنها استعادت بصرها.

المنضدتان اللتان امتدتا أمامنا، اكتستا بمفارش بيضاء، حريرية الملمس. وتسابقت كاسات الشامبانيا، والعصائر، وأطباق الفواكه، والنبيذ، إلى التلاقي معنا، دونما مشقة أو سؤال. ثم توالت أطباق الطعام الساخن، نأكلها بشوك وسكاكين من الفضة الخالصة، وكاسات من الكريستال البراق، ثم المزيد من النبيذ.

قلت لسيسي مازحًا:

"لو أنّ الكتب السماوية اكتفت بوصف مثل هذا النعيم، مكافأة للصالحين منَّا، لانتظم الناس في الصلاة والصوم بلا انقطاع ليلا أو نهارا!"

أما هي فقهقهت ضاحكة. ثم أضافت ساخرة:

"ولكنّ تلك الكتب السماوية عينها، هي أوّل من يحرض ضد راكبي الدرجة الأولى، في أول الأمر. بل ويقولون باستحالة دخولهم إلى فردوس النعيم ذاك الذي تزعمه!"

الخامس عشر

للحق، كان استقبال ضابط الجوازات لنا، في مطار القاهرة، لا يقل حفاوة عن المعاملة التي اختبرناها في روما. وخلال لحظات معدودة، كنا التقطنا حقائبنا، من فوق السير الكهربائي، وصرنا خارج المطار.

صدمتنا رياح ساخنة، محملة بالغبار، وبرائحة عوادم السيارات، عند الرصيف، حيث اصطفت سيارات الأجرة، في انتظار الزبائن. طلبت سيارة كبيرة تتسع لخمسة أفراد وخمس حقائب، فأتوا لنا بحافلة صغيرة، مثل تلك التي أقلتنا إلى مطار روما. قال لي السائق:

"مائتي جنيها.."

فرددت بسرعة:

"بل مائة جنيه، ثم أنك لم تعرف بعد إلى أين ستأخذنا، ربما قلت اذهب بنا إلى الإسكندرية، فهل كانت تكفيك المائتا جنيها؟ ثم إننا لسنا سائحين!"

ابتسم السائق، وهو يلقي بناظريه نحو ضابط المرور الذي كان يرمقه عن بعد. ثم قال بعد تردد:

"إلى أين العزم؟"

"وسط البلد، شارع كلوت بك، مدرسة الراهبات هناك."

"لا توجد مدرسة بشارع كلوت بك!"

"إذن فربما هو دير للراهبات!"

"ولا دير! ألم تذهب لشارع كلوت بك من قبل، يا حاج؟"

"اذهب بنا إلى هناك، ينوبك ثواب، ثم نسأل حين نصل.."

وبالفعل ترصصنا بداخل السيارة، لكنّ تكييف الهواء لم يكن يعمل، ففتحنا زجاج نوافذ الحافلة، بينما كانت تمرق بنا بين جحافل المركبات. جلس الأب فرانسوا في المقدمة، إلى جانب السائق، وصار يتراقص، مع كل انحراف يصدر عن العربة، وهي تتعارج بين أرتال السيارات المتدفقة. وكلما اقتربنا من قلب القاهرة، قلّت سرعة العربة، وقلّ الهواء الآتي من الطاقات المفتوحة. سألتني سيسي وهي تتمايل بجذعها من ناحية إلى أخرى:

"هل جن السائق، وإلا فلماذا يقود العربة بمثل هذه السرعة، كأنها سيارة إسعاف! ثم ما تلك الرائحة؟ هل نمر خلال مزارع، أو شيء من هذا القبيل، أشم رائحة روث!"

التفت الأب فرانسوا، إذ استمع لتساؤلها، فرد بالإنجليزية، لكن بلكنته الفرنسية المحبوبة:

"لا يا سيسي، نحن نعبر أكثر الشوارع امتلاء على سطح كوكبنا، والسرعة لم تتجاوز ستين كيلومترا في الساعة، هذا إن وصلت إلى هذه السرعة أصلا. لكنّ السائق لم يلتزم بحارات الطريق، ولو لمرة واحدة. كما أنّ أحصنة،

وحميرًا كانت تشاركنا الطريق، بل وأبصرت جملًا كذلك، مما يفسر رائحة الروث التي شممتِها!"

خلال نحو ساعة، وصلنا إلى شارع كلوت بك.

الشارع الضيق المزدحم، لم يوح فعلا بوجود دير أو مدرسة به، لكنّ السائق توقف أمام دكان صغير، جلس صاحبه الشيخ أمامه يدخن النارجيلة، فسأله. أشار الشيخ وهو ينفث دخانه حول كلماته:

"يمين.. قدام.. درب رياش.. جنب 'صيدناوي".. لكنها قفلَت.. ثم سحب نفسا جديدا!"

وبالفعل وصلنا إلى المدرسة المهجورة، التي علمنا بأنها أغلقت أبوابها، فلم تعد تستقبل تلاميذ.

على أيّ حال، نزلت، أنا وأمير والأب فرانسوا، بينما بقيت سيسي في العربة، بصحبة زياد والسائق. طرق أمير الباب الخشبي، لكنّ أحدا لم يفتح. أعاد الخبط بقوة هذه المرة، وبعد عدة دقائق، انفتح الباب، وأطل وجه امرأة متوسطة السن، محجبة الرأس.

"أيّ خدمة؟" قالت المرأة بصوت خفيض.

فأجاب أمير بسرعة:

"نحن نبحث عن الأخت ماري حِنَّة.."

"ومن أقول لها أنكم تكونون؟"

"نحن من طرف الفاتيكان، أقصد الأب جان لوي فرانسوا من طرف المطران فالليني بروما.."

"أرجوك انتظروا لدقائق."

ثم دخلت، وأغلقت الباب من ورائها.

بعد لحظات، انفتح الباب من جديد، وخرجت امرأة جديدة، أصغر قليلا من المرأة الأولى، سمراء البشرة، بشوشة الوجه، جميلة القسمات. قابلتنا بابتسامة عريضة، وهي تمد يدها لتسلِّم على الأب فرانسوا بحرارة، وكأنها تعرفه. وبدوره، اغتبط هو حتى أنه مد يسراه ليهز كف الراهبة بكلتا يديه، وهو يقدم نفسه ـ بصعوبة ـ باللغة الإنجليزية:

"الأب جان لوي فرانسوا من أبرشية باريس، تحت رئاسة المطران قداسة الأب 'أندريه الثالث والعشرين" راعيها ومرشدها، أطال الرب في خدمته المباركة."

فردت الراهبة على الفور بالفرنسية:

"مرحبًا بك في القاهرة، أيها الأب الموقر. لقد اتصل بي المكتب البابوي، وأعلموني بقدوم قدسكم."

مال أمير برأسه نحوي، وترجم لي كلماتها. ثم بادر فسألها باللغة الفرنسية أيضًا:

"وهل أعلموك أيتها الأخت المباركة، عن قدوم شخص آخر، يدعى كانديد، يا ترى؟"

فردت بدون تردد:

"بالطبع، وقد وصلوا قبلكم، هو وعائلته، وساعدتهم في الحصول على غرف بفندق 'شيراتون النيل" ليلة أمس."

فنظر أمير إلى الأب فرانسوا، مستحثًا إياه أن يلتقط الخيط، ففهم رسالته وعقب:

"هل لكِ أن تساعدينا في الحصول على غرف بالفندق نفسه أيضًا. لقد وصلنا لتوّنا إلى القاهرة، والمركبة التي استأجرناها ما تزال تنتظرنا بالشارع، كما ترين."

ثم أشار نحو العربة.

ردت الأخت ماري حِنَّة:

"بدون شك، اسبقوني إلى السيارة، وسوف أطلب الإذن، وألحق بكم على الفور."

حين عدنا إلى العربة، وجدنا السائق متذمرا من تعطله وهو ينتظرنا. جلست في المقدمة بجانبه، وأومأت إليه مبتسما، ثم قلت:

"سوف توصلنا إلى فندق 'شيراتون النيل"، ولك مني المائتي جنيها التي طلبتها كاملة. فقط، انتظر قليلًا حتى تلحق بنا راهبة من هنا. لم تقل لي، ما اسمك؟"

"اسمي حودة، يا باشا!"

"اسمك الأصلي حودة ولا محمود؟"

"لا، بل حودة.."

شرح أمير لزياد وسيسي ما كان من أمر لقائنا بالأخت ماري حِنَّة، ثم علق متأثرا:

"مما يعني أننا في خلال دقائق، سوف نلقى صديقنا كانديد بالقاهرة، بعدما طفنا العالم من شرقه إلى غربه، ونحن نبحث عنه!"

وبعفوية علَّق حودة السائق، وهو يصفق بكلتا يديه:

"الله أكبر! كانديد باشا بنفسه شرّفنا في مصر!"

ثم التفت نحوي متسائلًا بصوت خفيض، كأنه لا يبتغي الإعلان عن جهله بتلك الشخصية المرموقة:

"أهو لاعب كرة شهير، أم ممثل عالمي؟ فكلهم يحبون مصر والأهرامات كثيرا!"

التفتُّ نحو سيسي لأترجم لها، وكذلك سمعني الأب فرانسوا، فانفجرنا مقهقهين، وانتشرت البشاشة فملأت العربة كلها، وشملت حودة أيضا.

بعد أن انسابت موجة الضحك، قلت لحودة:

"لا هو لاعب ولا ممثل؛ كانديد رجل صادق، جاء من آخر الدنيا ليبشّر بالحب بين الناس!"

فرد حودة على الفور:

"أعوذ بالله! هذا فسق يا عم الحاج!"

"ليس الحب كما تخيلتَه يا حودة، بل هو محبة وتآخ!"

فاطمأن حودة وانفرجت أساريره مجددا. وهنا جاءت الأخت ماري، ففتحت باب العربة وصعدت وجلست إلى جوار سيسي، ثم قالت للسائق أن يتجه بنا إلى الفندق.

وفيما كانت العربة تتهادى في شوارع القاهرة المكتظة، تتوقف كثيرا، وتسير قليلا، ملت إلى حودة أسأله:

"ما رأيك أن تلازمنا خلال زيارتنا كلها، من الصباح حتى المساء؟"

"عيناي لك يا باشا!"

اتفقت معه على السعر، وحذرته من عاقبة التراخي في الأداء. كما نبهته إلى احتمالات السفر الطويل إلى خارج القاهرة.

درت بجذعي إلى الخلف موجها كلامي إلى الأب فرانسوا:

"اتفقت مع السائق على مرافقتنا الدائمة، في مقابل مبلغ معقول، ما رأيك؟"

"رائع!" قالها والابتسامة العريضة تعلو صفحة وجهه.

في الفندق حجزنا أربع غُرف، بالطابق الثاني والعشرين. شاركت أمير في غرفة، بينما سكن الأب فرانسوا، وسيسي، وزياد في حجرات مستقلة. تأكدنا

من وصول الكل إلى غرفهم، وساعدَت الأختُ ماري، سيسي، على التأقلم مع أثاث غرفتها. اتفقنا على التلاقي بالمطعم، بعد نصف ساعة. أوّل ما فعلناه حين دلفنا إلى الحجرة الخاصة بنا، هو الولوج إلى الشرفة الصغيرة الملحقة، والاستمتاع لدقائق بمنظر النيل الخلاب، من ذاك الارتفاع الشاهق. اغتسلنا في عجالة، ثم انطلقنا إلى المطعم بالطابق الثاني. داخل المصعد، نظر أمير إليَّ والبهجة تشرق من عينيه وهو يقول:

"أنا لا أكاد أصدق عودتنا إلى مصر. بل وقرب لقائنا المرتقب بكانديد هنا! هل تتخيل احتمال أن نجده يتعشى معنا في المطعم، بعد دقائق من الآن؟"

كنا أوّل الوصول. جلنا بأرجاء المكان طبعا، باحثين عن كانديد. ثم اخترنا منضدة عريضة مقابلة للنافذة المطلة على النيل، أو بالحري على طريق الكورنيش المكتظ، الموازي للنهر العظيم. خلال دقائق توافد الباقون، فجلس الأب فرانسوا بجوار أمير من ناحية، وزياد من الناحية الأخرى، بينما اتخذت المرأتان المقعدين إلى جواري.

شرع الأب فرانسوا يتحدث بالفرنسية إلى ربيبيه المجاورَين، فقال وناظراه مشدودان عبر النافذة الزجاجية العملاقة، نحو نهر النيل، وحركة العربات والناس أمامه:

"أوه! ذا النهر الأزلي، الغامر، الذي تبصره عيوننا الآن! أيمكنكم التخيل بسريان هذا الشريان بجسد هذه الأرض الطيبة، منذ آلاف السنين! تجري مياهه بالرتابة الأزلية نفسها، ثم تذهب بعيدا ولا تعود أبدا. والناس من

حوله ـ مثلنا تماما ـ يعاينونه لحظات، أو أياما وسنينا، ولكنهم يذوون كذلك، ثم يرحلون، ثم يأتي أناس غيرهم، ملايين تجيء ثم تذهب. إنما تلك الأرض هي الأرض، لم تتغير، وذاك النهر هو النهر؛ النيل الخالد، لم يتحول لآلاف السنين، لم يتبدل، ولن يتبدل إلى الأبد!"

فوجئنا بامرأة أجنبية، تأتي إلى منضدتنا، تشتعل عيناها الزرقاوان دهشة، ومع ذلك فها هي تبتسم خجِلة، بينما ترفع عن وجهها خصلة من شعرها الأسود الناعم، ثم تقول بالفرنسية:

"عذرا! لم أتمكن من الامتناع عن التنصت إلى حديثكم بالفرنسية، فتوقفت، وكنت آتي ببعض القهوة إلى منضدتي، إذ انتظرت كثيرا حتى يأتي لي النادل بالمزيد من القهوة، ولكنه لم يأت! أوه، القهوة هنا رائعة! عفوا، فأنا لم أقدم نفسي، يا للوقاحة! اسمي سوزان لاكروشيي، وأنا موفدة من جامعة باريس إلى مصر، لدراسة الأقليات الدينية هنا، وهو موضوع فرعي لرسالة الدكتوراه التي أعدها عن الأقليات في الشرق الأوسط. لكنني لم أسمع أحدا يتحدث الفرنسية، بتلك اللهجة الباريسية، منذ أكثر من عام الآن، فاعذروني على تطفلي!"

هب الأب فرانسوا واقفا، ومد يده نحو المرأة ليسلم عليها، ثم أحنى رأسه قليلا وهو يقول محييا:

"وأنا الأب جان لوي فرانسوا أحد رعاة 'كاتدرائية ساكريكير" بباريس. وهؤلاء أصدقائي من بودابست، وبيروت، والإسكندرية. ولكنك لم تقولي

لنا، ماذا تفعلين هنا في الفندق، هل ترسل جامعة باريس طلابها للإقامة بـ 'شيراتون" هذه الأيام؟"

فانطلقت السيدة مقهقهه، وهي تميل بجذعها النحيل إلى الخلف، حتى كاد فنجان قهوتها أن يندلق، ثم قالت:

"معك كل الحق أيها الأب فرانسوا، وأهنئك على قوة ملاحظتك أيضا. في الحقيقة أنا أقيم في شقة متواضعة جدا بوسط المدينة. لكنني تلقيت مكالمة تليفونية بالأمس، من ملحقنا الثقافي بالسفارة الفرنسية هنا، أعلمني خلالها بأنّ ثمّة سائحا فرنسيا يطلب معلومات عن الرهبان الأرثوذوكس في مصر. وبالفعل اختاروني حتى أمدُّه بتلك المعلومات، لمَّا أدركوا أنها في صميم تخصصي. لكن العجيب في الأمر، أنّ الملحق قال لي إنّ الرجل الفرنسي صاحب الطلب اسمه كانديد فولتير، وهو أحد نزلاء الفندق هذا!"

صمتت قليلًا وهي تضحك بموسيقية محبّبة، ثم راحت تكمل:

"ألا توافقني على أنّ في المسألة لغزا يا عزيزي؟ كانديد فولتير؟ مما دفعني إلى الاستفسار أكثر من الملحق الثقافي الذي رد ببرود قائلًا إن تلك كانت المعلومات لديه، وقد تلقتها عنه السكرتيرة، قبل حضوره إلى السفارة. لكنني أتيت على أيّ حال في الصباح، وسألت عن كانديد هذا في مكتب الاستقبال، ولدهشتي وجد الموظف بالفعل نزيلًا يحمل الاسم نفسه ، وإن لم يبد تعجبه من تشابه الأسماء مع الشخصية الروائية المعروفة التي ظهر وكأنه لم يسمع بها من الأصل. على كل، لقد أعلمني الموظف بمغادرة كانديد الفندق قبل

مجيئي، إذ سأله في وقت سابق عن كيفية الذهاب إلى المتحف المصري. وعلى الفور، تركت الفندق، واتجهت إلى المتحف المصري، إذ كنت في حاجة على أيّ حال، إلى رؤية بعض الأعمال الخاصة بدراستي. لكنني انتهيت، بعد مرور ساعتين، إلى الاقتناع بأنني لن أفلح في العثور على شخص ما، لمجرد أن اسمه كانديد فولتير، في حين أنني لا أعرف شكله! وفعلًا، عدت من جديد لأنتظر وصول فخامته، عبر رحلته التاريخية من القرن الثامن عشر إلى هنا!"

ثم عزفت قهقهَتها مجددا، وهي ترفع كفها اليسرى لتغطي به ثغرها الضاحك.

بالطبع كان لكلامها موقع السحر على أمير وزياد، ثم بقيَّتنا، حين انتهى الأخير من ترجمة ما قالته إلى اللغة الإنجليزية. فبادر أمير، وهبّ ليسحب مقعدا خاليا من منضدة مجاورة، ثم دعاها إلى أن تجالسنا، معلِما إياها بأننا ننتظر كانديد فولتير مثلها.

أبدت سوزان اندهاشها من معرفتنا بكانديد، فاستجابت على الفور لدعوتنا إياها إلى مجالستنا. اغتنمت سيسي الفرصة، فقررت المشاركة في الحديث، فبادرت من وراء نظارتها السوداء، إلى شرح قصتها من بعد لقائنا بها أمام الفندق ببودابست، ثم سفرتنا، ورؤيتنا المقتضبة لكانديد في المعبد اليهودي في براج. ثم قصت عليها تعقبنا إياه، إلى فيينا، ثم رحيلنا إلى ألمانيا حيث شهدته "نادية خوري"، المرأة السورية بائعة الكباب، في مدينة "مُنستر". ثم حكت عن رحلتنا بعدها إلى باريس، حيث التقينا بالأب فرانسوا الذي

كان قد التقى بالفعل بكانديد داخل "كاتدرائية ساكريكير". وهنا التقط الأب فرانسوا طرف الحديث، فشرح لها ما كان من لقاء كانديد بعدها براهبة دير " شارع دو باك"، وسؤاله إياها عن المؤمنين الحقيقيين، ذلك السؤال الذي أدى به ـ وبنا ـ إلى روما. ثم قص لها عن لقاء كانديد ـ ولقائنا ـ بالبابا فرانسوا الذي أفضى من بعده لوصولنا إلى القاهرة. وفي النهاية أضاف زياد أيضا قصة لقائه بنا في إسطنبول، وكيف تقبلنا الشيخ القوني، قبل أن نرتحل إلى بانكوك أوّلا، ثم إلى كوالالمبور ثانية، قبل أن نعود إلى أوروبا حيث لقينا مجددا عند محطة القطار بفيينا.

لم تعلق السيدة سوزان ولو بكلمة، أثناء ذاك السيل المنهمر من التفصيلات الآتية من كل صوب تجاهها. كانت تلك التفصيلات تحكي عن تتبع أشخاص، بدوا لها في كامل قواهم العقلية، ذوي خلفيات ثقافية وأصول متعددة، ومع ذلك فهم يروون بكل جدية، وبدون أيّ شبهة سخرية، أو استهزاء بقدراتها العقلية، ورغم كل ذلك، فهم يحكون عن رحلة وهمية، طافوا خلالها بشتى ربوع الأرض، سعيا وراء شخصية خيالية، هي في الأصل بطل لرواية أسطورية، اخترعها في القرن الثامن عشر الروائي الفرنسي الساخر فولتير، والتي درستها بصفوف مدرستها قبل سنوات، ضمن العديد من الكتابات التاريخية من الأدب الفرنسي والعالمي. انقلبت ضحكاتها المجلجلة التي بادرتنا بها أولا، إلى نظرات شك وريبة باتت تلقيها

إلى كل منَّا، وكأنها تنتظر أن يعلن أحدنا، في أيّ لحظة، عن كون الأمر مقلبا أو دعابة اختلقناها باتفاق مسبق بيننا، قبل أن نلتقي بها.

بالطبع، لم يحدث هذا، بل أشار الأب فرانسوا نحونا ـ أمير وأنا ـ وهو يعلن:

"في الحقيقة، الفضل في وصولنا إلى ما وصلنا إليه، يعود إلى هذين الرجلين. فهما اللذان آمنا بفكرة سامية، ولم يدّخرا الجهد ولا العزيمة من أجل تحقيقها."

وهنا بدأت سوزان تستعيد جأشها، من بعد إدراكها جدية المسألة المطروحة، فسألت:

"لكن يا أبي، مسألة البحث عن شخصية روائية، كيف تعقلون هذا الأمر؟ كيف؟ ألا يمكن أن يكون هذا الشخص ـ مثلًا ـ مدَّعيا أو منتحلا للشخصية الروائية الشهيرة؟"

فرد الأب فرانسوا:

" بدا لي الأمر على هذا النحو أنا أيضا، ولكني تقابلت معه وجها لوجه يا عزيزتي. الرجل يتحدث عن أشياء، ويسأل سؤالات كشخص لا يمتّ لهذا العالم الذي نسكنه بصلة. ومظهره، وحتى بقية الأشخاص من حوله، ليدي كوناجوند، وبروفيسور بانجلوس، و..."

فقاطعته سوزان على الفور، ضاحكة:

"ليدي كوناجوند، وبروفيسور بانجلوس أيضًا شرّفانا بالحضور!"

"بل وحتى أخوها البارون، وكاكامبو أيضا! لقد تقابلوا برمتهم أمام أعيننا، مع قداسة البابا في الفاتيكان!"

أطرقت سوزان صامتة، وهي ترشف من فنجان قهوتها، لعل الأمور تستقيم في ذهنها بعض الشيء.

السادس عشر

انتهى الكلام. ساد صمتٌ مريب. تبادلنا اللمحات والإيماءات المترقبة التي تتغلغلها النظرات إلى ساعات اليد. نرصد حبات الزمن تتساقط. طرحُ تفاصيل الرحلة على ذاك النحو، أمام هذه السيدة الغريبة التي ظهرت فجأة في حضرتنا، كثف من شعورنا الدفين بعبث مهمتنا. طول الانتظار، كثف كذلك من شعورنا بقتامة الوقت المقبل. الحقيقة الجليّة أمامنا الآن؛ هي الغياب التام للحقيقة. هل يظهر كانديد من جديد؟

لم يبلغنا أيٌّ من موظفي الاستقبال بالفندق عن وصول كانديد. بدون سابق اتفاق، هبّت سوزان واقفة. أعلمتنا باقتضاب، وهي تتجه نحو البهو الفاخر بالطابق الأول، بأنها ستسأل عنه.

وبقينا نحن قابعين حول منضدتنا العريضة، بينما انصرف الزبائن تباعا، فلم يبق بالمطعم سوانا. بل حتى العاملون في المطعم انفضوا عنه، لفترة من الراحة في ما يبدو، قبل أن يحلّ موعد وجبة العشاء. وطال بنا الانتظار، حتى قطع أمير الصمت قائلًا:

"لم تعد سوزان. لقد مضى على ذهابها أكثر من ربع ساعة، ولم تعد!"

وعقَّبت سيسي:

"معك كل الحق يا أمير، هذا وقت أكثر من كاف لرجعتها، فتعلمنا بأمر كانديد. هل نذهب لنلحق بها إلى مكتب الاستقبال؟ لقد مللت الجلوس هنا، كما أنّ ثقل الصمت المحيط يكاد أن يطبق فوق صدري!"

بالفعل، هببنا كلنا واقفين، وانطلقنا نحو البهو الرئيسي، يتقدمنا أمير وزياد، ثم الأب فرانسوا والأخت ماري، وفي المؤخرة مشيت مع سيسي وطرقات عصاها تنقر فوق الأرضية الرخامية.

لم نجد إلا نفرا من السائحين العرب، أما سوزان أو كانديد فلم نظفر بأثر لأحد منهما. تقدم الأب فرانسوا إلى موظف الاستقبال ليستعلم عنهما. جاء بعدها منكس الرأس وتمتم قائلًا:

"لقد طلب لهما سيارة أجرة، وانطلقا بها خارجين."

تبادلنا النظرات ذاهلين. تطارحنا العبارات الغاضبة من سوء تصرف سوزان، واحتقار وثوقنا بها، ومصارحتنا لها بكل تفاصيل رحلتنا. أو كيف تسنى لها تركنا معلقين في فراغ الغموض هكذا! أما كان بإمكانها أن تعلمنا بمقصدهما، حتى ولو كان ذلك عبر رسالة مقتضبة تتركها لنا لدى موظف الاستقبال؟ هذا طبعا إن غضضنا النظر ولم نطالبها بأن تستأذن لبضع دقائق، حتى تأتي وتعلمنا بذاتها!

هنا نطقت الأخت ماري، وكانت قد التزمت الصمت كل ذاك الوقت، فقالت بكلمات إنجليزية واضحة المخارج والتعبير:

"يا أصدقائي، فلنهدأ جميعنا الآن. هل نسيتم أنكم في القاهرة؟ أتختارون أن تقضوا يومكم الأول في القاهرة، وأنتم محبوسون بين جدران هذا الفندق، حتى وإن بات سجنكم هو ذاك القفص الذهبي، كما يقولون؟ هيا بنا، فالسائق حودة ما يزال ينتظرنا في السيارة بالخارج. ما رأيكم في رحلة قصيرة، للاستمتاع برؤية غروب الشمس، من فوق هضبة الأهرامات؟"

كان لكلامها مفعول السحر، خاصة لدى الأب فرانسوا. فتبدل المزاج، وتبعناها مهللين، كأننا أطفال في طريقهم إلى رحلة للهرم.. حتى سيسي تبدت فرحة أخيرًا، وزالت عن ملامح وجهها تلك الريبة والانقباض اللذان تعلقا بها، منذ تلاقينا بالسيدة سوزان بمطعم الفندق.

بالفعل وجدنا حودة قابعا بالحافلة الصغيرة، متذمرا كعادته. ولكنه كان محقا كل الحق هذه المرَّة بالذات؛ فالحراس حول مداخل الفندق منعوه من الانتظار، فصار يسوق عربته حول الفندق، فيغوص في خضم ذلك الزحام الفظيع، ثم يعود من جديد خشية أن نكون في احتياج لخدماته. قال إنه قد فعل ذلك لأكثر من عشرين مرة منذ تركنا.. اعتذرتُ له. ثم تبادلنا أرقام التليفون، حتى نتواصل عبرها في المستقبل، فلا يضطر إلى الإتيان، إلا في حالة رغبتنا في الخروج من الفندق. طلبَت منه الأخت ماري التوجه إلى الأهرامات، فامتعض قليلًا، إذ غمغم بأنّ الطريق سوف يصير مسدودا تمامًا في هذا الوقت. لكنه فضل أن يسوق وسط الزحام القاتل، عوضا عن أن يبقى يدور حول الفندق، كما ظل يفعل لمدة ثلاث ساعات.

حينما عبرنا نهر النيل أشار إليَّ حودة أن أعلمهم بخروجنا من القاهرة ودخولنا إلى أول محافظة الجيزة حيث الأهرامات. ثم أشار إلى دار الأوبرا الواقعة على اليمين، وبعد قليل لوَّح نحو قبة جامعة القاهرة، ثم حديقة الحيوان، متفاخرا بأنهما أقدم جامعة، وأقدم حديقة حيوان بالشرق الأوسط. ترجمت إليهم ما قاله، وأنا متعجب من سعة اطِّلاع ذاك الشاب البسيط. علَّق زياد متضاحكًا:

"حقّ ما يقولون إن مصر أم الدنيا!"

وعقَّب الأب فرانسوا:

"في الحقيقة، أنا مذهول تمامًا! فمظاهر التحضر من حولنا فاجأتني. كنت أتوقع معاينة النيل ومن حوله بضعة أراض مزروعة، ثم رمال وصحاري ممتدة، وجِمال، وبدو يأخذوننا من مكان إلى آخر. لم يخطر لي أن أجد مثل هذه الجسور المنمقة، وتلك العمائر الشاهقة، بل والشوارع ذات الأربع حارات، و.." ولكنه توقف برهة ليضحك، ثم أضاف:

".. وإن لم أجد سيارة واحدة تلتزم بتلك الحارات حتى الآن، ولا حتى سيارة السيد حودة، سائقنا اللطيف!"

شعرت بالفخر بمصريتي، وقلت في نفسي: إذا كان ينطق بمثل هذا الغزل في القاهرة، فما بالك لو رأى الإسكندرية، مدينتي المحبوبة!

كان تدفق السيارات معقولا، حتى وصولنا إلى ميدان الجيزة. ولكن ما إن دخلنا إلى مشارف شارع الهرم، حتى توقفنا عن الحركة تماما. ثم بدأت رحلة

جديدة، صرنا فيها نحتفل كلما اجتزنا مترا، وكأنه إنجاز من إنجازات هرقل الاثني عشر!

كأنها العادة، أو ربما الهوية الشامخة، فقد حدث أن دفنت رؤية الأهرامات الثلاث معها كل ضغينة ظلت معلقة في نفس أيٍّ منا، من بعد واقعة اختفاء سوزان لاكروشيي مع كانديد، بتلك الكيفية الملتبسة. حلّ سلام وسكينة بحوطاننا. اختصر الأب فرانسوا مشاعرنا، في تعليق عفوي صدر منه، بمجرد أن دلف من باطن العربة، إلى الأرض الصخرية، ورفع ناظريه نحو قمة الهرم الأكبر الشاهقة، فتمتم قائلًا:

"يا إلهي!"

سرعان ما احمرت السماء فوق مدينة القاهرة الكبرى، المسترخية في هدوء أسفل هضبة الأهرامات، ثم غربت شمس يومنا الأول فوق أرضها.

اقترح حودة أن نتجه نحو حي "الحسين" قبل أن يحل الظلام، فنتناول عشاءً مصريا أصيلا، من كباب وكفتة، عند "الدهَّان" هناك، ثم نحتسي الشاي في مقهى "الفيشاوي" الشهير. سررت بالفكرة، فطرحتها عليهم. رحبوا بغير حمية، إذ لم يعرفوا شيئا عن المكان، أو الجو الأصيل الذي كان ينتظرهم.

اشمأزت سيسي، ومعها الأب فرانسوا من فكرة التهام طائر الحمام، الذي يعتبرونه في بلادهم، طائرا أليفا هم يقدّمون إليه الطعام، لا هو الذي يقدَّم إليهم طعاما! منعتهم قسرا من تناول السلطات غير المطهية، فاستجابوا

ممتعضين. لكنّ قطع الكباب، والكفتة المشوية، تكفلت برسم الهناء فوق سماتهم.

وبالفعل، كما نسق حودة تماما، توجهنا إلى مقهى "الفيشاوي"، عبر حارة ضيقة متفرعة من الميدان الفسيح.

ولكن فاجأنا آذانُ العشاء بينما نحن نسير إلى هناك، ولم يكونوا سمعوا الآذان من قبل. لم أتوقع ردة الفعل التي كادت أن تُسقط سيسي وتطرحها أرضا، من فرط مباغتة الصوت المدوي الذي انطلق عبر مكبر الصوت. وتلفت الأب فرانسوا بغتة، ولسان حاله يتساءل عما يكون كنه ذاك الإنذار. بالطبع طمأنّاهما بأنّ هذا الصوت هو مجرد دعوة للصلاة، قادمة من "مسجد الحسين" العريق، القائم على بعد بضعة أمتار منا.

تساءل الأب فرانسوا، مهدئا من روعه، عن إمكانية زيارته للمسجد، فرد زياد مشجعا:

"لا أرى أيّ مانع. كل ما هنالك هو أن تخلع حذاءك عنك، كما سنفعل كلنا، وعلى سيسي أن تغطي شعرها بمنديل. أما عن الأخت ماري، فشعرها مغطى، ولا تحتاج إلى أي إضافة!"

لكنني سارعت بالرد:

"مهلًا يا عزيزي زياد! فما يسري على بيروت ومساجدكم بها، قد لا يسري على مثيلاتها هنا. عندكم، تستطيع المرأة المسلمة الزواج من رجل مسيحي

ماروني بكل بساطة ويسر، ولكن هنا لا يجوز. حتى نأمن العواقب الوخيمة، فلندع الأخ حودة يعود إلى الجامع، بعد انتهاء الصلاة، فيستأذن من الإمام في مسألة دخول رجل دين مسيحي إلى المسجد، قبل أي شيء."

وافق حودة مذعنا، فالفكرة تخصه منذ بدايتها. أما سيسي فعقبت بعصبية:

"أما عني، فلست أريد الدخول إلى أيّ مسجد! ثم ما الذي يمكنني في كل الأحوال، أن أبصره داخله؟ سوف أبقى بالخارج، حتى تتمّوا الزيارة."

هدّأت الأخت ماري من روعها، فطمأنتها أنها ستبقى معها بالمقهى، بينما يدخل الباقون إلى المسجد، في حال سمحوا لهم بالدخول.

بدا زياد متذمرا. وما إن وصلنا إلى المقهى، حتى انفجر قائلا:

"حينما كنا في براج، وأعلنت امتناعي عن الدخول إلى المعبد اليهودي، سخرتم مني، وبالذات أنتِ يا سيسي. أما الآن، فمن حقك ـ بالطبع ـ الامتناع عن دخول المسجد، ولا غبار عليكِ!"

فعلقت سيسي ساخرة:

"يا لك من شاب أهوج! أتعتقد أني أمتنع عن دخول الجامع لأسباب دينية؟ ألم تدرك إلى الآن أنني لا أعتقد في أيّ شيء، ألا ترى أنّ دخولي مسجدا أو كنيسة أو معبدا سيان لديَّ في جميع الأحوال؟ كل ما في الأمر هو أنني لم أبدل ثيابي منذ كنا في روما بالأمس، ومن ساعتها ونحن نطير ونسير ونصعد ونهبط. والآن تريدني أن أخلع حذائي، لأدخل الجامع؟ ربما يعتبر

أحدهم تلك الرائحة الناضحة من جواربي، واحدة من الأسلحة الكيميائية المدمرة، فتتسبب زيارتي في نشوب حرب عالمية ثالثة!"

ضحك زياد، وضحكنا. ثم سرعان ما اعتذر لها عن سوء ظنه بها. دارت أكواب الشاي، المغموسة بداخلها ورقات النعناع الخضراء. وطلب زياد نارجيلة له ولسيسي ولحودة السائق، وعبَّر الأب فرانسوا عن إعجابه برائحة الدخان العطرية، لكنه امتنع عن مشاركتهم التدخين.

ثم ذهب حودة عنا، وما لبث أن عاد بشوشا، معلنا:

"الشيخ 'علي التائب"، أحد الأئمة هناك، في انتظارنا."

تلك كانت أوّل مرة أدخل فيها إلى باحة مسجد. خلعت عني الحذاء، وأنا أتفكر في كلام سيسي، فأكتم الضحك في نفسي، لئلا يُفسَّر على أنه لَوْن من الاستهزاء. فوجئت بالمساحة الهائلة داخل الجامع العريق، وعشرات الأعمدة الرخامية القائمة صانعة خمسة أروقة متوازية، تمتد إلى حدود البصر. لاقانا الشيخ علي السنِّي بسمرة وجهه البشوش المائلة إلى الحمرة، وقال مرحبا:

"أهلًا بكم في مسجد ومقام سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما وأرضاهما. المسجد العريق عمره نحو ألفيّة من الزمان، لكن تحديدا ثمانمائة واثنان وستون عاما بالتمام والكمال. فلقد بدأوا بناءه في عصر الفاطميين في عام خمسمائة وتسعة وأربعين هجريا، الموافق للعام مائة وأربعة

وخمسين بعد الألف ميلادية. ولكن قولوا لي أوّلا، ما هو سر اهتمام الفرنسيين بهذا المسجد اليوم بالذات؟"

ترجم زياد ما قاله الشيخ "علي التائب" إلى آذاننا، وبالأخص الأب فرانسوا، فسارع الأخير بالسؤال:

"ومَن مِن الفرنسيين أتى إلى المسجد أيضا، يا شيخ 'علي"؟"

تكفل أمير بترجمة سؤال الأب فرانسوا للشيخ علي. فرفع الشيخ النحيل ذراعه اليمنى، وبدأ يحك ذقنه الأبيض الأشعث، ما بين إبهامه وسبابته، ولمعت عيناه السوداوان، بينما تبسَّم بحذق وهو يردّ:

"قبيل المغرب، جاءت إلى هنا عائلة فرنسية كاملة؛ شيوخ ورجال وشباب وشابات، قبيلة كاملة! باتوا يطلبون ـ مثلكم تماما ـ زيارة الجامع. ألا ترون في الأمر غرابة، وخاصة مع وضع السياحة في مصر هذه الأيام؟ سألني أحدهم أسئلة غريبة، مريبة، وقد ترجمت كلامنا لهم شابة من بينهم، تنطق العربية الركيكة، بعدما ادَّعت أنها ما زالت إلى الآن تدرس بالجامعة في مصر، رغم كونها في عمر أكبر بناتي!"

مال نحوي أمير، وهمس في أذني:

"سوزان لاكروشيي، بلا أدنى شك!"

قرر زياد بفطنة تغيير مسار الحديث، فسأل الشيخ:

"هل يوجد رفات الحسين بن علي هنا بالمسجد؟ سمعت البعض يقول إن رفاته في العراق، وبعضهم يقولون في سوريا، في ما يقول آخرون إنه في إيران!"

فرد الشيخ "علي التائب" بلهجة واثقة:

"رأس سيدنا الحسين وحدها ـ كما يقال ـ مدفونة هنا بالضريح. قام الأولون بنقلها من فلسطين إلى هنا، خوفا عليها من غشم الصليبيين الزاحفين إلى هناك في تلك الأيام. تعالوا لأريكم الضريح."

تبعناه صامتين. عند باب جانبي بالجدار الأيمن للبهو المترامي، دلفنا إلى غرفة مربعة رحبة، يتوسطها بناء مكعب مرتفع، تعلو زواياه أربع مآذن صغيرة. كان جداره منقوشا بآيات قرآنية، تتخللها شبابيك خشبية معشقة، ولكن مصمتة، فلا تتيح الرؤية عبرها. وهو محاط بسياج من الخشب والمعدن، يحول ما بين الضريح وبين عبث المريدين والزوار.

عدنا بعد هذا اليوم الحافل إلى الفندق، متعَبين للغاية. وخلال دقائق، كنا قد غيرنا من ثيابنا، واستعددنا للنوم. ولكن فجأة سمعنا طرقا متتاليا على باب الغرفة، فأضاء أمير الفانوس الذي توسط سريرينا، ثم هبّ من سريره مستطلعا. دخل الأب فرانسوا الحجرة وهو ما يزال في هندامه ذاته الذي كان عليه طوال اليوم، معتذرا، وهو يفض ورقة بين يديه قائلا:

"جاءني شاب من العاملين بالفندق قبل دقائق، وطرق بابي، وقدّم لي هذه الرسالة، معتذرا بأن أحدا لم يرني حين عدنا من الخارج. وقد زعم بأنّ امرأة تركت الرسالة بمكتب الاستقبال، راجية أن يسلموها إياي الليلة للأهمية."
ثم شرع يقرأ الرسالة بالفرنسية:

"عزيزي الأب فرانسوا: أود أوّلا أن أقدم اعتذاري عن تركككم هكذا بالمطعم دون أن أعلمكم بخروجي بصحبة كانديد وعائلته. نعم! بالرغم من غرابة هذا الأمر، وصعوبة تصديقه، إلا أنني بمجرد سؤالي الموظف عما إذا كان السيد كانديد فولتير قد عاد من الخارج، حتى أشار إليَّ باتجاه رجل، يجلس إلى أريكة بين جمع من السائحين، أمام الحائط المواجه للمكتب، فتوجهت نحوهم على الفور. قدمت نفسي، فهبّ الشاب واقفا، بقميصه الهفهاف، وسرواله القصير المنفوخ، وشعره الأشقر المجعد، ثم انحنى وقبّل يدي! وسرعان ما قدم لي عائلته؛ ليدي كوناجوند، وأخاها البارون، بروفيسور بانجلوس، وحتى كاكامبو، ومارتن، والمرأة العجوز؛ صديقة زوجته.. نعم، الجميع كانوا هناك!"

"ثم أفصح لي السيد كانديد عن رغبته في زيارة جامع الأزهر. لكنه طالب بأن نذهب إليه على الفور، لأنه سمع بأن المشيخة تغلق أبوابها في الثالثة عصرا!"

"بكل أسف، لم أتمكن من الاستئذان لإعلامكم، إذ خرجنا على الفور. فلم يكن متبقيا من الوقت عندئذ، سوى أربعين دقيقة قبل الموعد. وبالفعل استقللنا سيارتي أجرة واتجهنا إلى هناك. وصلنا قبل الموعد بدقائق، فطلب كانديد مني أن أسعى إلى أن يتقابل مع فضيلة شيخ الأزهر، فما كان مني إلا أن أذعنت وترجمت مطلبه. لكن تعذر ذلك بالطبع، لسبب أو لآخر. بيد أنهم سمحوا لنا بلقاء أحد مساعديه."

"لست أتعمد الإطالة، لكن اللقاء لم يكن ناجحا بالمرة؛ إذ أصر السيد كانديد على أن يبادر بسؤال الشيخ عن "المؤمنين الحقيقيين"، مما جعل الشيخ يعتقد بأنّ في سؤاله إيحاء بأنه لا يعدّه ـ بل ولا يعدّ مشيخة الأزهر برمتها ـ من المؤمنين الحقيقيين! واعتقد على الفور بأنه مختل، أو متطرف من اليمين الغربي، أو ـ في أفضل الأحوال ـ جاء ليسخر منه! انتهى الأمر بأن اعتذر الشيخ ـ بأدب جم ـ عن اضطراره إلى إنهاء اللقاء لأمر هام، ثم دعانا إلى زيارة مسجد الحسين القريب من المشيخة، علّنا نجد ضالتنا هناك."

"نصحته بالسير على الأقدام، إذ كانت الشوارع مغلقة تماما لأنّ الساعة كانت ميعاد انصراف الموظفين. فوافق مبتسما. في الطريق، شرح لي أمر زياراته لمختلف البلدان ـ تماما مثلما تفضل أصدقاؤك بسرده ـ باحثًا عن المؤمنين الحقيقيين. لكن سرعان ما توقف عن السير، وتبدلت سحنته، فاستحال لونه، وشابه حزن أليم، إذ وجد معظم الناس يعتزون بطريقتهم الخاصة في العبادة، دون بقية العبادات، تماما مثلما كانوا يفعلون قبل مائتين وخمسين عاما! بل إنّ التقاتل ما بينهم ما زال مستمرا، للأسباب ذاتها، هذا إن لم نقل إنه ازداد تفشيا بسبب تطور أساليب القتال، وتنوعها أيضا."

"لم يتبدل أسلوبه، أو تتغير وجهة نظره ـ مع كل أسف ـ بعد زيارة مسجد الحسين. وها أنا أكتب إليك هذه الكلمات لأعلمكم عن عزمه زيارة أديرة 'وادي النطرون" عند صباح الغد الباكر، وأتمنى أن نلقاكم هناك. الإمضاء، سوزان لاكروشيي."

انتهى الأب فرانسوا من القراءة، فطوى الرسالة بعناية، ثم سأل:

"هل يعرف أحدكم شيئا عن أديرة وادي النطرون؟"

قلت على الفور:

"بالطبع! وهي ليست ببعيدة عن مدينتنا، الإسكندرية، على بعد نحو ساعتين من هنا."

"حسن. وقد طلبت من حودة المجيء في التاسعة من صباح الغد. أتعتقدون بأنّ الوقت كاف، أم نتصل به الآن ليبكّر عن ذاك الموعد؟"

نظرت نحو أمير، فنطق بسرعة:

"بل ينبغي أن ننطلق من هنا في الثامنة، لنلحق بكانديد قبل العاشرة، فمن يدري ربما لا يجد مؤمنيه الحقيقيين هناك، فيفر منا نحو موقع جديد!"

ثم نظر نحوي، وهو يقول:

"لقد تبادلتما الأرقام، صحيح؟"

فأمسكتُ الهاتف واتصلت به، وكان ما يزال بعد في طريقه إلى بيته بحيّ بعيد يدعى "عين شمس". تفاهمنا على أن يأتي في السابعة صباحا، فوافق ناقما. ثم مر الأب فرانسوا بغرفتي زياد، وسيسي، ليعلمهما، ولحسن الحظ قررت الأخت ماري أن تبيت الليلة على أريكة في غرفة سيسي، فلم نحتج للمرور عليها في الصباح.

السابع عشر

في السابعة والنصف صباحًا حضر حودة بحافلته التي بدت لامعة، وكأنه غسل عنها تراب الأمس، خلال الساعات القليلة الفائتة. تعلل بحملة مرورية عطلته. لكنه عاد وطالبني في ما بعد، بزيادة في الأجر، لسبب التبكير في المواعيد، وللسفر إلى خارج القاهرة.

أعترِف بأن القاهرة في الصباح الباكر، تستيقظ أكثر إشراقا ولطفا. قبل أن يستفيق ناسها، تصبح قاهرة مغايرة لما باتت عليه؛ تصحو رقيقة، نظيفة، وحانية. تصير أقرب إلى القلب. حينها، تكون أشبه بمدينتي المحبوبة، الإسكندرية.

خضنا في شوارع المدينة بيسر، وسرعة لم يصدقها حودة ذاته. أمير، التبسه هدوء مطَمئن، وغفل زياد بجانبه. وجلست سيسي إلى جواري، تستمع لوصفي معالم الطريق التي نمر بها باهتمام. الأب فرانسوا اتخذ المقعد الأمامي، بمحاذاة حودة، وبذل جهدا مضنيا للتواصل معه. وأثمرت جهوده، حين لاحظت ردود حودة بكلمات إنجليزية مبتكرة، والعديد من الإشارات، والكثير من الضحكات الصادحة، التي ملأت العربة بِشرا.

أمَّا عن الأخت ماري، فبدت ساهمة، كأنها تفكر في أمر ما، أو ربما كانت تصلي، لست أدري. فهي امرأة هادئة، إن تجاوزنا وسلّمنا ـ جدلا ـ بأنوثتها؛ فشعرها المغطى بعناية، وحاجباها السميكان، والشعيرات الرفيعة النابتة فوق شفتيها، وإلى سالفَي خديها، وهندامها الرمادي الفضفاض، ويداها الخشنتان، الغليظتا الأصابع، كلها قد توحي إليك بأيّ شيء غير الأنوثة. وهي إلى جانب كل هذا، شحيحة الحديث، بخيلة في إظهار مشاعرها، حتى تكاد أن تنسى وجودها إلى أن تنطق بكلمة، أو تقوم بحركة ما، فتفاجأ بأنها كانت موجودة وسطنا الوقت بطوله.

بعد نحو ساعة ونصف من سفرتنا، توقف حودة أمام استراحة، فعنَّفه أمير، إذ أراد أن يواصل إلى الأديرة مباشرة. لكنّ الأب فرانسوا، دافع عن حودة ـ صديقه الجديد ـ وقال إنه يحتاج إلى زيارة دورة المياه، وكذلك طلبت سيسي بعض القهوة مع سيجارة، وسألتني إن كان التدخين متاحا، فأجبتها ساخرًا:

"مرحبا بكِ في مصر، بلد الحرية الحقيقية!"

أذعن أمير للأغلبية، بل وطلب كوبا من الشاي بالنعناع، وكذلك فعلت أنا وزياد. أمَّا الأخت ماري، فاكتفت بكوب ماء، حتى أنها أبت أن يأتوا لها بزجاجة مياه معدنية. واستأذن حودة في طلب فنجان قهوة كذلك.

خلال نحو ساعة، كانت العربة واقفة أمام بوابة "دير الأنبا مقار". لم يسمح لنا الراهب الرابض عند المدخل بالدخول إلى الدير، لسبب صوم

الرسُل. سأله أمير، وألحّ في السؤال عما إذا لم يسمح بمرور عربة ربما تكون قد أتت قبلنا. فأنكر الراهب الشاب قائلًا:

"الدير مغلق عن الزيارة، حتى الثاني عشر من يوليو، عيد الرسل، أعاده ربنا عليكم وعلينا بالخير. لكن أديرة الأنبا بيشوي، والعذراء للسريان، والعذراء للبراموس مفتوحة. اذهبوا إليها، فتنالوا البَركة!"

رغم إشارة عقارب الساعة إلى العاشرة صباحا، فإن حرارة الشمس الساطعة، كانت قد بدأت تضرم الجو حميا. ومع ذلك، قررنا الذهاب إلى دير السريان، الأقرب لدير أبي مقار المغلق.

تلقانا الرهبان هناك بترحاب، وبشاشة. بل وخصصوا لنا راهبا شابا، يدعي أبونا إسطفانوس، ليرافقنا في أثناء الزيارة. اصطحبنا الراهب النحيل، ذو الجلباب والطاقية القاتميّ السواد، وذو اللحية الداكنة القصيرة، مقارنة ببقية الرهبان ذوي اللحى المبيضَّة المسترسلة، تتأرجح فوق صدورهم، فأخذنا إلى المضيَّفة؛ وهي ساحة واسعة، نظيفة، ذات مقاعد حجرية، مفروشة بالكليم البدوي المشغول، تظللها أشجار الجهنمية، بزهورها الحمراء الزاهية، المتسلقة فوق سياج خشبي مرتفع يحدها. استأذن، وانصرف عنا لبضع دقائق، ثم عاد حاملا، على سبيل الضيافة، صينيةً عريضة، استقرت عليها أكواب الشاي وقطع من الفطير. جلس جنبنا، ثم شرع يسألنا من أين أتينا، وماذا نرجو من زيارة الدير. فوجئت بالراهب الشاب يتحدث الإنجليزية بطلاقة، حين علم بوجود أجانب بيننا.

وبينما انشغلنا بالإجابة عن أسئلته، مع احتساء الشاي وقضم قطع الفطير الطازج، إذ بادره أمير على الفور بالسؤال المباشر عن وصول كانديد ورفاقه إلى الدير. ابتسم الشاب، وهو ينكر علمه بمجيء أجانب إلى الدير حتى الساعة الحاضرة.

سألته سيسي أيضًا عما إن كان يسمح له بالزواج. فضحك الراهب وهو يرد بأنه متزوج فعلًا، ولكن من الكنيسة، أما العالم بزواجه وانشغالاته، فقد مات عنه، يوم قرر أن يهب ذاته لحياة الرهبنة. فعادت لتسأله:

"ولكن ماذا تفعل بحياتك، وأنت شاب هكذا؟ قل لي، كيف تمضي وقتك هنا؟"

أجابها الراهب:

"في الواقع، حياة الراهب مملوءة عن آخرها، رغم أنّ اليوم هنا يبدأ قبل شروق الشمس، وينتهي في الليل، إلا أن أحدا منا هنا لا يجد لحظة واحدة، ليشعر معها بالفراغ. فنحن نصلي معا، ونعمل، كل بحسب تخصصه ودراسته الجامعية، ونقوم باستقبال الزوار، وندرس الكتاب المقدس، إلى جانب مجموعة هائلة من كتب العقيدة، والتاريخ، واللاهوت. والبعض يباشر تعليمه في دراسات الماجيستير، والدكتوراه في بعض الأحيان."

"أتعني أنّ كل الرهبان هنا جامعيون؟"

"أكثرهم، إلا الشيوخ منا، الذين انضموا إلى الدير قبل عهد قداسة البابا شنودة الثالث."

قاطعته سيسي على الفور قائلة:

"البابا من؟ كنت أظن أنّ هناك بابا واحدا، وهو بابا الفاتيكان! فعلينا الآن أن نلتقي بباباوات آخرين، والعمر لم يبق به الكثير!"

ضحكنا كلنا، ما عدا الراهب الشاب، الذي لم يدرك مغزى الدعابة. لكنه انبرى مدافعا:

"لا، بل هنالك بابا لكنيسة الإسكندرية، التي أسسها القديس مرقص الإنجيلي. حقيقي أنه حتى القرن الثالث كان رئيس الكنيسة يدعى أسقفا، حول العالم، إلى عام ٢٣٢ ميلاديا، في عهد البابا القديس 'هيراكلاس"؛ الأسقف الثالث عشر لكنيسة الإسكندرية. ومع ذلك، فإن بابا روما الأول كان 'يوحنا الأول" الذي جاء في منتصف القرن الخامس الميلادي."

في الحقيقة، لم أكن أعرف أيًّا من تلك المعلومات، ولكنني لم أنخرط في مسلك الرهبنة من قبل!

انتهينا من احتساء الشاي، فوقف أمير مستأذنا في الانصراف، إذ كان علينا أن نواصل بحثنا عن السيد كانديد. أما أبونا إسطفانوس فكان له رأي مختلف، إذ قال:

"يجب ألا تنصرفوا من هنا، قبل زيارة البحيرة."

فرد الأب فرانسوا هذه المرة:

"أيّ بحيرة؟"

"بحيرة أيوب، المعروفة بـ 'نبع الحمراء". فلها قصة جميلة، سوف أقصها عليكم في الطريق."

فقاطعه أمير قائلًا:

"معذرة يا أبونا إسطفانوس، فلا وقت لدينا، إذ نحن جئنا في مهمة، نسعى لإنجازها. لك منا كل الشكر."

فابتسم أبونا إسطفانوس، وتساءل بأدب جم:

"حتى وإن قلت لك إن هذه البحيرة شرب منها الطفل يسوع رب المجد، والسيدة العذراء مريم؟"

فانتفض الأب فرانسوا غبطة، وقال:

"انتظر لحظة يا أمير!" ثم واجه الراهب متسائلا:

"أرجوك أن تقصّ علينا روايتك أيها الأب إسطفانوس."

فأشار إلينا بالجلوس ثانية، ثم قال:

"أثناء رحلة العائلة المقدسة إلى مصر، عبروا النيل عند فرع رشيد، عند جنوب الدلتا المصرية، وخاضوا في منخفض وادي النطرون، في طريقهم إلى القاهرة، ومنها إلى الصعيد. لكنهم، في أثناء تواجدهم هنا في منطقة وادي

النطرون، شعر الطفل يسوع بالعطش. فتوقفت العائلة المقدسة أمام البحيرة، ثم مدت السيدة العذراء كفها لتذوق المياه، فوجدتها شديدة الملوحة، فلم تدع يسوع يشرب منها. لكن عطش الطفل اشتد عليه، فما كان منها إلا أن ضربت بكفها برفق فوق سطح المياه، فتدفقت مياه حلوة تنبع وسط مياه البحيرة المالحة، فسقت طفلها منها. ومنذ يومها، ما تزال المياه الحلوة تنبع من وسط المياه المالحة، فتشفي الأبدان، وتروي عطش الناس إلى المياه المقدسة عبر قرنين من الزمان. والآن، هل ما زلت على رأيك في أمر الانصراف يا سيد أمير؟"

أما سيسي، فلم تشأ أن تمرر الأمر بتلك السهولة، فانتظرت حتى انتهى الراهب من روايته، ثم سألته:

"قصة جميلة فعلا! لكن قل لي من فضلك: في أيٍّ من كتب التاريخ قرأتها؟"

فابتسم الراهب في هدوء، وبثقة أجاب:

"هناك المئات، بل الآلاف من القصص والروايات التي توارثتها الكنيسة القبطية، من جيل إلى جيل، فحفظها الآباء في عقولهم وقلوبهم، قبل كل شيء، ثم في كتابات متعددة عبر الزمان. تلك الروايات والممارسات التي توارثناها عبر الأجيال، نسمّيها نحن 'التقليد الكنسي"؛ نحفظه ونحرص على نقله لأبنائنا من بعدنا كما هو، بلا انحراف أو تغيير. وقد كتب يوحنا الحبيب في إنجيله: 'وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة،

فلست أظن أنّ العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة"، وأيضًا: 'وآيات أُخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أنّ يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه". هذا التقليد الكنسي ـ أو التقليد المقدس ـ ليس حكرًا على الكنيسة القبطية، والأب فرانسوا بالتأكيد يؤيدني في قولي هذا."

فابتسم الأب فرانسوا وأومأ موافقا، ثم قال:

"لست أبتغي أن أحوّل هذه الجلسة اللطيفة إلى درس في العقيدة. 'التقليد المقدس" تعبير لاهوتي يستخدم في بعض الكنائس المسيحية، قد ظهر في الأساس في تراث الكنيستين الكاثوليكية الرومانية، والأرثوذكسية الشرقية، للإشارة إلى القواعد الأساسية للسلطة الكنسية. فتُدوَّن تعاليم النصوص المقدسة في 'الكتاب المقدس"، ويتم تناقلها، ليس فقط بالكتابة، ولكن أيضًا بحياة آبائنا الأولين، الذين عاشوا بحسب هذه التعاليم. وليس من اللازم أن تكتب تعاليم 'التقليد"، وإنما من الممكن أن يحيا بها المرء، ثم تسلمها الأرواح التي عاشت وفقا لها، لأرواح أناس آخرين، عاصروهم، واحتذوا بمثالهم، وذلك وفقا لقدوة السيد المسيح للرسل، أو تلاميذه، تماما كما علّمنا الإنجيل المقدس، وكما تفضَّل الأب إسطفانوس فشرح من قبل."

جلس أبونا إسطفانوس إلى جوار حودة، ليرشده إلى طريق البحيرة، ومكثنا صامتين في انتظار معاينة الأعجوبة المعجزة، التي قامت بها العذراء مريم بحسب قصة الراهب الشاب.

بعد لحظات، وصلنا إلى البقعة التي أشار إليها الراهب، فنزلنا من السيارة، وسبقنا أمير إلى رفع شربة ماء من النبع المتدفق وسط المياه المالحة، فشرب منه متعجبا من عذوبته. تبعه زياد، ثم حودة، وأفرغت الأخت ماري زجاجة مياه كانت معنا، ثم ملأتها من النبع، فشربت منها، ثم عرضت على سيسي أن تحتسي بقيتها. أنفت سيسي أن تفعل، ولكن لكي لا تشعرها بتأنيب ما، أخذت الزجاجة، وأفرغت بعض الماء في كفها، ثم خلعت عنها نظارتها السوداء، وغسلت عينيها بمياه البركة، وقالت:

"لقد قلت لنا، أيها الأب إسطفانوس، إن مياه هذه البِركة تشفي الأبدان. ها أنا أنتظر المعجزة التي تبشّر بها، فيذهب عني العمى الذي اعتراني منذ طفولتي!"

رد عليها الراهب قائلا:

"فقط آمني، فيكون لك حسب إيمانك. الكتاب المقدس يقول: 'لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك، فينتقل. ولا يكون شيء غير ممكن لديكم." اطلبي من الله بإيمان، فتتحقق معجزاته في حياتك، ولتكن مشيئته."

شرب الأب فرانسوا من النبع الحلو أيضا، ثم علَّق متعجبا:

"مياه عذبة، تنبع وسط بحيرة مالحة، ومعجزة للسيدة العذراء تناقل خبرها الآباء عبر الأجيال، ولا يعرف العالم عنها شيئا! عجبت لكم أيها

المصريين! يبدو أنّ فيض المعجزات الذي حباكم الرب به، قد أصابكم بتخمة روحية، فصرتم لا تدركون من بعدها مقداره."

عقب أمير على الفور:

"هذا حقيقي، فالمصريون يعيشون وسط سلسلة من المعجزات والأعاجيب. فلا يكاد أن يمر عام، حتى نسمع عن ظهور للسيدة العذراء بواحدة من الكنائس، أو عن أيقونة فوق حائط بغرفة ما، تنضح بزيت لا ندرك كنهه. كما نسمع هنا وهناك عن معجزات شفاء، أو عن أموال تظهر فجأة فتعول أرملة وعيالها، أو مسنّ يؤتى إليه بدواء لم يملك ثمنه. بل إن استمرارية عيش سواد المصريين، تعد للمتأمل فيها بمثابة الأعجوبة، في ظل ظروف الحياة التي يمرون بها، مع مطلع كل شمس. لكنّ معجزة المعجزات التي نرجوها الآن، هي الوصول إلى مكان كانديد خلال رحلتنا اليوم!"

كان الراهب ينصت باهتمام إلى كلمات أمير. ولمَّا انتهى، سأل متحيِّرًا:

"ماذا تقصد بمعجزة الوصول إلى مكان كانديد، وأين يقع هذا المكان؟"

ضحكنا بالطبع من سؤاله. لكنّ الأب فرانسوا تدارك الأمر، خشية أن يذهب الاعتقاد بالراهب إلى أننا نسخر منه، فقال موجها كلماته إليه:

" أرجوك لا تؤاخذنا أيها الأب إسطفانوس، فنحن كنا نضحك من أنفسنا، فالمثل الفرنسي يقول: 'الضحكة تعقب سوء حظ الآخرين". أقصد أننا نسخر من فشلنا في العثور على 'كانديد"، وهو ـ بالمناسبة ـ شخص وليس مكانا يا صديقي العزيز."

فأيدتُ كلامه وقلتُ:

"كالمثل الشائع عندنا يا أبونا: 'شر البلية ما يضحك!"

عدنا إلى الدير، حيث باركنا الأب إسطفانوس، من بعد أن شرح لحودة الطريق إلى دير "الأنبا بيشوي"، الذي لم يكن يبعد أكثر من مرمى حجر عن دير السريان.

بالفعل، وصلنا في غضون دقائق معدودات. ومرة ثانية، استقبلنا عند البوابة راهب شيخ، خشن السمات، رحّب بنا في ود. لم يبغ أمير الإطالة، فسأله مباشرة:

"صباح الخير يا أبونا، هل زار الدير أجانب اليوم؟"

فردّ الراهب بصوت واهن:

"بالأمس زارنا أجانب بالفعل. لكن اليوم، منذ الساعة الثامنة، عندما استلمت البوابة، لم يدخل الدير أيّ زوار أجانب."

شكره أمير، ثم التفت نحونا، وهو يترجم ما قاله الشيخ لتوه.

فقال الأب فرانسوا:

"ليس من الممكن أن يكونوا جاؤوا بالأمس، لأنني تسلمت خطاب سوزان الذي كتبته عند المساء، وقالت فيه إنهم سيأتون إلى الدير في الصباح. وبما أنه لم يأت أجانب اليوم، فالأرجح هو أننا سبقناهم إلى هنا. أنا أقترح أن ندخل إلى الدير، فننتظر وصولهم إليه."

لاقى رأيه استحسان الجميع، ما عدا أمير بالطبع. فهو لم يقنع أبدا ـ منذ عرفته ـ بانتظار الآتي وترقب وصول كانديد، بل كان مرضه يدفعه دفعا لينشد التحرك، وملاحقة الزمن، بإلحاح قهري، يستحوذ على كيانه وماهيته في أغلب الأحيان. لكنه بدا على أيّ حال أهدأ من عهدي به، فاستفسرت منه عن ذلك هامسا، بينما كنا في الطريق إلى داخل الدير. فنظر نحوي متبسما، وقال:

"لست أدري، ولكنني أشعر بالهدوء نفسه الذي أحسست به قبل سنوات، قبل تخرجي من الجامعة، حين اصطحبني أبي ـ رحمه الله ـ في رحلة طويلة، تلاقيت بعدها بأبونا إيليا، الراهب بدير السيدة العذراء بأسيوط. لست أجد تفسيرا، ولكنني أشعر هنا أني قريب من الله!"

بالفعل، مرقنا إلى داخل أسوار الدير، وكالعادة اصطحبنا واحد من الرهبان إلى جولة سريعة، أشار خلالها إلى أعلى، إلى جسر صغير يقع ما بين مبنيين قديمين، فشرح أنّ الرهبان كانوا يستخدمونه، في العهود القديمة، ملاذا من اللصوص المغيرين على الدير، فيهرع الرهبان إلى المبني الثاني، ثم يخلعون مفصلة تربط الجسر به، فيسقط، فلا يقدر المعتدون على اللحاق بهم. ثم أخذنا إلى المضيَّفة، التي كانت غرفة واسعة في مبنى بدا كأنه حديث البناء. ثم انصرف الراهب المائل إلى البدانة، الذي يدعى "أبونا جرجس"، وعاد بأكواب الشاي، وسندويتشات فول، اعتذر عنها الراهب الشاب متضاحكا

بخجل، متعللا بصوم الرسل الذي كنَّا في أواخر أيامه. وقد استغربَ الأب فرانسوا وسيسي من هذه السندويتشات في البداية، لكنهما ما لبثا أن استساغاها بعد ذلك.

اصطحبنا أبونا جرجس ذو الوجه الأبيض البشوش، واللحية البنية المائلة إلى الحمرة، بعد فراغنا من الأكل، إلى زيارة أطول لأنحاء الدير. أخذنا إلى كنيسة أثرية قال إنها شيِّدت في القرن الخامس الميلادي، مزدانة بأيقونات عتيقة للسيدة العذراء ورسل السيد المسيح. لاحظت السقف المقبب، الذي يضفي على الجو تكييفا طبيعيّا، فشرحت لسيسي التي أيدتني مؤكدة أنها شعرت بكون الكنيسة ألطف حرارة من الطرقات خارجها.

ثم صحبنا الراهب إلى صومعة "القديس بيشوي"، الذي سمّي الدير على اسمه. في الطريق، حكى لنا قصته الشهيرة بينما كانت حرارة الشمس تلهبنا؛ فقد شهد أحد رهبان القرن الرابع الميلادي رؤيا تفيد باعتزام السيد المسيح الظهور له عند الفجر، فوق قمة هضبة قريبة مرتفعة. فأعلن الراهب رؤيته على بقية الرهبان، فتسارعوا يتسلقون الطريق الوعر، المؤدي إلى أعلى التل، للتواجد هناك، حين يتجلى السيد المسيح. عند مستهل الطريق، كان ثمة راهب شيخ قاعدا هناك، يترجى كل راهب يمر به أن يحمله إلى أعلى التل الذي فشل في أن يتسلقه بمفرده. لكن أيًّا من الرهبان لم يقبل حمل الشيخ لصعوبة الخطب، وخشية أن يعيقه ذاك عن بلوغ القمة، والتمتع بلقيا المسيح

المتجلي. ثم مر به القديس بيشوي، فرق لحاله، وبالرغم من تقدم العمر به، فقد قرر أن يحمل الشيخ فوق ظهره فيصعد به إلى أعلى التل، مشفقا أن تفوته رؤية الظهور المقدس. وبصعوبة شديدة فعلا، وصل القديس إلى قمة الهضبة المرتفعة، حاملًا الشيخ فوقه. لكن النهار كان قد بزغ، فتساءل وهو بين الرهبان إن كان فاتهما تجلِّي السيد المسيح. أعلمه بقية الرهبان بأنه لم يتجل بعد، فأدار الراهب الشيخ رأسه، ليُطمئن الراهب الآخر الذي كان يحمله، فإذا به يختفي في الحال. أدركوا عندها أنّ الراهب المسن لم يكن سوى السيد المسيح ذاته، الذي ظهر في صورة راهب عجوز، تجلّى لشخص القديس بيشوي دونَ بقية الرهبان، لأنه وافق أن يتكبد عناء حمله فوق ظهره إلى أعلى التل. ثم تأكد القديس بيشوي بنفسه بعدها، حين ظهر له السيد المسيح يوم خميس العهد، فأذن للقديس أن يقوم بغسل قدميه، كما فعل هو مع تلاميذه قبل أن يأكلوا الفصح معا للمرة الأخيرة، قبل الصلب والقيامة.

في داخل صومعته، تدلى حبل من السقف، عند منتصف الحجرة الضيقة. أعلمنا أبونا جرجس بأن القديس بيشوي كان يشتهي أن يمضي الليل بطوله ساهرا يصلي، وأنه كان يربط شعر رأسه بالحبل، حتى إذا ثقلت عيناه، وغلبه النعاس، فخرَّ رأسه، يجذب الحبل شعره، فيستيقظ، ويعاود الصلاة.

عدنا بعدها إلى المضيَّفة، في حين مضى أمير وزياد، قاصديْن البوابة ليستعلما عن احتمال أن يكون كانديد قد وصل، أثناء انشغالنا بالجولة حول أنحاء الدير. عاد الرجلان إلينا، نافيين وصول أيّ أجانب إلى الدير. لم يكتف

أمير بزيارة واحدة للبوابة، بل طفق يروح ويجيء كل نصف ساعة تقريبا، رغم الحر الشديد.

علقت سيسي قائلة للأب فرانسوا:

"ذاك الفيض من المعجزات! هل لي أن أطمع في معجزة تخصني أنا أيضا؟ هل أطمح في أن أبصر من جديد، أيها الأب الورع؟"

فرد الأب فرانسوا على الفور:

"غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله. هكذا كلم السيد المسيح تلميذَه بطرس، في إنجيل القديس لوقا، يا ابنتي."

تساءلت في نفسي إن كان أبونا جرجس، الراهب الشاب المنوط بخدمتنا هذا، يصلح ـ من وجهة نظر كانديد ـ أن يُعد ضمن "المؤمنين الحقيقيين"، أولئك الذين ما فتئ يستفسر عنهم على الدوام بين كل من لاقاهم.

الثامن عشر

لم يظهر كانديد.

لم تفلح كل تلك المعجزات في الإتيان به. تعجبت من إصراره على الفرار منَّا، مهما كانت الظروف.

بقي أبونا جرجس معنا يحدثنا، ويفسّر لنا تفاصيل حياة الرهبان بالدير. أدركنا أنه كان مسؤولا عن مراجعة مخطوطات قديمة بالدير وتبويبها، إذ كان متخرجا في كلية الآداب، قسم التاريخ. لكنه، وبعد مضيٍّ بضع ساعات، كفّ عن الكلام، وهو يتساءل عن خطوتنا التالية، إذ صار عليه أن يلحق ببقية الرهبان في اجتماع الصلاة قبل غروب الشمس.

استمر أمير في رحلاته القهرية إلى بوابة الدير، ليستفسر عن وصول أجانب، حتى أصابه الإعياء. جلس هادئا وسطنا، وامتنع عن الكلام. لاحظت هدوءه غير المألوف، لكنّ ما لفتني حقا، ونحن نستعد للرحيل، إنما هو احمرار وجهه الأسمر، وتصبب العرق الغزير من قمة شعره الداكن المبلل، كأنه سقط في بركة ماء. ناديته مرَّات، فلم يردّ. غاب أمير عن الوعي، وصرت أنا أهزه ليستفيق بلا جدوى.

أثارت حركاتي المفاجئة الانتباه، فتلفت الجميع إليَّ، فأشرت نحوه. انتفض أبونا جرجس من مطرحه، ومس جبين أمير براحته، ثم قال مهتما:

"إنه يغلي! لا بد أنه أصيبَ بضربة شمس. سوف آتي بأبونا "يسطس" ليفحصه، فهو طبيب."

أسرع مغادرًا وخلال دقائق، عاد يحمل دلوا ممتلئًا بالثلج، يصاحبه راهب آخر، أكبر منه سنا، قصير القامة، ممتلئ، تحمل يمناه حقيبة جلدية سوداء، وتطم وجهه نظارة طبية غليظة، ينساق وراءها في تقدمه الحثيث نحو أمير.

خلال لحظات صار أمير ممددا فوق بضع وسادات على الأرض، وسرعان ما كان الراهب الجديد قد فتح فمه، وجذب جفنيه، واستمع لقلبه، وعدّ نبضه، وقاس ضغطه. وفي خلال دقائق معدودة، أخرج من حقيبته السوداء إبرة غرسها في ساعد أمير، ثم أوصلها كالحاوي بأنبوب يصل إلى كيس مملوء بسائل شفاف، علق أعلاه فوق مسمار كان يحمل صورة لأحد القديسين. وبخفة، نقع أبونا جرجس فوطة في دلو الماء المثلج، ثم رفعها وعصرها، ثم مسح بها وجه أمير وصدره العاري، من بعد ما انتزع عنه قميصه.

غدا يكرر ذلك مرات ومرات، والسائل الشفاف يسري في جسد أمير. وانحنى الأب فرانسوا وركع يصلي. أما سيسي، فاكتفت بمتابعة الأصوات الآتية نحو أذنيها المشهرتين، وهي تدير رأسها هنا وهناك بحركات خاطفة، كالحمامة تستطلع محيطها. ولدهشتي، أصاب التوتر زياد لأوّل مرَّة، منذ أن لاقيناه في إسطنبول، ولم أتخيله بقادر على التوتر.

بعد نحو ساعة، استفاق أمير أخيرا. فتح عينيه السوداوين، وجال بهما نحونا، ثم فتح فاه بصعوبة، وقال بصوت أجش:

"هل حضر كانديد؟"

ربت أبونا جرجس فوق رأسه برفق، وهو يقول:

"الحمد لله على سلامتك. لم يأت كانديد، ولا أيّ زوار غيركم. على أيّ حال فالبوابة تغلق عند الغروب، وسوف أبحث لكم عن أمكنة للمبيت."

التفتُّ نحو الأب يسطس، وقلتُ له:

"لو سمحَت حالة أمير، فنحن نفضل العودة إلى القاهرة الليلة."

جلس أمير مستندا إلى ساعديه، وعلَّق في تؤدة ووهن:

"أشعر بتحسن، نعم.. نعم، أنا بخير الآن!"

أدركتُ على الفور مدى انتكاس حالته، فأومأت إليه مشفقا، لكنني هببت واقفا، مستعدا لمبارحة الدير، استجابة لمشيئته.

أصر الراهبان على إمدادنا بحقيبة بلاستيكية كبيرة، ملآنة بزجاجات المياه، كأننا انضممنا إلى قافلة في طريقها لعبور الصحراء.

اصطحبنا الراهبان إلى مدخل الدير، وفتحا لنا بابه الخشبي الغليظ، فدلفنا إلى العربة المستعرة، بفعل الشمس المتعامدة فوقها، طيلة اليوم.

كانت رحلة العودة أطول كثيرا. أشفقت على أمير الذي كان يفيق لبرهة، ليسأل عن الوقت، أو حال الطريق، أو أي سؤال مقتضب آخر، ثم يغفو من جديد، دون أن يستمع مجرد الاستماع إلى الإجابة.

في القاهرة، وجد الأب فرانسوا رسالة من سوزان لاكروشيي تنتظره. ففضها على الفور، ثم قرأ محتواها بصوت مرتفع:

"عزيزي الأب جان لوي فرانسوا،

تحية مرة أخرى، في حقيقة الأمر، لست أود أن أكرر نفسي، ولكنني أعتذر بشدة ـ للمرة الثانية ـ عن فشلي في لقائكم اليوم بالأديرة. فبينما كنا نستعد للخروج من الفندق هذا الصباح، إذ استوقفنا حارس الأمن، مستفسرا عن وجهتنا. عندما أجبته بلغتي العربية المكسرة عن مقصدنا، طلب مني أن أظهر له التصريح الأمني بمغادرة القاهرة. بالطبع، لم يكن مثل هذا التصريح بحوزتنا، فقلت له إننا مبعوثون من قِبل السفارة الفرنسية. طلب منا المكوث بالبهو حتى يتمكن من الاتصال بالسفارة. لكنه عاد بعد دقائق، معتذرا بأن لا أحد في السفارة الفرنسية يجيب عن مكالماته. بالطبع كان الوقت مبكرا جدا، فلم يكن أحد من موظفي السفارة قد حضر بعد. عرضت الأمر على السيد كانديد، واقترحت أن نمضي بعض الوقت في التجوال حتى نتمكن من الحصول على التصريح ريثما تفتح السفارة أبوابها. لكنه رفض الاعتماد على مكالمة هاتفية ما للحصول على إجازة بالخروج، بل فضَّل تصريحا مكتوبا،

لأنه اعتزم زيارة أماكن عدة خارج القاهرة. وها هو يأمل في أن يتاح لنا استخراج مثل هذا التصريح اليوم، وقد استأذنته في بضع دقائق أخلو فيها لنفسي حتى أكتب لك هذه الكلمات قبل أن أتوجه معهم إلى السفارة. أرجو أن تجدكم هذه الرسالة بكل خير. إمضاء سوزان لاكروشيي."

كان أمير ما يزال في وهنه من جراء الجفاف الذي سببته ضربة الشمس، فلم يعقِّب. وإنما طلب مني بعد انتهاء الأب فرانسوا من قراءة الخطاب، أن نصعد إلى الغرفة، لأنه يريد أن يضطجع على الفراش، إذ شعر بدوار.

أبلغت سيسي برغبته، فقالت إنها متعبة هي أيضا بعد هذا اليوم الطويل، فآثرت أن ترافقنا إلى غرفتها لتنام. وطلبت الأخت ماري أن يصحبها حودة إلى بيت الراهبات على أن تلقانا في الصباح. أما عن زياد والأب فرانسوا فقررا أن يجلسا قليلًا بالبار الملتحق ببهو الفندق، ليتناقشا في أمر تلك الرسالة.

في المصعد، شددت عليَّ سيسي أن يشرب أمير الكثير من السوائل، مثل العصائر، وأن أطلب له صحنا من الحساء بالغرفة، حتى يعوّض ما فقده من العرق الغزير الذي سببته لفحة الشمس.

أومأت موافقا. لكنني سألتها:

"ألا ترين غرابة في أمر ذاك التصريح بالخروج من القاهرة الذي طلبوه من كانديد؟ وإذا كان عذرهم أنه أجنبي، فلماذا لم يطلب أحد منكِ، أو من الأب فرانسوا، أو زياد، تصريحا بالمثل؟"

فسكتت لحظة، ثم أجابت:

"ربما لأننا سافرنا بصحبة مصريين؟ لست أدري في الحقيقة.. فالتعب قد تملك مني، فانشلَّ عقلي، وتشتَّت ذهني.."

ودعناها عند غرفتها، ثم اتجهنا إلى حجرتنا، حيث غيّرنا من ثيابنا، وأمسكت بالتليفون لأطلب حساء لأمير ـ كما أوصت سيسي ـ فالتفتُّ نحوه لأسأله عن نوع الشوربة التي يفضلها، فإذا به يغط في نوم عميق. وضعت سماعة التليفون، وأطفأت الأنوار، ثم استلقيت بدوري فوق فراشي، وأنا أسترجع أحداث ذلك اليوم الطويل. لكنني، لم أقوَ على كتابة تفصيلاتها فوق صفحات كراستي الزرقاء، فاكتفيت بحفظها في ذاكرتي، حتى ما أدوِّنها عند الصباح.

أصبح أمير نشطا، بشوشا، كأن شيئا لم يلم به. مررنا بحجرة سيسي، ثم نزلنا إلى المطعم لتناول الفطور. لدهشتي وجدنا الأب فرانسوا بانتظارنا. صار وجهه الأبيض المغضن ذابلا، وتجمعت هالات داكنة حول عينيه الزرقاوين. وما هي إلا دقيقة حتى هلّ زياد حاملا طبق عجة البيض بيد، وكوب عصير المانجو باليد الأخرى. لكن سحنته باتت مقلوبة هو الآخر، فهاش شعر رأسه، ونبتت لحيته. لم يلحظ أمير تغير مظهريهما، فقال مرِحا:

"أشعر بجوع شديد يعتريني. أعتقد بأنني قادر على التهام عشرة أطباق الآن، وكأنني لم أتذوق طعاما لأيام! بماذا تفسرون هذا، أيها الفلاسفة؟"

لم يعقب أحد. انتظر أمير بضع دقائق، ثم نهض واجمًا للإتيان بالأكل. سألت سيسي، فقالت إنها ستكتفي بالقهوة وثمرة كمثرى، أو أيّ قطعة من الفاكهة. سألَتني أن ألحق بأمير لآتي بطعامي، أما هي فسوف تطلب من النادل أن يحضر لها ما تبتغي.

عند عودتنا، وجدنا الكل يأكل في سكون مريب. لم أشأ أن أعلق على هيئة الأب فرانسوا أو زياد، لكن الفضول اعتراني، فقلت بينما أرشف من كوب الشاي:

"هل نمت جيدا أيها الأب فرانسوا؟"

فرفع عينيه الكليلتين نحوي ثم رد بتكاسل:

"في الحقيقة، لم ننم تقريبا ليلة أمس! "

فعلَّقتُ متوجسًا:

"يا خبر! لِمَ؟ "

سند الأب فرانسوا ظهره إلى مسند الكرسي، وبتلقائية رفع يسراه بالشوكة معلقة بأطراف أصابعه، وتركها عالقة بالهواء، تترنح هكذا مع حركة يده، وهو يقول:

"بعد أن انصرفتم ليلة أمس، قررنا، زياد وأنا، أن نتوجه إلى مكتب الاستقبال لنسأل عن كانديد بغرفته."

رشف من قهوته، ثم وضع عنه الشوكة، ومسح يديه وفمه بالفوطة، ثم أكمل:

"ما إن اقتربنا من الموظف، حتى همّ زياد بالاستفسار عما إذا كان السيد كانديد موجودا في غرفته، فإذا برجل غريب، أنيق المظهر، يهبّ من فوق مقعد مجاور للمكتب، ثم يتقدم نحونا بسرعة. كلم زياد أولا، ثم التفت نحوي وقرر مخاطبتنا معا، فسألنا بالعربية عمن نكون. بالطبع لم أفهمه، فترجم لي زياد، ثم تلفت نحو الرجل وردّ بالعربية. أما الرجل، فربت بخفة فوق كتفينا ثم قال بالإنجليزية إنه يريد أن يسألنا بعض الأسئلة. فما كان مني إلا أن سألته بدوري، عمن يكون هو، فابتسم ببرود، وهو يعلمني بأنه رجل أمن، وما يفعله ما هو إلا لمنفعتنا، ولضمان أماننا."

سكت قليلًا وهو يتجول بعينيه ليشهد وقع كلماته علينا. ثم استطرد:

"نظرت نحو زياد، فوجدت وجهه ممتقعا، وعينيه زائغتين. قلت له بالفرنسية إنّ تلك هي المرَّة الثانية التي نسمع خلالها عن رجل أمن الليلة، من بعد رسالة سوزان لاكروشيي!"

نظر نحو زياد، وكأنه يطلب تأكيد روايته، فأومأ الأخير، ثم أكمل الأب فرانسوا:

"أعتقد أنّ الرجل سمع اسم سوزان لاكروشيي، فأدرك ما كنت أتفوه به، وإن لم يكن يبدو عليه فهمه للغة الفرنسية. لكنه تقدم خطوة باتجاهنا، حتى كاد جسمه أن يلتصق بنا، وهمس قائلا إنه النقيب (كابتن كما عرفت

من زياد بعدها) 'سليم مُخلص"، من قوة الأمن الوطني. ثم أشار بيده أن نتوجه إلى ركن هادئ بالبهو، فتجاوبنا مكرهين، إذ كان عمليا يدفعنا برفق نحو المكان."

"أشار إلى الأريكة لنجلس زياد وأنا، ثم اتخذ هو المقعد المتعامد إليها. أخرج علبة سجائر، ومدها نحونا، فلم أفهم، لكنّ زياد شكره معتذرا بأننا لا ندخن. أشعل هو سيجارة، ثم أخرج بطاقته ليؤكد لزياد صفته الرسمية، ثم أعادها إلى محفظته. بعد ذلك عاد وسألنا عن هويّتينا، وسبب زيارتنا لمصر. كان ما يزال يتحدث بالإنجليزية بشيء من الطلاقة، فأجبته أنا بإنجليزيتي المعوجة، شارحا له أنني كاهن بكاتدرائية ساكريكير بباريس، فتضاحك مؤكدا أنه زارها قبل نحو عامين، لكنه لا يذكر أنه قابلني هناك. ثم قدم زياد نفسه بأنه رجل أعمال لبناني الجنسية، وشرح أننا مجموعة من الأصدقاء، جئنا إلى مصر باحثين عن الغبطة والوئام. فضحك الرجل بعصبية، بينما بات يكرر كلمات زياد، الغبطة والوئام، عدة مرَّات. ثم انعدل في كرسيه مصوبًا كلماته نحونا كالطلقات متسائلًا، وماذا تعرفان عن كانديد فولتير، وأصحابه؟"

استحوذ الأب فرانسوا على انتباهنا التام. حتى أن أمير توقف تمامًا عن ازدراد الطعام، ذلك الذي أتى به متكومًا كالتل فوق صحنه. ثم عاد فواصل قائلًا:

"أدركنا أنه يعرف كل شيء عن زيارتنا. لكن زياد آثر أن يكسب بعضا من الوقت، لننظم أفكارنا، بعد ذاك اليوم الطويل. فما كان منه إلا أن قال

مداعبا، كانديد اسم رواية قديمة كتبها الفرنسي فولتير في القرن الثامن عشر إبان الثورة الفرنسية. لكن لسوء الحظ استمسك كابتن سليم مخلص بتعبير 'ثورة" فامتقع وجهه، وصار يتفوه بعصبية: 'آه، ثورة، ثورة ضد من، ومن هم زعماؤها، ومن يمولها؟" فأسرعت أجيبه بأن زياد كان يتحدث عن الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩! ثم أضفت جازمًا: 'يبدو أن في الأمر سوء تفاهم". وسكنت منتظرًا تعقيبه."

"أما عنه فأجاب بحزم: 'هل تريد أن تقول لي إن شخصا ذا أصول ألمانية فرنسية، يدعى كانديد، يترك إسطنبول، ويتجه إلى بانكوك، ثم كوالالمبور، ثم يرتحل إلى بودابست، وفيينا، وبراج، ثم ألمانيا وبالذات في مقاطعة بافاريا، ثم باريس وروما ويأتينا إلى القاهرة، بجواز سفر يحمل كل تلك التأشيرات في غضون بضعة أشهر، ثم تقول لي إن في الأمر سوء تفاهم! هل تدرك أيها الكاهن المبجل أن تلك الأماكن تعد الآن معاقل للإسلاميين أو مموليهم حول العالم؟ هل تعرف سيادتك أنه لم يترك مكانا إلا وشكك الناس المقيمين به في صحة إيمانهم، أي بتكفيرهم؟ هل تعلم أيها الأب الورع أنَّ دولة داعش صارت تستقطب أعوانها بتكفير المجتمعات التي يحيون بها؟ هل تعلمان عدد العمليات الانتحارية التي قام بها الداعشيون حول العالم، وبالذات في بنجلاديش، وباكستان، وتركيا، وألمانيا، وفرنسا، خلال الأشهر الثلاثة الماضية، منذ أن قام صاحبكم برحلته؟ سوف أقول لكم، باعتبار أنَّ تلك هي

البلدان التي زارها، أو جال بقربها صديقكما، إنَّ تسعة عمليات إرهابية على وجه الدقة، راح ضحيتها أكثر من ثلاثمائة من الأبرياء! هل تدرك حضرتك أنّ الجهات الاستخبارية حول العالم تعمل اليوم في تناسق ومواءمة؟ أنا متأكد من أنكما تعرفان بأمر تكفيره لمساعد شيخ الأزهر، ولإمام مسجد سيدنا الحسين، وكان في طريقه لتكفير رهبان أديرة وادي النطرون، لولا أن منعناه! لكن، هل تدرك سعادتك أنّ جهاز الأمن الوطني المصري كان يعلم بأمر زيارة المدعو كانديد وأصحابه، قبل أن يصلوا فعلًا إلى القاهرة؟ ثم، هل تدري أننا أبلغنا السفارة الفرنسية لتبعث بالمدعوة سوزان لاكروشيي هذه، لتكون في صحبتهم خلال جولتهم بالقاهرة؟ ثم تقولان لي إن كانديد ليس إلا رواية فرنسية قديمة! بعد كل ذاك الحديث المسترسل الذي أتحفنا به كابتن سليم مخلص، كان الرعب قد تملك منا، فلا تنسوا أننا غريبان عن هذه المدينة!"

أُسقط في أيدينا! ما كل هذا الهزل!

صار زياد يعبث بحركة لا إرادية بشعيرات ذقنه النابتة، بينما ذهب الأب فرانسوا يفرك عينيه الذابلتين، وكأنه يقاوم فرار دمع آثر كبته. أما عنَّا، فساد سكون مطبق فوق رؤوسنا، فلم ينطق واحد منَّا بحرف. وبعد السكون الذي بدا كأنه أزلي، صرَّح الأب فرانسوا بالمزيد:

"لكنّ السيد سليم مخلص لم يكتف بكل ذلك، بل طلب منَّا، بلهجة قد تبدو آمرة، أن نتعاون مع جهاز الأمن الوطني المصري من الآن فصاعد، بل وحذرنا من سوء العاقبة إن لم نلتزم بذلك. كما طلب منَّا أن نرتاده في مقر الجهاز اليوم ـ بصحبتكم أيضا، فهو يعرف كل شيء عن كل واحد منا ـ للتقدم ببياناتنا الشخصية، حتى يتسنى لهم أن يحمونا من شر التورط مع كانديد وأصحابه!"

ما إن أنهى الأب فرانسوا كلامه، حتى انتابت أمير حالة هيستيرية، فصار يتلعثم بكلمات غريبة، كما بات يقوم بحركات شاذة، ويداه وذراعاه تتراقص في الهواء، كأن لها إرادتها الخاصة المستقلة، بينما هو يتطلع نحوها عاجزا كل العجز عن التحكم فيها. تذكرت وصفه لتلك الحالات حين قابلته لأول مرة منذ سنوات، ولكنني لم أكن شهدت "الحالة" تنتابه من قبل.

بدا الفزع على الوجوه، وطلب الأب فرانسوا استدعاء الإسعاف على الفور. أما أنا، فمددت ذراعي، فحوطت بوسطه، وبصعوبة أقمته من مجلسه، وسرت به نحو المصعد، حيث توجهت به إلى غرفتنا. أسدلت الستائر، لتحجب أشعة الشمس الصارخة، فساد نوع من السكينة. استمر أمير يتلعثم، وهو ينظر نحوي مغلوبا على أمره، لا يقدر أن يسيطر على كلماته المجنونة، بينما كان يتطلع نحو ذراعيه بوجل ويأس، من جراء عجزه الكلِّي عن التحكم فيهما. فضحت نظراته الملتاعة، كم الشك والخوف الذي بات

يعتريه، ومقدار الريبة فيمن حوله، بعد أن زرعت كلمات الأب فرانسوا عن ضابط الأمن الشك في قلبه، بخصوص نبل مقصده من تعقب كانديد لإنقاذ البشرية، أو الرعب من تلك القوى القهرية التي أدرك تعقبها إياه، أو حتى من المجهول الذي يشعر أنه يكاد أن يفتك به. ألقمته حبة من الدواء، ثم أضجعته فوق السرير، وأنا أتفوه بتلك العبارات التقليدية، الفارغة، التي نتفوه بها عادة في الملمات، محاولة منّي لتهدئته. لكنني مع ذلك، لم أقدر أن أنزع من رأسي خوفي الشخصي من فكرة الذهاب إلى مقر الأمن الوطني، أو أن أمحو تأثيرها عن ذهن أمير. اكتفيت بالانتظار حتى يسري مفعول الدواء بجسده، فخفَتت حركات ذراعيه العشوائية تدريجيّا، إلى أن توقفت تمامًا، كما ماتت كلماته الهذية فوق شفتيه، ثم انتظمت أنفاسه، وسرعان ما راح في سبات عميق.

مكثنا بالحجرة إلى أن حل المساء. تحينت الفرصة، حتى أدون في دفتري الأزرق، الذي تهرأت أوراقه، تفاصيل أحداث اليومين الماضيين المذهلة.

حين أفاق أمير، نحو الساعة الرابعة بعد الظهر، كان قد استرد عافيته تماما. وكان أول ما تفوه به هو تساؤله:

"هل تعتقد بصحة كلمات النقيب سليم مخلص هذه؟"

فدفعت على الفور:

"كذب، كذب، كلهم كاذبون؛ ذلك، هو أسلوب رجال الأمن والاستخبارات عبر العصور، في كل الدنيا!"

وجدتُ نفسي أجمع حاجياتي، وأرصُّها بعناية داخل حقيبة السفر. سألني أمير عما أفعل، فانتبهت، وأدركت أن رحلتنا أوشكت على الانتهاء. أجبته بأنني اشتقت للعودة إلى الإسكندرية، لبيتي، لصورة ثريا وأنا بجانبها، المعلقة في الصالة فوق الأريكة الوحيدة، التي لا بد تفتقدني بشدة.

دلفت وحدي إلى الشرفة العالية، أودّع نيل القاهرة، والبشر، والعربات الزاحفة حول ضفتيه، وعبر الجسور، تئن بأبواقها هنا وهناك. تذكرت ما قاله الأب فرانسوا يوم وصولنا، عن نهر النيل:

"تجري مياهه بالرتابة الأزلية نفسها، ثم تذهب بعيدا ولا تعود. والناس من حوله ـ مثلنا تماما ـ يعاينونه لحظات، أو أياما وسنين، ولكنها تذوي كذلك، ثم ترحل. ثم يأتي أناس غيرهم، ملايين تجيء ثم تذهب. إنما تلك الأرض هي الأرض، لم تتغير، وذاك النهر هو النهر؛ النيل الخالد، لم يتحول لآلاف السنين، لم يتبدل، ولن يتبدل إلى الأبد!"

اتصلتُ بسيسي، وزياد، والأب فرانسوا، وطمأنتهم على حال أمير، واتفقنا على التلاقي بالمطعم بعد ساعة.

في المطعم، وجدنا الأخت ماري بصحبة سيسي، وفي نفس التوقيت وصلت معنا سوزان لاكروشيي.

علمنا أن الأخت ماري كانت قد حضرت بعد انصرافنا مباشرة، لتُعلم الأب فرانسوا بترك كانديد وأصحابه للفندق، بعد اتصاله بها تليفونيّا، دون

أن يبوح لها بما يشير إلى وجهته المقبلة. جاءت على الفور، لتلحق بهم قبل أن يرحلوا، وإن لم تفلح في تحقيق ذلك.

أما عن سوزان لاكروشيي، فيبدو أنها حضرت من تلقاء نفسها، لمَّا انقطعت عنها أخبار كانديد اليوم بطوله. أو ربما كانت ـ بحسب أقوال النقيب سليم مخلص ـ ذات صلة بأعمال أجهزة استخبارية، فحضرت لتترقب وترصد ردود أفعالنا، من بعد خروج كانديد، وهروبه غير المتوقع عن محيط بحثنا. أو لربما تنقب حول كل واحد منا، فربما تعثر على خيط ما، قد يكشف عنه أيٌّ منا، عامدا أو حتى عفويا، قد يتيح لها ـ ولهم ـ مواصلة البحث عن كانديد.

صـدَر للمؤلف

رواية

زهور بلاستيك

رواية ــ الطبعة الأولى مايو٢٠٠٦ (الحضارة للنشر)

رواية ــ الطبعة الثانية نوفمبر٢٠٠٧ (الحضارة للنشر)

خاتم سليمان

رواية ــ الطبعة الأولى يناير ٢٠٠٨ (الحضارة للنشـر)

رواية ــ الطبعة الثانية مايو٢٠١٨ (دار غراب للنشر)

رقصة قوس قزح

رواية ــ الطبعة الأولى مايو ٢٠١٠ (الحضارة للنشـر)

والملائكة أيضا تصعد للطابق الثالث

رواية ــ الطبعة الأولى أكتوبر٢٠١١ (الحضارة للنشـر)

مريم والرجال

رواية ــ الطبعة الأولى مايو٢٠١٤ (دار العين للنشـر)

***

مجموعة قصصية

مِهاجرين

مجموعة قصصية فبراير٢٠٠٥ (الحضارة للنشر)

اليوم الثامن

مجموعة قصصية اكتوبر٢٠٠٩ (الحضارة للنشـر)

سحر الحياة

مجموعة قصصية فبراير٢٠١٧ (الهيئة المصرية العامة للكتاب)

***

أشعار وأزجال بالعامية المصرية

دوايـر

ديوان أشعار بالعامية المصرية مايو ٢٠٠٤ (الحضارة للنشر)

حواديت من كتاب الحب

أزجال وأشعار بالعامية المصرية يوليو ٢٠٠٥ (الحضارة للنشر)

الاسم: مصرية

ديوان أشعار بالعامية المصرية يوليو٢٠٠٥ (الحضارة للنشر)

فنجان قهوة مع جاهين

ديوان أشعار بالعامية المصرية اكتوبر ٢٠١٠ (الحضارة للنشـر)